هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم

خاتم المرسلين وسيد ولد آدم أجمعين

سيرته العطرة - الأدلة العقلية على صدقه - حقوقه على أمته صلى الله عليه وسلم .



تأليف

مصطفى حسين عوض

تبصير

للنشر والتوزيع

تقريب التراث

والرد على الشبهات



هذا هو محمد ﷺ

خاتم المرسلين

وسيد ولد آدم أجمعين



اسم الكتاب: هذا هو محمد ﷺ

اسم المؤلف: مصطفى بن حسين آل عوض

الطبعة الثانية: 1441 هـ/ 2020 م

مقاس الكتاب: 17 × 24

رقم الإيداع: / 7842/ 2019م

الترقيم الدولي : 978-977-6713-05-5



العنوان: ٣ شارع مسجد الفرقان – القناطر الخيرية – القليوبية جمهورية مصر العربية

التليفون: 01102260020 – 01019757010

website: http://tbseir.com twitter: @tabseir Fb: @tbseir

Email: tabseir@gmail.com



هذا هو محمد ﷺ

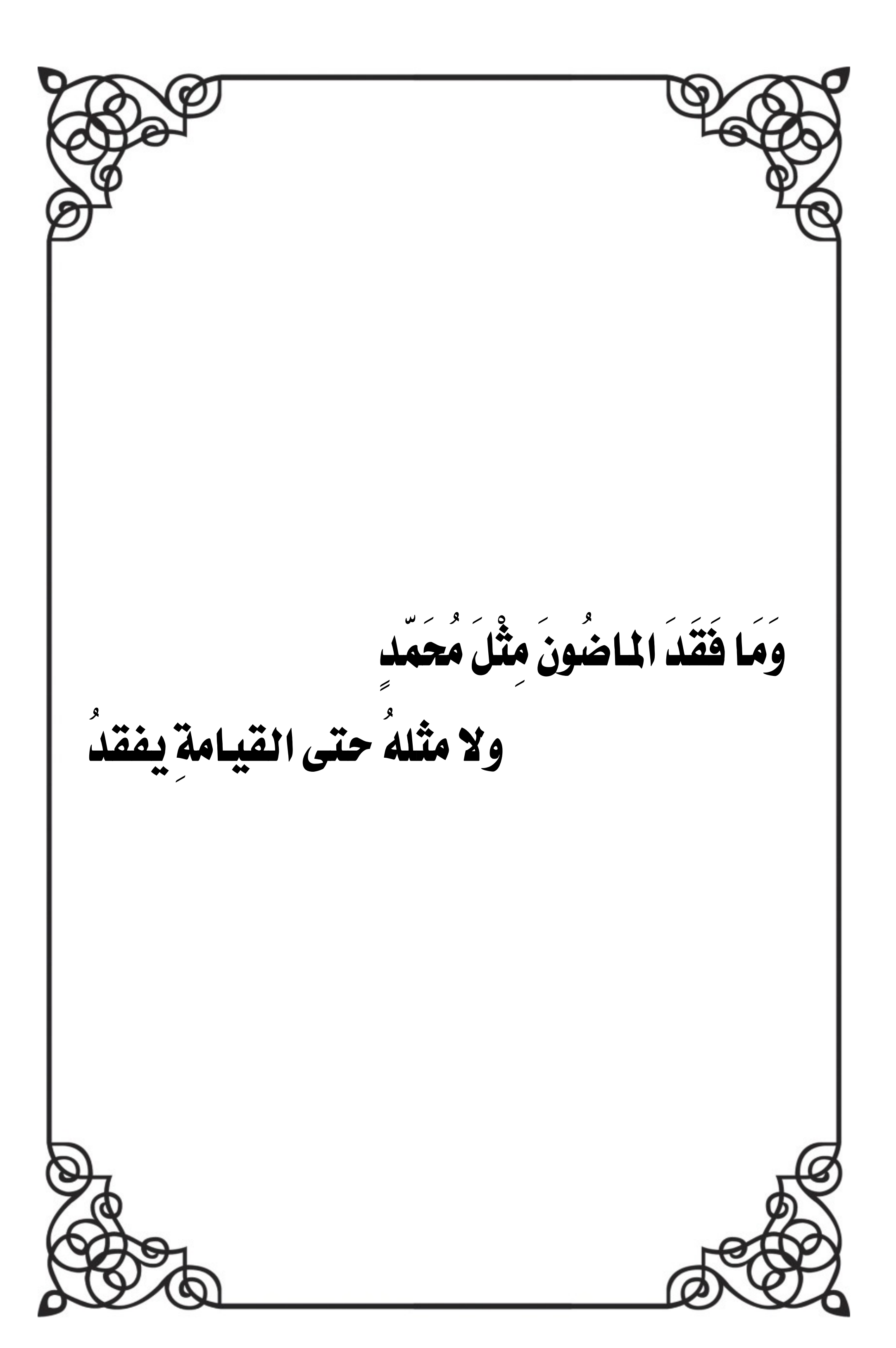
خاتم المرسلين
وسيد ولد آدم أجمعين

تأليف

مصطفى بن حسين آل عوض







وَمَا فَقَدَ الماضُونَ مِثْلَ مُحَمّدٍ

ولا مثلهُ حتى القيامةِ يفقدُ

مقدمة المؤلِّف

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[(١)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[(٢)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا (٧٠) يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا (٧١)﴾[(٣)].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، أما بعد:

(١) آل عمران (١٠٢).

(٢) النساء (١).

(٣) الأحزاب (٧٠، ٧١).

فإنه لو بُعِثَ فينا صحابيٌّ من أصحاب رسول الله ﷺ، أو أُخرج لنا من قبره تابعي من التابعين، فنظر في حال المسلمين وحالتهم؛ فإنه لن يعرف مما هم عليه شيئًا على الإطلاق، وهذا الذي أقوله ليس فيه شيء من المجازفة.

روىٰ ابن وضَّاح بإسناده عن حذيفة رضوان الله عليه: أنه أخذ حصاة بيضاء، فوضعها في كفه، ثم قال: إن هذا الدين قد استضاء استضاءة هذه الحصاة. ثم أخذ كفًّا من تراب، فجعل يذره علىٰ الحصاة حتىٰ واراها، ثم قال: والذي نفسي بيده، ليجيئنَّ أقوام يدفنون هذا الدين؛ كما دفنت هذه الحصاة.

وعن أبي الدرداء قال: «لو خرج رسول الله ﷺ اليوم إليكم؛ ما عرف شيئًا مما كان عليه هو وأصحابه، إلا الصلاة»، قال الأوزاعي [المتوفىٰ عام ١٥٧هـ]: فكيف لو كان اليوم؟! قال: عيسىٰ - يعني: الراوي عن الأوزاعي -: فكيف لو أدرك الأوزاعي هذا الزمان؟!

قلتُ: فكيف لو أدرك زماننا؟!

ولا أقول: إن ما يقع للمسلمين اليوم، بل أقول: إن ما يقع من المسلمين اليوم وما يحيون به ويعيشون عليه؛ لَمِن أعجب ما يكون!

إذ هم الأمة المرحومة الخاتمة، أمة الإسلام، وهم الذين بُعث فيهم محمد ﷺ، ولكنهم تحوَّلوا عما كان عليه رسولهم ﷺ، وكيف يكونون علىٰ ما كان عليه إن كانوا لا يعرفونه ﷺ؟!

لقد عاب الله جَلَّ وَعَلَا علىٰ المشركين الأوائل وقرَّعهم تقريعًا شديدًا لما تركوا اتِّباع محمد ﷺ وهم يعرفونه؛ فمعرفته من أكبر الدوافع إلىٰ اتباعه والسير

علىٰ خطاه، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

واليوم يخرج من يخرج من الناس ليسأل الناس في الطرقات: ما هو اسم النبي محمد ﷺ؟ فمنهم من يقول: «محمد» ويسكت، ومنهم من يقف عند «محمد بن عبد الله»، ومنهم من يأتي بالإجابات الخاطئة! يخطئون في اسمه ﷺ!

فأنىٰ لهم أن يعرفوا دينه وملته؟!

هذا الذي وصل إليه المسلمون وهم أمة الإسلام، الأمة الخاتمة، التي هي خير الأمم، وهم وحدهم الذين يملكون الحق، وهم وحدهم الذين معهم كلام الربِّ الذي لم يُحرَّف، المنقول لنا بالأسانيد والمخطوطات، وغيرُهم لا يملك من الحق أو من كلام الرب المهيمن شيئًا!

ومع هذا الذي وصل إليه المسلمون من البعد عن نبيهم ﷺ، والجهل به جهلًا فاضحًا، تجدُ غيرَهم يبشِّرون بغيره ﷺ، فتجد الهندوس يبشرون ببوذا، ويسعون لنشر تعاليمه في الدنيا كلِّها، وتجد النصارىٰ يبشرون بالمسيح، ويصفونه بالمحبة والسلام ويدعون الناس إلىٰ الإيمان به والكفر بما سواه!

والعالم يضيع، وهو يبحث عن السعادة والمخرج مما ألَمَّ به من أمراض نفسية ومشكلات عقدية وأخلاقية، والمسلمون وحدهم هم من يملكون العلاج الذي ينجو به العالم كلُّه، ولكنهم لا أقول: غافلون، وإنما لا يعرفون حقيقة ما يمتلكونه من حقٍّ أوجبَ الربُّ عليهم الدعوةَ إليه.

محمد ﷺ رسول الإسلام سيد ولد آدم وخاتم المرسلين، الذي بعثه الله جَلَّ وَعَلَا للبشرية كلها، بل للإنس والجن علىٰ السواء، بالشريعة الخاتمة التي

ستبقىٰ إلىٰ أن يرفع الله جَلَّوَعَلَا القرآن من الصدور والسطور قبيل قيام الساعة، لا بدَّ أن يعرفه الناس، مسلمُهم وكافرُهم، رجالهم ونساؤهم، كبارهم وصغارهم؛ لأن معرفته ستدلُّهم دلالة واضحة علىٰ كيفية تطبيق الإسلام في دنيا الله؛ إذ هو أكمل مَنْ طبَّقَ دينَ الله في أرض الله كما أراد الله.

وهو ﷺ أعظم مَن وُصف من البشر، وأشرف من تُكُلِّم عليه من العالمين؛ فكيف ينشغلون عنه بالكلام عن فلان وفلانة، وما أكثر ما قيل: «أقول لك: قال رسول الله ﷺ، وتقول: أبو بكر وعمر!» فكيف بمن انشغل عنه ﷺ بالفسَّاق والضلَّال، وربما بالكفار والمشركين؟!!

إن أول ما يصل إليه المرء من أهوال الآخرة؛ ما يصل إليه من السؤال في قبره، فالقبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه العبدُ؛ فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشدُّ منه، وفيه يُسأل المرء عن ثلاث، لو عاش حياته ولم يُعِدَّ لها جوابًا؛ فقد رسب الأبعد في أكبر امتحان وأعظمه وأخطره.

فيُسأل عن ربه جَلَّوَعَلَا، ويسأل عن دينه، ويسأل عن رسوله ﷺ؛ كما جاء في الحديث الذي يرويه البراء بن عازب عن الرسول ﷺ:

«**فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه، ويُجلِسانه، فيقولان له: من ربُّك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض علىٰ المؤمن، فذلك حين يقول الله عَزَّوَجَلَّ:** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: ٢٧]، **فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد ﷺ، فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي، وقال في العبد الكافر أو الفاجر: ويأتيه ملكان شديدا الانتهار،**

فينتهرانه، ويجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري، فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيقال: محمد، فيقول: هاه، هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون ذاك، قال: **فيقولان: لا دريت ولا تلوت، فينادي منادٍ أن كذب عبدي**».

وإذن فلا يكفي في معرفته ﷺ ولا معرفة ما جاء به، فضلًا عن معرفة الله جَلَّوَعَلَا الذي أرسله، لا يكفي في ذلك؛ أن تقول كما يقول الناس؛ لأن ذلك هو عين ما يهلك به الهالكون في أول منازل الآخرة، ولكن عليك أن تعلم عن الله، وتعلم عن رسوله ﷺ، وتعلم عن الدين الذي جاء به الرسول ﷺ.

ولما كانت معرفته ﷺ من أسباب النجاة؛ جعلها الله متوفرة مبذولة لمن طلبها، فهو وحده ﷺ في العالم كله الذي رُصد رصدًا دقيقًا كاملًا، فلم تُرصد حياة أحد من العالمين مثلما رصدت حياته ﷺ.

فمولده ونسبه ولونه وهيئته، وطباعه وصفاته، وأخلاقه وخلقته، وما يحب من الثياب والطعام، وما يكره منهما، وما يُقبل عليه وما يُدبر عنه، فضلًا عما هو أكبر من ذلك من دعوته وجهاده، وعبادته، ومنهجه وسنته من أقوال وأفعال، بل ما سكت عنه وأقرَّه؛ موجود مثبوت بالأسانيد الصحيحة، مدوَّن في الدواوين والكتب، بل وزواجه وتطليقه، وأولاده وبناته، وأصحابه وآل بيته، كل ذلك وأكثر مثبوت موجود، وتستطيع أنت ويستطيع أيُّ أحد أن يصل إلىٰ النبع الصافي إلىٰ الإسلام العظيم كما نزل أول يوم بلا تحريف بزيادة أو نقصان،

بفضل الله رب العالمين.

وإذن فما الذي يَصدُّ المسلمين عن معرفته ﷺ؟!

بل ما الذي يصد الدعاة عن الكلام عنه ﷺ؟!

محمد ﷺ رسول الله وخير الناس للناس، الذي كان يقول: «**أنا أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم؛ فمن توفِّي وعليه دين فعليَّ قضاؤه، ومن ترك مالًا فهو لورثته**»(١).

محمد ﷺ الذي قال: «إنَّما مثلي ومثل أمَّتي كمثل رجلٍ استوقد نارًا فجعلت الدَّوابُّ والفراش يقعْنَ فيه، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحَّمون فيه»(٢).

محمد ﷺ الذي قال عنه أنسٌ صاحبه: «لمَّا كان اليوم الَّذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كلُّ شيءٍ، فلمَّا كان اليوم الَّذي مات فيه أظلم منها كلُّ شيءٍ، وما نفضنا أيدينا من التُّراب، وإنَّا لفي دفنه ﷺ، حتَّىٰ أنكرنا قلوبنا»(٣).

محمد ﷺ الذي ذِكْرُه دلالة علىٰ طريق الله القويم، وتعلُّم سيرته ﷺ غذاء للقلوب وبهجة للنفوس، محمد ﷺ الأسوة الحسنة والرحمة المهداة الموصوف في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا بقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾(٤).

محمد ﷺ يسكت عن بيان سيرته وحقيقة ما جاء به المسلمون! ويُسيء إليه

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني.

(٤) سورة التوبة: (١٢٨).

بالسبِّ والشتم الكافرون، والعيب كل العيب علىٰ أتباعه، أن خالفوا ملَّته وتنكَّبوا هديه فشوهوا دينه في أنظار مخالفيه، فتهجَّم عليه من تهجم، وقد كان الكافر من مشركي قريش يذهب إلىٰ رسول الله ﷺ فيرجع يقول: «أي قوم، والله لقد وفدت علىٰ الملوك، ووفدت علىٰ قيصر وكسرىٰ والنَّجاشيِّ، والله إن رأيت مَلِكًا قطُّ، يعظِّمه أصحابُه ما يعظِّم أصحابُ محمَّدٍ ﷺ محمَّدًا، والله إن تنخَّم نخامةً إلَّا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون علىٰ وضوئه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون إليه النَّظر؛ تعظيمًا له، وإنَّه قد عرض عليكم خطَّة رشدٍ، فاقبلوها»[1].

هذا هو محمد ﷺ ما تجرَّأ عليه الكافرون لما كان أصحابه يعرفون قدره ويدافعون عنه وعن سنته، فهذا الكافر ما امتدح ما رآه عند النبي محمد ﷺ، أمام المشركين، إلا لِمَا وقع له لمَّا حاول التجرؤ علىٰ رسول الله ﷺ؛ ففي نفس الرواية أنه - أي: الكافر - «جعل يكلِّم النَّبيَّ ﷺ فكلَّما تكلَّم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم علىٰ رأس النَّبيِّ ﷺ ومعه السَّيف وعليه المغفر، فكلَّما أهوىٰ عروة بيده إلىٰ لحية النَّبيِّ ﷺ ضرب يده بنعل السَّيف، وقال له: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ»، فضلًا عما رآه هو وحكاه لمن خلفه من المشركين فقال: «والله إن تنخَّم نخامةً إلَّا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون علىٰ وضوئه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون إليه النَّظر؛ تعظيمًا له».

(١) أخرجه البخاري.

وإذن فالعيب ليس علىٰ المشركين - فليس بعد الكفر ذنب -، ولكن العيب علىٰ المسلمين الذين وقع منهم ما يضادُّ ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ؛ من تعظيمه ﷺ وتوقيره، وابتدار أمره، وعدم التقدم بين يدي كلامه ﷺ، فيقدم بعضهم رأيه علىٰ قول الرسول ﷺ ولا يقف عند حدود سنته ﷺ.

وإني وأنا أكتب ما أكتب من التعريف به لَأشعر بالحرج الشديد؛ فكيف لمثلي أن يرشد الناس إلىٰ سيرته، ويدلَّ الخلق علىٰ شمائله ﷺ؟! ولكن ما وصل إليه الناس من فقدان النور الذي جاء به؛ يؤزُّ كلَّ من يعرف حقيقة ما جاء به محمد ﷺ وأهميته في دنيا الله جَلَّوَعَلَا، وأثر العمل به في الحياة وبعد الممات، إلىٰ الدلالة إليه والتعريف به ﷺ.

وستجد في هذا الكتاب مختصرًا لسيرته العَطِرَة ثم ذكر طرَف من الأدلة العقلية علىٰ صدقه ﷺ، وكذا جانب من فضائله وخصائصه ﷺ، وأخيرًا ذكر بعض حقوقه ﷺ علىٰ أمته.

فالله أسأل أن يكتب لهذا الكتاب القبول، وأن يهدي به قلوبًا غلفًا وأعينًا عميًا وآذانًا صمًّا، وأن يُقبل بقلوب المسلمين به إلىٰ سنة نبيه ﷺ؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وكتب:

أبو معاذ مصطفى بن حسين آل عوض

عفا الله عنه وعن والديه، وبارك له في أهله وذريته، آمين





الباب الأول

أوضاع ما قبل البعثة

وحاجة البشرية إلى رسالته ﷺ

الباب الأول
أوضاع ما قبل البعثة وحاجة البشرية إلى رسالته ﷺ

لقد بعث الله جَلَّ وَعَلَا الأنبياء والمرسلين ليرشدوا الخلق إلىٰ الله ربِّ العالمين، ويصوِّبوا لهم ما وقعوا فيه من مخالفات عقديةٍ ومنهجية وشرعية وأخلاقية، ويدُلُّوهم علىٰ سواء الصراط المستقيم، فإذا ما جاء نبيٌّ من الأنبياء أو رسول من الرسل اتَّبعه من اتبعه وكفر به من كفر، فيهلك الله الكافرين ويُبقي المؤمنين، ثم يموت النبي أو الرسول، وينقطع اتصال الأرض بوحي السماء؛ فيخفت النور ويزداد الظلام شيئًا فشيئًا حتىٰ يعود الناس إلىٰ ما كانوا عليه قبل بعثة الأنبياء والرسل، فإذا ما استحكمت الظلمات، واشتدَّ البعد عن صراط الله المستقيم؛ أرسل الله لهم رسولًا أو نبيًّا من أنفسهم يدعوهم إلىٰ منهج الله ليسعدوا دنيا وآخرة، وهكذا، وقد بعث الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول بني إسرائيل فدعاهم للتوحيد وأنقذهم من فرعون وقومه، وشقَّ الله لهم البحر، ورأوا الآيات بأعينهم وسمعوا كلام الرب بآذانهم حتىٰ قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ٢١١].

فمع كل هذه الآيات والنعم بدَّلوا نعمة الله من بعد ما جاءتهم وكفروا بها، بل وظنُّوا أن هذه النعم هي من عند أنفسهم وليست من عند الله رب العالمين؛ فسبُّوا الله جَلَّ وَعَلَا ووصفوه بالفقر - وحاشاه - ووصفوا أنفسهم بالغنىٰ! قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ



ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وما توقَّفوا عند كفران النعمة وإنكار فضل الله عليهم، بل سعوا لصناعة الآلهة الباطلة ليعكفوا عليها! قال الله جَلَّ وَعَلَا فيهم: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣].

وقال: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٠].

فعاشوا علىٰ الجحود والكفر، مع توافر الرسل والأنبياء واتصال أرضهم بوحي السماء، حتىٰ بعث الله عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فكفروا به ووصفوه بأنه ابن زنًا – وحاشاه –، ولم تبدأ دعوته إلىٰ التوحيد حتىٰ حاربوه واستعدوا عليه الوالي الروماني بيلاطس البنطي، فنجَّاه الله منهم ورفعه إليه وشبه لهم غيره به، فألقوا القبض عليه وصلبوه ظنًّا منهم أنهم يصلبون المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبدأ الظلام – الذي يأتي بعد نور النبوة – قبل أن ينقشع بنور النبوة، واستمرَّت الدولة الرومانية في محاربة الموحدين واستمالة من تستطيع استمالته منهم، واستخدموا اليهود في ذلك لتحريف المسيحية الحقَّة، ومن عمال الدولة الرومانية «شاول» اليهودي والذي سمي بعد بـ «بولس» رسول المسيح! وكان ممن يساعد في قتل

الموحدين المؤمنين بالمسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد جاء ذلك في الكتاب المقدس لديهم[١]، وبدأت محنة الموحدين برفع المسيح واضطهاد اليهود والرومان، وانتشر الظلام في الأرض وعاش الموحدون المتَّبعون لوحي السماء من أهل الكتاب في الخفاء في الديارات والبيع، كما قال رسول الله ﷺ عن رب العزة أنه قال: «**وإنِّي خلقت عبادي حنفاء كلَّهم وإنَّهم أتتهم الشَّياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم؛ وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطانًا، وإنَّ الله نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلَّا بقايا من أهل الكتاب**»[٢]، وسيأتي ذكر بعض هؤلاء المتمسكين بالتوحيد من يهود ونصارىٰ في قصة سلمان الفارسي رضوان الله عليه.

(١) انظر «سفر أعمال الرسل» الإصحاح الثامن، العدد الأول.

(٢) أخرجه مسلم.

خريطة العالم قبيل البعثة النبوية الشريفة

نتناول خريطة العالم من حول مكة؛ إذ هي المركز الذي خرج منه النور.

في الشمال الغربي:

بيزنطية وهي عاصمة دولة الروم (تركيا اليوم)، والتي كانت تتَّسع شمالًا وجنوبًا إلىٰ البحر الأبيض، وشرقًا وغربًا، يسودها الملك بحكم ملكي خالص، بعيدًا عن النصرانية التي كانت الديانة المعترف بها في دولة الروم، وكانت بينها وبين دولة الفرس حروب، وقد عاصر البعثة من حكَّامهم هرقل ملك الروم (٦١٠ - ٦٤١م)، ويعتبر من أعظم الأباطرة في التأريخ البيزنطي.

وفي الشرق والشمال الشرقي:

دولة الفرس وهي دولة إيران الحالية، وكانت متسعة شمالًا حتىٰ ضمَّت بعض البلدان الأخرىٰ مثل أفغانستان، وسيطروا علىٰ مصر أكثر من مرة - إذ كانوا في صراع عليها ضد الرومان -، وكانت مملكةً مجوسية أو زرادشتية لا تعرف عن التوحيد شيئًا، ولكن كانوا يعبدون النار، وكانت دولتهم من أقوىٰ الدول والممالك في ذلك الزمان.

وفي الشمال «الشام»:

الغساسنة، وكانت مملكتهم مملكة قوية، ولكنها كانت موالية للبيزنطيين، وكانوا علىٰ النصرانية المثلِّثة.

وفي الجنوب:

اليمن السعيدة، الحميريون ملوك سبأ، وكانت دولتهم قد تفكَّكت وضعفت قبيل الإسلام، وتناوب عليها الرومان والأحباش، وكان فيهم من الوثنيين من فيهم، وكذا من أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ، وكانت صراعات شرسة بين اليهود والنصارىٰ، وكان اليهود يستضعفون النصارىٰ ويحرقونهم بالنار حتىٰ جاء ذلك في قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤]. الآيات(١)، وقيل: إن أصحاب الأخدود كانوا مجوسًا وكانوا مؤمنين موحدين، ولهم كتاب قد نزل عليهم من عند الله، فرُفع كتابهم بسبب ما وقع لأصحاب الأخدود، إذ قُتل المؤمنون وبقي الفاسقون الكافرون، فرفع الله كتابهم، وقيل: كانوا كفارًا تسلَّطوا علىٰ المؤمنين في اليمن، فخدوا لهم الأخاديد.

وفي الغرب:

مصر الفرعونية، والتي كانت قبيل البعثة يتناوب عليها الرومان والفرس بالحكم والاحتلال، وكانت النصرانية قد دخلت إليها مع وجود الوثنيين من الفراعنة وعمال الرومان والفرس.

وفي الجنوب الغربي:

الحبشة، وكانت مملكة نصرانية يحكمها الحاكم برعاية ومتابعة من قساوسة الكنيسة، وقد عاصر البعثة من حكامها النجاشيُّ كما هو معلوم.

---

(١) انظر تفسير الطبري علىٰ هذه الآية.

ونعود إلى الجزيرة العربية:

إلىٰ مكة علىٰ وجه التحديد، وكان فيها أشراف العرب نسبًا، غير أنهم - وإن كان عندهم من الشرف ما عندهم - إلا أنهم كانوا في جاهلية جهلاء، فكانت الحُرَّة لا تزني فيهم، وأما غيرها فتضرب لها الخيام وتنصب عليها الرايات الحمر شعارًا للدعارة والزنا.

وأما البيت العتيق الذي بناه إبراهيم وإسماعيل قبلة للموحدين الأطهار؛ فقد حوَّله المشركون إلىٰ معبد أوثانٍ يحوي مئات الأصنام، يعبدونها من دون الله جَلَّ وَعَلَا.

وأما عن العصبية الجاهلية فحدِّث ولا حرج؛ فيقتل بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا؛ من أجل ناقة أو حمار!

والآن تعال لنبحثْ عن الموحدين الذين هم علىٰ العهد والميثاق الذي أخذه الرب جَلَّ وَعَلَا عليهم في عالم الذَّرِّ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

قال ﷺ: «إنَّ الله اطَّلع إلىٰ أهل الأرض؛ فمقتهم عربهم وعجمهم؛ إلَّا بقايا من أهل الكتاب». في الدَّيَّارات والصَّوامع والبيع، وأولئك كانوا ينتظرون مَقْدَمَ الرسول ﷺ، وكانت الأرض قد أطبقت علىٰ الكفر، وغصَّت بالشرك، وماجت بالظلم، وتلاطمت بين جنباتها أمواج الجور، حتىٰ جاء الرسول ﷺ.

❁❁❁

وأما عن الحالة الدينية

فقد كانوا علىٰ ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فانحرفوا عن ملته إلىٰ الشرك وعبادة الأصنام من دون الله، وأول من أدخل الأصنام إلىٰ جزيرة العرب هو عمرو بن لُحَيٍّ رئيس خزاعة، وكان قد نشأ علىٰ أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص علىٰ أمور الدين، فأحبه الناس ودانوا له؛ ظنًّا منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء.

ثم إنه سافر إلىٰ الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنه حقًّا؛ لأن الشام محلُّ الرسل ومهبط الكتب، فقدم معه بهُبَل وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلىٰ الشرك بالله فأجابوه، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة.

وكان هُبَلُ من العقيق الأحمر علىٰ صورة إنسان، مكسور اليد اليمنىٰ، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب، وكان أول صنم للمشركين وأعظمه وأقدسه عندهم.

وانتشرت عبادة الأصنام - والشرك بجميع صوره - في الجزيرة العربية حتىٰ أصبح لكل قبيلة صنم يتخذون له معبدًا وسدنة، ويقدِّمون له القرابين والنذور! ويخافون من غضبه ويرجون رضاه!

وأما عباداتهم فكانوا يحجُّون للبيت عراة؛ ففي «صحيح مسلم» عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: من يُعِيرني تطوافًا. تجعله علىٰ فرجها، وتقول: اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله. فنزلت

هذه الآية: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١][(١)].

قال الإمام النووي في شرحه علىٰ الحديث في باب: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]:

«[تطوافًا] هو بكسر التَّاء المثنَّاة فوق، وهو ثوب تلبسه المرأة تطوف به، وكان أهل الجاهليَّة يطوفون عُراة، ويرمون ثيابهم، ويتركونها ملقاة علىٰ الأرض ولا يأخذونها أبدًا، ويتركونها تداس بالأرجل حتَّىٰ تبلىٰ، ويسمَّىٰ اللِّقاء، حتَّىٰ جاء الإسلام فأمر الله تعالىٰ بستر العورة، فقال تعالىٰ: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «**لا يطوف بالبيت عريان**»» اهـ.

«**وقيل**: إنهم إنما كانوا يطوفون بالبيت عراة لأن الثياب قد دنَّستها المعاصي في زعمهم؛ فيتجرَّدون منها، وقيل: إنهم كانوا يفعلون ذلك تفاؤلًا بالتعرِّي من الذنوب»[(٢)].

وكانت لكل قبيلة تلبية يلبونها وهم يطوفون، وأشهر تلبية هي تلبية قريش: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك! تملكه وما ملك!

❀❀❀

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) «أحكام القرآن» للجصاص (٤/ ٢٠٥).

وأما عن الحالة السياسية

فكانوا تبعًا لحكام القبائل والملوك الذين يحكمون الممالك الصغيرة الضعيفة غير المستقلة، وتتلخَّص حياتهم في الاستعباد والرِّق، فالعبيد يعملون لصالح أسيادهم، وأسيادُهم ليس عليهم إلا تكليف العبيد بكل ما هو شاق ومتعب من أجل حصد الأموال والثياب والطعام.

وأما قبائل قريش علىٰ وجه التحديد فكانت لهم دار الندوة يجتمعون فيها ويحلون فيها المشكلات ويتشاورون فيها فيما بينهم، وكان يحكمهم قصي بن كلاب، وقد أجمعوا عليه، وهو جَدُّ النبي الرابع، ثم دفع الأمر إلىٰ عبد مناف وهو جد النبي الثالث، ثم تقاسم الأمر أبناؤه من بعده؛ هاشم - جد النبي ﷺ الثاني - وعبد شمس، فصارت السقاية والرفادة لهاشم والقيادة لعبد شمس، فكان هاشم بن عبد مناف هو الذي يلي السقاية والرفادة طول حياته، فلما مات خَلَفَه أخوه المطلب بن عبد مناف، ووَلِيَ بعده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ، وبعده أبناؤه، حتىٰ جاء الإسلام وكانت الولاية قد وصلت إلىٰ العباس عمِّ رسول الله ﷺ.

❀❀❀

عام الفيل

اشتهر عام الفيل بهذا الاسم بسبب حادثة الفيل التي وقعت فيه، وكانت حادثة شهيرة عظم العربُ بعدها قريشًا تعظيمًا شديدًا ووصفوهم بأنهم أهل الله.

قال محمد بن إسحاق: «فلما ردَّ الله الحبشة عن مكة وأصابهم بما أصابهم به من النقمة؛ أعظمت العرب قريشًا وقالوا: هم أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مئونة عدوهم؛ فقالوا في ذلك أشعارًا يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما رد عن قريش من كيدهم».

وقد جاء ذكرها - أي: حادثة الفيل - في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا في سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: ١ - ٥].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره لسورة «الفيل»:

«هذه من النعم التي امتنَّ الله بها علىٰ قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا علىٰ هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيَّب سعيهم، وأضلَّ عملهم، وَرَدَّهم بشرٍّ خيبة. وكانوا قومًا نصارىٰ، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالًا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان. ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله

ﷺ؛ فإنه في ذلك العام ولد علىٰ أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم - يا معشر قريش - علىٰ الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرِّفه ونعظِّمه ونوقِّره ببعثة النبي الأمي محمد، صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء.

وهذه قصة أصحاب الفيل علىٰ وجه الإيجاز والاختصار والتقريب، قد تقدم في قصة أصحاب الأخدود أن ذا نُوَاس - وكان آخر ملوك حمير [اليمن]، وكان مشركًا - هو الذي قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارىٰ، وكانوا قريبًا من عشرين ألفًا، فلم يفلت منهم إلا دَوس ذو ثعلبان، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام - وكان نصرانيًّا - فكتب له إلىٰ النجاشي ملك الحبشة؛ لكونه أقرب إليهم، فبعث معه أميرين: أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم في جيش كثيف، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار، واستلبوا الملك من حمير، وهلك ذو نواس غريقًا في البحر. واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران: أرياط وأبرهة، فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا، فقال أحدهما للآخر: إنه لا حاجة بنا إلىٰ اصطدام الجيشين بيننا، ولكن ابرز إلي وأبرز إليك، فأينا قتل الآخر؛ استقل بعده بالملك.

فأجابه إلىٰ ذلك فتبارزا، فحمل أرياط علىٰ أبرهة فضربه بالسيف، فشرم أنفه وفمه وشقَّ وجهه، وحمل عَتَوْدَة مولىٰ أبرهة علىٰ أرياط فقتله، ورجع أبرهة جريحًا، فداوىٰ جرحه فَبَرأ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن.

فكتب إليه النجاشي يلومه علىٰ ما كان منه، ويتوعَّده ويحلف ليطأن بلاده

ويجزَّنَّ ناصيته.

فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف، وبجراب فيها من تراب اليمن، وجزَّ ناصيته فأرسلها معه، ويقول في كتابه: ليطأ الملك علىٰ هذا الجراب فيبر قسمه، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك. فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه، ورضي عنه، وأقرَّه علىٰ عمله.

وأرسل أبرهة يقول للنجاشي: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها. فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء، رفيعة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء، **سمَّتها العرب القُلَّيس**؛ لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها. وعزم أبرهة الأشرمُ علىٰ أن يصرف حَجَّ العرب إليها كما يُحَجُّ إلىٰ الكعبة بمكة، ونادىٰ بذلك في مملكته، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا، حتىٰ قصدها بعضهم، وتوصَّل إلىٰ أن دخلها ليلًا، فأحدث فيها [أي: قضىٰ حاجته بداخلها]، وكرَّ راجعًا، فلما رأىٰ السدنة ذلك الحدث؛ رفعوا أمرهم إلىٰ ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضبًا لبيتهم الذي ضاهيت هذا به؛ فأقسم أبرهة ليسيرنَّ إلىٰ بيت مكة، وليخرِّبنَّه حجرًا حجرًا.

وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها، فأجَّجوا فيها نارًا، وكان يومًا فيه هواء شديد؛ فأحرقته، وسقطت إلىٰ الأرض.

فتأهَّب أبرهة لذلك، وصار في جيش كثيف عَرَمرم؛ لئلَّا يصدَّه أحد عنه، واستصحب معه فيلًا عظيمًا كبير الجثة لم يُرَ مثله، يقال له: محمود، وكان قد

بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك - ويقال: كان معه أيضًا ثمانية أفيال، وقيل: اثنا عشر فيلًا، وقيل غيره، والله أعلم -؛ يعني ليهدم به الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان، وتوضع في عُنُق الفيل، ثم يزجر ليلقي الحائط جملة واحدة.

فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جدًّا، ورأوا أنَّ حقًّا عليهم المحاجبة دون البيت، وَرَد من أراده بكيد، فخرج إليه رجل [كان] من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال له: «ذو نفْر»، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلىٰ حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله، وما يريد من هدمه وخرابه.

فأجابوه وقاتلوا أبرهة، فهزمهم لما يريده الله عَزَّوَجَلَّ من كرامة البيت وتعظيمه، وأسر «ذو نفْر» فاستصحبه معه، ثم مضىٰ لوجهه حتىٰ إذا كان بأرض خثعم عَرَض له نُفَيل بن حَبيب الخَشْعمي في قومه: شهران وناهس، فقاتلوه، فهزمهم أبرهة، وأسر نُفَيل بن حبيب، فأراد قتله ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدلَّه في بلاد الحجاز.

فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة علىٰ بيتهم الذي عندهم، الذي يسمونه اللات.

فأكرمهم وبعثوا معه «أبا رغَال» دليلًا، فلما انتهىٰ أبرهة إلىٰ المُغَمْس - وهو قريب من مكة - نزل به وأغار جيشه علىٰ سَرْح أهل مكة من الإبل وغيرها، فأخذوه.

وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب [جد رسول الله ﷺ]، وكان الذي أغار علىٰ السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة، وكان يقال له: الأسود بن مفصود، فهجاه بعض العرب - فيما ذكره ابن إسحاق -، وبعث أبرهة حناطة الحميري

إلىٰ مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تَصُدُّوه عن البيت، فجاء حناطة فَدُل علىٰ عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال.

فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يُخلِّي بينه وبينه؛ فوالله ما عندنا دَفْع عنه.

فقال له حناطة: فاذهب معي إليه، فذهب معه، فلما رآه أبرهة أجلَّه، وكان عبد المطلب رجلًا جميلًا حسنَ المنظر، ونزل أبرهة عن سريره، وجلس معه علىٰ البساط، وقال لترجمانه: قل له: حاجتك؟

فقال للترجمان: إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي.

فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زَهِدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟!

فقال له عبد المطلب: إني أنا ربُّ الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه.

قال: ما كان ليمتنع مني!

قال: أنت وذاك.

ويقال: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا علىٰ أبرهة ثلث أموال تهامة علىٰ أن يرجع عن البيت، فأبىٰ عليهم، وردَّ أبرهة علىٰ عبد المطلب إبِلَه، ورجع عبد المطلب إلىٰ قريش فأمرهم بالخروج من مكة،

والتحصُّن في رءوس الجبال؛ تخوُّفًا عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش، يدعون الله ويستنصرونه علىٰ أبرهة وجنده، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهُمَّ إنَّ المرء يمنَعُ رَحْلَه فامْنع حِلالَك

لا يغلبنَّ صَلِيبُهم ومحَالُهم غدوًا مِحَالك

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حَلْقة الباب، ثم خرجوا إلىٰ رءوس الجبال.

فلما أصبح أبرهة تهيَّأ لدخول مكة، وهيأ فيلَه - وكان اسمه محمودًا -، وعبَّأ جيشه، فلمَّا وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتىٰ قام إلىٰ جنبه، ثم أخذ بأُذُنِه وقال: ابرك محمود وارجع راشدًا من حيث جئت؛ فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل. وخرج نفيل بن حبيب يَشتد حتىٰ أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبىٰ، فضربوا في رأسه بالطبرزين [آلة يضربونه بها]، وأدخلوا محاجن لهم في مَرَاقه فبزغوه بها ليقوم، فأبىٰ.

فوجَّهوه راجعًا إلىٰ اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلىٰ الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلىٰ المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلىٰ مكة فبرك.

وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان(١).

مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحِمَّصِ والعَدَسِ، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن نُفَيْل ليدلَّهم علىٰ الطريق هذا،

---

(١) **البلسان:** شجر له زهر أبيضُ صَغير كهيئة العناقيد.

ونفيل علىٰ رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز، ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النِّقْمَة، وجعل نفيل يقول:

أينَ المَفَرُّ؟ والإلهُ الطَّالب، والأشرمُ المغلوبُ غير الغالب» اهـ.

وأهلك الله أبرهة وجنده وحفظ بيته من عدوان كل معتدٍ، ومهَّد لنبيه ﷺ الطريق قبل مولده ﷺ؛ ليُولد فيجد الكعبة بيت الله الحرام التي رفع قواعدها أجدادُه إبراهيم وإسماعيل؛ لتكون قبلة بعدُ لأمته ﷺ.

رحلة سلمان رحلة البحث عن الدين الحق

سلمان الفارسي هو رجل من أهل أصبهان، وكان مجوسيًّا يعبد النار وقد أغلق عليه أبوه بيته خوفًا عليه، وتركه مع النار التي يعبدها، يُشعلها ويرعاها، وقد أتيت بقصته في موضع يظهر منه حال البشرية وحال الموحدين فيها، وحال الحيارىٰ الباحثين عن الحق، كيف تتبعه من تتبعه، وكيف عمي عنه من عمي، وإليك الرواية التي روىٰ فيها سلمان قصته بنفسه:

عن عبد الله بن عبَّاسٍ قال: حدَّثني سلمان الفارسيُّ حديثه من فيه قال: «كنت رجلًا فارسيًّا من أهل أصبهان، من أهل قريةٍ منها يقال لها: جيّ، وكان أبي دهقان قريته (أي رئيسها)، وكنت أحبَّ خلق الله إليه، فلم يزل به حبُّه إيَّاي حتَّىٰ حبسني في بيته؛ أي ملازم النَّار، كما تحبس الجارية، وأجهدت في المجوسيَّة، حتَّىٰ كنت قطن النَّار (أي خادمها) الَّذي يوقدها، لا يتركها تخبو ساعةً، قال: وكانت لأبي ضيعة (أي بستان) عظيمة، قال: فشغل في بنيانٍ له يومًا فقال لي: يا بنيَّ، إنِّي قد شغلت في بنيانٍ هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب فاطَّلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد، فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسةٍ من كنائس النَّصارىٰ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلُّون، وكنت لا أدري ما أمر النَّاس لحبس أبي إيَّاي في بيته، فلمَّا مررت بهم وسمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، قال: فلمَّا رأيتهم أعجبني صلاتهم ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا

والله خير من الدِّين الَّذي نحن عليه، فوالله ما تركتهم حتَّىٰ غربت الشَّمس، وتركت ضيعة أبي ولم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدِّين؟ قالوا: بالشَّام.

قال: ثمَّ رجعت إلىٰ أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كلِّه، **قال**: فلمَّا جئته قال: أي بنيَّ! أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟! قال: قلت: يا أبت! مررت بناسٍ يصلُّون في كنيسةٍ لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتَّىٰ غربت الشَّمس، قال: أي بنيَّ! ليس في ذلك الدِّين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قال: قلت: كلا والله إنَّه خير من ديننا. قال: فخافني، فجعل في رجليَّ قيدًا، ثمَّ حبسني في بيته، قال: وبعثت إلىٰ النَّصارىٰ فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشَّام تجَّار من النَّصارىٰ فأخبروني بهم. قال: فقدم عليهم ركب من الشَّام تجَّار من النَّصارىٰ، قال: فأخبروني بهم، قال: فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرَّجعة إلىٰ بلادهم فآذنوني بهم، قال: فلمَّا أرادوا الرَّجعة إلىٰ بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجليَّ ثمَّ خرجت معهم حتَّىٰ قدمت الشَّام، فلمَّا قدمتها قلت: مَنْ أفضلُ أهل هذا الدِّين؟ قالوا: الأسقفُّ في الكنيسة. قال: فجئته فقلت: إنِّي قد رغبت في هذا الدِّين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك وأتعلَّم منك وأصلِّي معك، قال: فادخل. فدخلت معه، قال: فكان رجل سوءٍ، يأمرهم بالصَّدقة ويرغِّبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء اكتنزه لنفسه ولم يعطه المساكين، حتَّىٰ جمع سبع قلالٍ من ذهبٍ وورقٍ، قال: وأبغضته بغضًا شديدًا لما رأيته يصنع، ثمَّ مات، فاجتمعت إليه النَّصارىٰ ليدفنوه، فقلت لهم: إنَّ هذا كان رجل سوءٍ؛ يأمركم بالصَّدقة ويرغِّبكم فيها فإذا

جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئًا. قالوا: وما علمك بذلك؟ قال: قلت: أنا أدلُّكم علىٰ كنزه. قالوا: فدلَّنا عليه. قال: فأريتهم موضعه، قال: فاستخرجوا منه سبع قلالٍ مملوءةٍ ذهبًا وورقًا، قال: فلمَّا رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدًا.

فصلبوه ثمَّ رجموه بالحجارة، ثمَّ جاءوا برجلٍ آخر فجعلوه بمكانه، قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلًا لا يصلِّي الخمس أرىٰ أنَّه أفضل منه أزهد في الدُّنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلًا ونهارًا منه. قال: فأحببته حبًّا لم أحبَّه من قبله، وأقمت معه زمانًا، ثمَّ حضرته الوفاة فقلت له: يا فلان! إنِّي كنت معك، وأحببتك حبًّا لم أحبَّه من قبلك، وقد حضرك ما ترىٰ من أمر الله، فإلىٰ من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بنيَّ! والله ما أعلم أحدًا اليوم علىٰ ما كنت عليه، لقد هلك النَّاس وبدَّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلًا بالموصل وهو فلان، فهو علىٰ ما كنت عليه، فالحقْ به. قال: فلمَّا مات وغيَّب لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يا فلان! إنَّ فلانًا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنَّك علىٰ أمره. قال: فقال لي: أقم عندي. فأقمت عنده، فوجدته خير رجلٍ علىٰ أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلمَّا حضرته الوفاة قلت له: يا فلان! إنَّ فلانًا أوصىٰ بي إليك وأمرني باللُّحوق بك، وقد حضرك من الله ما ترىٰ، فإلىٰ من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بنيَّ! والله ما أعلم رجلًا علىٰ مثل ما كنَّا عليه إلا بنصِّيبين، وهو فلان، فالحق به.

وقال: فلمَّا مات وغيَّب لحقت بصاحب نصِّيبين، فجئته، فأخبرته بخبري

وما أمرني به صاحبي، قال: فأقم عندي. فأقمت عنده، فوجدته علىٰ أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجلٍ، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلمَّا حُضِرَ قلت له: يا فلان! إنَّ فلانًا كان أوصىٰ بي إلىٰ فلانٍ، ثمَّ أوصىٰ بي فلان إليك، فإلىٰ من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بنيَّ! والله ما نعلم أحدًا بقي علىٰ أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلًا بعمُّوريَّة، فإنَّه بمثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، قال: فإنَّه علىٰ أمرنا، قال: فلمَّا مات وغيَّب لحقت بصاحب عمُّوريَّة وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي. فأقمت مع رجلٍ علىٰ هدي أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتَّىٰ كان لي بقرات وغنيمة، قال: ثمَّ نزل به أمر الله، فلمَّا حضر قلت له: يا فلان! إنِّي كنت مع فلانٍ، فأوصىٰ بي فلان إلىٰ فلانٍ، وأوصىٰ بي فلان إلىٰ فلانٍ، ثمَّ أوصىٰ بي فلان إليك، فإلىٰ من توصي بي؟ وما تأمرني؟ قال: أي بنيَّ! والله ما أعلمه أصبح علىٰ ما كنَّا عليه أحد من النَّاس آمرك أن تأتيه، ولكنَّه قد أظلَّك زمان نبيٍّ، هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب مهاجرًا إلىٰ أرضٍ بين حرَّتين (الحرة: الأرض ذات الحجارة السود)، بينهما نخل، به علامات لا تخفىٰ: يأكل الهديَّة ولا يأكل الصَّدقة، بين كتفيه خاتم النُّبوَّة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل. قال: ثمَّ مات وغيَّب، فمكثت بعمُّوريَّة ما شاء الله أن أمكث، ثمَّ مرَّ بي نفر من كلبٍ تجَّارًا، فقلت لهم: تحملوني إلىٰ أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه؟ قالوا: نعم. فأعطيتهموها وحملوني، حتَّىٰ إذا قدموا بي وادي القرىٰ ظلموني فباعوني من رجلٍ من يهود عبدًا، فكنت عنده، ورأيت النَّخل، ورجوت أن تكون البلد الَّذي وصف لي صاحبي، ولم يَحِقْ لي

في نفسي، فبينما أنا عنده قدم عليه ابن عمٍّ له من المدينة من بني قريظة، فابتاعني منه، فاحتملني إلىٰ المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها»[1].

وهكذا انتقل سلمان - رضوان الله عليه - من بيت أبيه ومن بلده التي أقام فيها، إلىٰ بلاد أخرىٰ عند رجالٍ آخرين يبحث عن الدين الحق، فانتقل من مدينة إلىٰ مدينة، ومن بيتٍ إلىٰ بيتٍ حتىٰ بِيع بَيع الرقيق، وعاش مع أحد اليهود في يثرب المظلمة قبل أن تُصبح المدينة المنورة بنور النبوة، ينتظر بعثة رسول آخر الزمان، والذي بشَّر به الإنجيل وأخبر بصفته وهيئته.

وإذن؛ فالبشرية في هذه اللحظات تحتاج إلىٰ من يُوصِّلُها بالحق الذي لا باطل فيه، والجدِّ الذي لا هزل فيه، تحتاج إلىٰ من يُوصل أهل الأرض بمن خلق الأرض ومن وما عليها.

ولنرجع للخلف - زمنيًّا - لنرىٰ أبا الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعه ابنه إسماعيل الصابر المحتسب يرفعان قواعد البيت:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٤٤١) وحسنه الألباني في «الصحيحة».

قال العلامة السعدي في تفسيره لهذه الآيات:

«﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ﴾ [البقرة: ١٢٩] أي: في ذريتنا ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ ليكون أرفع لدرجتهما، ولينقادوا له، وليعرفوه حقيقة المعرفة. ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ لفظًا، وحفظًا، وتحفيظًا ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، معنىً. ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة والتبرِّي من الأعمال الرديَّة، التي لا تُزَكِّي النفوس معها» اهـ.

وإذن فالنبي الخاتم المبعوث إلى العالم من جزيرة العرب من مكة المكرمة من بيت الله العتيق هو دعوة إبراهيم، وقد استشعر إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ احتياج البشرية كلها إليه والعرب على وجه الخصوص، فدعا ربه أن يُرسله الله إليهم ليزكيهم ويعلمهم الكتاب الخاتم المحفوظ بحفظ الله له إلى يوم القيامة، ويعلمهم السُّنة والتي سمَّاها الله في كتابه في أكثر من موضع بالحكمة[1].

ولنتقدَّم الآن إلى عيسى - عليه الصلاة والسلام - وهو يوضح إلى قومه الوظيفة التي أرسله الله من أجلها، إذ يقص علينا ربنا خبره في القرآن الكريم فيقول: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف: ٦].

وإذن فهو ما بشر به عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، رسول آخر الزمان.

قال رسول الله ﷺ: «إنِّي عبد الله لخاتم النَّبِيِّين، وإنَّ آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **لَمُنْجَدِلٌ**[2]

---

(١) كما في قول الله: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وانظر: [البقرة: ١٥١]، [البقرة: ٢٣١]، [آل عمران: ١٦٤]، [النساء: ١١٣]، و[الجمعة: ٢].

(٢) «**وإن آدم لَمُنْجَدلٌ**» أي: كان بعدُ ترابًا لم يُصَوَّر ولم يخلق.

في طينته، وسأنبِّئكم بأوَّل ذلك دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسىٰ بي، ورؤيا أمِّي الَّتي رأت، وكذلك أمَّهات النَّبيِّين ترين»[1].

وفي رواية أخرىٰ توضح الرؤية التي رأتها أم النبي ﷺ، فقال: «**ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام**»[2].

فها هي الدنيا تتهيأ والعالم ينتظر بعثة نبي آخر الزمان؛ ليدلَّهم علىٰ الطريق الحق والصراط المستقيم، ويرشدهم إلىٰ الله رب العالمين، فيعرفوه حق معرفته، فيَصرفوا له العبادة وحده؛ ليعيشوا في سعة التوحيد وسعادته، وطمأنينة النفس واستقرارها، واجتماع الشمل وتوحيد هَمِّ القلب، بعدما كان أكثرهم يعبد الحجارة والأشجار ويخضع للطواغيت والأشرار، يُخرجهم من ذلك كله فيهنئون بحياةٍ هي في حقيقتها جنة الموحدين، وبآخرةٍ هي الحياة الأبدية التي لا ينعم فيها إلا المُسلمون من أتباع أنبياء الله ورسله أجمعين، ليُخرجهم الرسول ﷺ من ضيق الدنيا إلىٰ سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلىٰ سماحة الإسلام، ويوصلهم بالله الرحيم المنَّان.

وهذا مختصرٌ لسيرته ﷺ، أسأل الله ألَّا يجعلَه مخلًّا، وأن ينفع به المسلمين.

❁❁❁

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» حديث رقم (١٤٥٥).



الباب الثاني

من هو محمد ﷺ؟

فصل في مولده ﷺ

ولد النبي ﷺ في عام الفيل علىٰ الصحيح، والاختلاف ليس في تعيين عام ولادته، ولكن في تعيين عام الفيل علىٰ التحديد أهو الذي ولد فيه رسول الله ﷺ أم قبله بثلاثين عامًا أم أربعين عامًا، والصحيح أنه ولد في عام الفيل.

فالعام الذي ولد فيه؛ هو العام الثالث والخمسون قبل الهجرة الموافق لعام ٥٧١ من ميلاد المسيح.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا خلاف أنه ولد ﷺ بجوف مكَّة، وأن مولده كان عامَ الفيل»(١).

أما الشهر الذي ولد فيه ﷺ؛ فالجمهور والراجح علىٰ أنه ﷺ وُلد في ربيعٍ الأول.

أما اليوم الذي ولد فيه؛ ففي تحديده خلاف، فمن قائل أنه ولد في التاسع من ربيع الأول، ومنهم من قال: الثاني عشر منه، وهو المشهور.

وقد ولد ﷺ **صبيحة يوم الاثنين**، ففيه ولد ﷺ، وفيه بعث، وفيه توفي؛ فعن أبي قتادة الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سئل ﷺ عن صوم يوم الاثنين؟ قال: «**ذاك**

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (١/ ٧٦)، والمقصود بقوله: «لا خلاف»؛ أن من خالف في هذا فخلافه غير معتبر، ولا يُعتد به.

يوم ولدت فيه، ويوم بعثت أو أنزل عليَّ فيه»[(١)].

فقد وُلد ﷺ في صبيحة الاثنين الثاني عشر من ربيعٍ الأول في السنة الثالثة والخمسين قبل الهجرة (عام الفيل)، الموافق ٥٧١ ميلاديًّا.

❁❁❁

---

(١) رواه مسلم (١١٦٢).

فصل في أبويه ﷺ

ولد ﷺ لأبوين قرشيين.

فأبوه هو: عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيٍّ بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وعدنان من ذرية إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ (الذبيح) ابن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقد ذكر الزهري أنه: «بعث عبد المطلب (ولده) عبد الله بن عبد المطلب يمتار له تمرًا من يثرب، فتوفي عبد الله بها، وولدت آمنة رسول الله ﷺ»(١).

فولد ﷺ يتيمًا لم ير أباه، وكان في حجر عبد المطلب جده لأبيه.

وأما أمه فهي: آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، فهي تلتقي مع زوجها في جدها الثالث «كلاب».

وتوفيت - أمه آمنة - بالأبواء بين مكة والمدينة وهو في السادسة من عمره(٢).

---

(١) الصنعاني «مصنف» (٥/ ٣١٧).

(٢) ابن سعد «الطبقات» (١/ ١١٦، ١١٧)، ابن هشام «السيرة» (١/ ١٥٥).

فصل في اسمه ونسبه ﷺ

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وإلىٰ عدنان أجمعت الأمة، وأما ما بعده إلىٰ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ففيه اختلاف شديد.

وقد أجمعت الأمة أيضًا علىٰ كون عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل - كما مر -.

وكانت كُنيته المشهورة ﷺ هي: أبو القاسم.

أسماؤه:

قد ثبت في الصحيحين من حديث جبير بن مطعم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لي خمسة أسماء: أنا محمَّد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الَّذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الَّذي يحشر النَّاس علىٰ قدميَّ، وأنا العاقب**»[(١)]. وقال أيضًا: «**أنا محمَّد وأحمد والمقفَّىٰ والحاشر ونبيُّ التَّوبة، ونبيُّ الرَّحمة**»[(٢)].

وقد سُمِّي في القرآن بمحمد ﷺ، وبأحمد كما في سورة الصف.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ١٠٥).

ومعنىٰ اسمه «محمد»: هو المحمود الخصال، المُثْنَىٰ عليه، المشكور، المرضيُّ الأفعال، المفضَّل. وقد وردَ اسمه في القرآن الكريم بلفظه أربع مرات منها: في سورة آل عمران، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وفي سورة الأحزاب، قال تعالىٰ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وفي سورة الفتح، قال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي سورة محمد، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [محمد: ٢].



فصل في مُرضعاته ﷺ

كان العرب يجتمعون في مكة في موسم الحج ومن أجل التجارة، فكانت مكة أرض أمراضٍ وأوبئة، ولأنها يقصدها الناس بالزيارة فكان ينزلها العرب والعجم، فكان أهلها أقلَّ قوة في اللغة من أهل البادية الذين لم يخالطوا الأعاجم، فالتمس عبد المطلب جدُّ رسول الله ﷺ لحفيده المراضع، واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر، وهي حليمة السعدية نسبة إلىٰ بني سعد، فهي حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث، وزوجها الحارث بن عبد العزىٰ المكنىٰ بأبي كبشة.

وقد رضع النبي ﷺ من ثويبة مولاة أبي لهب أيامًا ثم أرضعته حليمة[1].

فعن حليمة أمِّ رسول الله ﷺ السَّعديَّة الَّتي أرضعته، قالت: خرجت في نسوةٍ من بني سعد بن بكرٍ نلتمس الرُّضعاء بمكَّة علىٰ أتانٍ لي قمراء [أي: علىٰ أنثىٰ حمار بيضاء فيها كدر] في سنةٍ شهباء [ذات قحطٍ وجدبٍ] لم تبق شيئًا، ومعي زوجي، ومعنا شارف لنا [أنثىٰ جمل مسنَّة]، والله ما إن يبضُّ [يدر] علينا بقطرةٍ من لبنٍ، ومعي صبيٌّ لي إن ننام ليلتنا من بكائه ما في ثدييَّ ما يغنيه، فلمَّا قدمنا مكَّة لم تبق منَّا امرأة إلَّا عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، وإنَّما كنَّا نرجو كرامة

(١) انظر البخاري حديث رقم (٥١٠١)، ومسلم حديث رقم (٣٦٦١).

الرَّضاعة من والد المولود، وكان يتيمًا، وكنَّا نقول: يتيمًا ما عسىٰ أن تصنع أمُّه به، حتَّىٰ لم يبق من صواحبي امرأة إلَّا أخذت صبيًّا غيري، فكرهت أن أرجع ولم أجد شيئًا وقد أخذ صواحبي، فقلت لزوجي: والله لأرجعنَّ إلىٰ ذلك اليتيم فلآخذنَّه، فأتيته، فأخذته ورجعت إلىٰ رحلي. فقال زوجي: قد أخذتيه؟ فقلت: نعم والله، وذاك أنِّي لم أجد غيره، فقال: قد أصبت، فعسىٰ الله أن يجعل فيه خيرًا. قالت: فوالله ما هو إلَّا أن جعلته في حجري أقبل عليه ثديي بما شاء الله من اللَّبن، فشرب حتَّىٰ روي، وشرب أخوه - يعني ابنها - حتَّىٰ روي، وقام زوجي إلىٰ شارفنا [أنثىٰ الجمل المسنَّة] من اللَّيل، فإذا بها حافل فحلبها من اللَّبن ما شئنا، وشرب حتَّىٰ روي، وشربت حتَّىٰ رويت، وبتنا ليلتنا تلك شباعًا رواءً، وقد نام صبياننا.

يقول أبوه - يعني زوجها -: والله يا حليمة ما أراك إلَّا قد أصبت نسمةً مباركةً، قد نام صبيُّنا، وروي.

قالت: ثمَّ خرجنا، فوالله لخرجت أتاني أمام الرَّكب، حتَّىٰ إنَّهم ليقولون: ويحك كفِّي عنَّا، أليست هذه بأتانك الَّتي خرجت عليها؟

فأقول: بلىٰ والله، وهي قدَّامنا حتَّىٰ قدمنا منازلنا من حاضر بني سعد بن بكرٍ، فقدمنا علىٰ أجدب أرض الله، فوالَّذي نفس حليمة بيده إن كانوا ليسرِّحون أغنامهم إذا أصبحوا، ويسرح راعي غنمي فتروح بطانًا لبنًا حفَّلًا، وتروح أغنامهم جياعًا هالكةً، ما لها من لبنٍ.

قالت: فنشرب ما شئنا من اللَّبن، وما من الحاضر أحد يحلب قطرةً ولا يجدها، فيقولون لرعائهم: ويلكم ألا تسرحون حيث يسرح راعي حليمة،

فيسرحون في الشِّعب الَّذي تسرح فيه، فتروح أغنامهم جياعًا ما بها من لبنٍ، وتروح غنمي لبنًا حفَّلًا.

وكان ﷺ يشبُّ في اليوم شباب الصَّبيِّ في شهرٍ، ويشبُّ في الشَّهر شباب الصَّبيِّ في سنةٍ، فبلغ سنةً وهو غلام جَفْر.

قالت: فقدمنا علىٰ أمِّه، فقلت لها، وقال لها أبوه: ردِّي علينا ابني، فلنرجع به؛ فإنَّا نخشىٰ عليه وباء مكَّة، قالت: ونحن أضنُّ شيءٍ به ممَّا رأينا من بركته.

قالت: فلم نزل حتَّىٰ قالت: ارجعا به، فرجعنا به»[1].

❀❀❀❀

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» برقم (٦٣٣٥)، والذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ٤٦)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٢٣).

فصل في إخوته ﷺ من الرضاع

عَبْد الله بْن الْحَارِث و**أنيسة بنت الحارث**: وهما أبناء حليمة السعدية.

حمزة بن عبد المطلب: وهو ابن ثويبة من الرضاعة.

قال النَّبيُّ ﷺ في بنت حمزة: «لا تحلُّ لي؛ يحرم من الرَّضاع ما يحرم من النَّسب، هي بنت أخي من الرَّضاعة»(١).

وحمزة هو عمُّ رسول الله وأخوه من الرَّضاعة، وهو الملقَّب بأسد الله، أسلم وقُتل شهيدًا في أُحد، وحَزنَ عليه الرسول ﷺ حزنًا شديدًا.

أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد: قال رسول الله ﷺ: **«أرضعتني وأبا سلمة ثويبة»**(٢).

(أبو سلمة): اسمه عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزومٍ المخزوميُّ، أخو النَّبيِّ ﷺ من الرَّضاعة، وابن عمَّته برَّة بنت عبد المطَّلب.

كان من السَّابقين، شهد بدرًا ومات في حياة النَّبيِّ ﷺ، مات في جمادىٰ الآخرة سنة أربعٍ بعد أحدٍ، فتزوَّج النَّبيُّ ﷺ بعده بزوجته أمِّ سلمة.

الشَّيماء بنت الحارث: هي الشَّيماء بنت الحارث بن عبد العزَّىٰ بن رفاعة، واسمها خذامة، وبعضهم يقول: جدامة، بالجيم، وبعضهم يقول: حذافة، بالحاء، أسلمت ووصلها رسول الله ﷺ بصلةٍ، وهي الَّتي كانت تحضنه ﷺ مع أمِّه.

(١، ٢) أخرجه البخاري ومسلم.

فصل في حادثة شق صدره ﷺ

عن أنس بن مالكٍ؛ أنَّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشقَّ عن قلبه فاستخرج القلب؛ فاستخرج منه علقةً [دم غليظ]، فقال: هذا حظُّ الشَّيطان منك. ثمَّ غسله في طستٍ [إناء] من ذهبٍ بماء زمزم ثمَّ لَأَمَه [لأمه: ضمَّ بعضه علىٰ بعض]، ثمَّ أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلىٰ أمِّه - يعني مرضعته -، فقالوا: إنَّ محمَّدًا قد قتل. فاستقبلوه وهو منتقع اللَّون [متغير اللون]، قال أنس [وهو خادم رسول الله ﷺ]: وقد كنت أرىٰ أثر ذلك المخيط في صدره»[١].

❁❁❁

(١) أخرجه مسلم.

فصل في وصف هيئته ﷺ

إن المسلم ليشتاق إلىٰ رؤية رسول الله ﷺ في الدنيا قبل الآخرة، ومعلوم أنه لا يُرىٰ في الدنيا إلا في الرؤية الصالحة؛ فإنه ﷺ قد مات، ومن مات لا يرجع إلىٰ الدنيا أبدًا، وأما في المنام فإن الشيطان لا يتمثَّل بصورته وهيئته الشريفة، وإنما يأتي للناس في صورة شخص حليق أو في شكل شيخٍ كهل، لحيته كلُّها بيضاء، أو ما أشبه من الصور التي ثبت لرسول الله ﷺ صورة وهيئة غيرها، فمن رأىٰ شخصًا أسود - علىٰ سبيل المثال - في المنام يزعم أنه الرسول ﷺ؛ فليعلم أنه الشيطان الرجيم يُلبس عليه دينه؛ فإن النبي ﷺ لم يكن أسود كما سيأتي في بيان صورته ﷺ.

قال رسول الله ﷺ: «**والَّذي نفسي بيده، ليأتينَّ علىٰ أحدكم يوم لا يراني، ثمَّ لأن يراني أحبُّ إليه من أهله وماله**»[1].

فانظر كيف كانوا يحبون رؤيته ﷺ ورضوان الله عليهم، يقول لأصحابه: «**ليأتين علىٰ أحدكم يوم لا يراني**»، يا لها من مصيبة عظيمة، «**ثم لأن يراني أحب إليه من أهله وماله**»، فانظر كيف يبذلون الأهل والمال ولا يستبقون النفس إلا لترىٰ الرسول صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم.

يبذل الواحد من أصحاب رسول الله - رضوان الله عليهم - ومن سار علىٰ

(١) أخرجه البخاري ومسلم، وابن حبان في «صحيحه» واللفظ له.

نهجهم؛ يبذل أهله وماله ليرىٰ الرسول ﷺ، ولِمَ لا وقد قال عنه جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رأيت رسول الله ﷺ في ليلة أضحيان [ليلة مقمرة] وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلىٰ القمر، قال: فلهو أحسن في عيني من القمر»(١).

فالمسلم يشتاق لرؤية نبيه ﷺ في الدنيا في الرؤية الصالحة، وفي الآخرة عند حوضه وخلف لوائه، وأن يدخل خلفه الجنة من غير حساب ولا عذاب.

فالله أسأل أن يرزقنا رؤيته في الرؤية الصالحة، وأن يحشرنا تحت لوائه، وأن يُسقينا من حوضه وأن يُسكننا معه في الفردوس الأعلىٰ من الجنة.

❁❁❁

(١) صححه الألباني في «مختصر الشمائل» حديث رقم (٨).

وصف رسول الله ﷺ

ذكر ابن القيم في كتابه «زاد المعاد» وصف أم معبد - رضوان الله عليها - لرسول الله ﷺ حين مرَّ بخيمتها مهاجرًا، فقالت: «ظاهر الوضاءة [أي: ظاهر الحسن والنظافة]، أبلج الوجه [مشرق الوجه]، حسن الخلق ﷺ، لم تعبه ثجله [أي: لا يعيبه عظم البطن وانتفاخها، بل كان سواء الصدر والبطن] ﷺ، ولم تزر به صعلة [ولم يُعبه صغر الرأس بل كان عظيم الرأس] ﷺ، وسيم قسيم [حسن جميل]، في عينيه دعج [شِدَّة سَوَادِ الْعَيْنِ وشِدَّةُ بَيَاضِه] ﷺ، وفي أشفاره [أي: أجفانه] وطف [أي: طول شعر الأجْفان، ثُمَّ يَنْعَطِف] ﷺ، وفي صوته صحل - وفي رواية: صهل - ﷺ [أي به قوة وصلابة وبحة وخشونة، وليس بالصوت الرفيع الحاد]، وفي عنقه سطع [أي: في عنقه ارتفاعٌ وَطُولٌ]، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ [كثير شعر اللحية، فليست لحيته رقيقة وخفيفة]، أزج [أي: تَقَوُّس فِي الْحَاجِبِ مَعَ طُول فِي طَرَفه وامْتدَاد] ﷺ، أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو المنطق، فضل، لا نزر ولا هذر [وسط لا قليل ولا كثير]، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدرن، ربعة، لا تقحمه عين من قصر ولا تشنؤه من طول، غصن بين غصنين، فهو أنظر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلىٰ أمره، محفود [يخدمه

أصحابه ويعظِّمونه]، محشود [يجتمع إليه الناس]، لا عابس ولا مفند»[١].

وقد كان وجه النبي ﷺ «أبيض مُشربًا بياضه بحمرة»[٢]، بل كان بين الاستدارة والإسالة، فلم يكن مستديرًا كامل الاستدارة وما كان مستطيلًا مثل السيف، ولكن كان أقرب للاستدارة مع كونه ليس مستديرًا استدارة كاملة.

وكان ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتىٰ كأنه قطعة قمر[٣].

وعن أبي هريرة، قال: «ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ كأنَّ الشَّمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ كأنَّما الأرض تطوىٰ له»[٤].

وكان النبي ﷺ واسع الجبهة[٥].

وكان ﷺ «إذا نظرت إليه قُلت: أكحل العينين، وليس بأكحل»[٦]، وكان ﷺ ضخم الرأس[٧].

وكان ﷺ عظيم الفم[٨].

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» برقم (٤٢٤٣).

(٢) رواه أحمد والترمذي والبزار وابن سعد وأبو يعلىٰ والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) أخرجه أحمد والترمذي بإسناد حسن.

(٥) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» وابن عساكر.

(٦) رواه الترمذي.

(٧) رواه أحمد والبزار وابن سعد.

(٨) أخرجه مسلم.

وكان ﷺ أفلج الثنيتين - أي: متفرق الأسنان الأربع التي في مقدم الفم، ثنتان من فوق وثنتان من تحت -، وكان ﷺ عظيم العينين، هَدِبَ الأشفار [أي ذو رموش عين طويلة]، مشرب العينين بحمرة(١).

وكان ﷺ ضخم الكفين(٢).

وقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من كف النبي ﷺ(٣).

وقد لمس يده أحد أصحابه فقال: فأخذت بيده فوضعتها علىٰ وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك(٤).

وكان ﷺ سواء البطن والصدر(٥).

وكان ﷺ عريض الصدر ممسوحه، كأنه المرايا في شدتها واستوائها، علىٰ بياض القمر ليلة البدر، موصول ما بين لبته إلىٰ سرته شعر منقاد كالقضيب [يعني: من أعلىٰ صدره إلىٰ سرته شعر موصول]، لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره(٦).

وقال عنه أنس: «ولا شممت مسكًا قطُّ ولا عطرًا كان أطيب من عرق النَّبيِّ ﷺ»(٧).

(١) رواه أحمد وابن سعد والبزار.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم.

(٤) أخرجه البخاري.

(٥) رواه الطبراني والترمذي في «الشمائل».

(٦) رواه ابن نعيم وابن عساكر والبيهقي.

(٧) أخرجه الترمذي في «سننه» وقال: حديث حسن صحيح.

وكان ﷺ إذا صافحه الرجل وجد ريحه، وإذا وضع يده علىٰ رأس صبي فيظل يومه يُعرَف من بين الصبيان بريحه علىٰ رأسه.

وما سلك رسول الله ﷺ طريقًا فيتبعه أحد إلا عرف أنه قد سلكه من طيب عرقه[(١)]

يقول جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الأُولَىٰ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَخَرَجْتُ مَعَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ وِلْدَانٌ، فَجَعَلَ يَمْسَحُ خَدَّيْ أَحَدِهِمْ وَاحِدًا وَاحِدًا، قَالَ جابر: وَأَمَّا أَنَا فَمَسَحَ خَدِّي؛ فوجدت ليده بردًا أو ريحًا كأنما أخرجها من جُؤْنَةِ عطار [أي: من سلة عطر]»[(٢)].

وكان ﷺ فصيح اللسان، بليغ القول، وكيف لا يكون كذلك وقد أوتي جوامع الكلم مع سلاسة طبع، ونصاعة لفظ وجزالة قول، وعدم تكلف، وخُصَّ ببدائع الحكم، وعِلْمِ ألسنة العرب، يخاطب كل قبيلة بلسانها، ويحاورها بلغتها؟! لذلك كان يقول لعبد الله بن عمرو: «**اكتب فوالذي نفسي بيده، ما خرج مني إلا الحق**». يقول رسول الله ﷺ: «**بُعِثْتُ بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، فبينما أنا نائم رأيتني أوتيت مفاتيح خزائن الأرض، فوضعت في يدي**»[(٣)].

❊❊❊

(١) أخرجه الدارمي في «سننه».

(٢) أخرجه مسلم

(٣) «مسند الإمام أحمد».

فصل في حياته قبل البعثة ﷺ

قال ابن هشام: كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتىٰ يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالًا له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتىٰ يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخِّروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأىٰ ذلك منهم: دعوا ابني هذا، فوالله إن له لشأنًا، ثم يجلس معه علىٰ فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع.

ولثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ توفي جَدُّه عبد المطلب بمكة، ورأىٰ قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلىٰ عمِّه أبي طالب شقيق أبيه.

وانتقل النبي ﷺ إلىٰ عمه أبي طالب، وعاش معه وعمره ثمان سنوات، وقدَّمه أبو طالب علىٰ أبنائه وفضَّله عليهم.

وقد ظهرت علىٰ يد أبي طالب معجزة من معجزات الرسول ﷺ وهو ما زال غلامًا صغيرًا، إذ جاء إلىٰ أبي طالبٍ رجلٌ يقول له: لقد أجدب الوادي - أي: نزل به القحط وقلة الماء -، فرفع أبو طالب النبيَّ ﷺ وألصق ظهره بالكعبة ورفع أصبعه يستسقي به الماء، وكأنه يدعو الله ويرفع يد النبي إلىٰ السماء يشير بها، وما في السماء من سحابة واحدة، فإذا بالسماء قد امتلأت سحبًا، ونزل الغيث، فقال أبو طالبٍ:

وأبـيضَ يُستـسقىٰ الغَمَـام بوجهـه ثِمـالَ اليتـامىٰ عِـصْمَةً للأرامـل(١)

وعاش النبي ﷺ مع عمه، يحوطه ويحبه ويَحترمه ويشعر أنه سيكون له شأنٌ عظيمٌ.

وعمل النبي ﷺ راعيًا للغنم، وهكذا الأنبياء جميعًا، ما بعث الله نبيًّا إلا كان راعيًا للغنم، فهي المهنة التي تُهيئه لتحمل شرود الشاردين من المُكذِّبين المعاندين من قومه، وهي المهنة التي تُرسِّخ الصبر في النفس مع شدته علىٰ النفس، فعمل ﷺ راعيًا للغنم في قريشٍ يرعىٰ لهم الغنم علىٰ قراريط، ثم عملَ في التجارة ﷺ، وشارك السائب بن أبي السائب المخزومي في تجارة، وقد جاءَ السائب في يوم فتح مكة فقال له الرسول ﷺ: «**أهلًا بأخي وشريكي**»، فلم ينس ﷺ أنه كان يُشاركه في تجارة قبل البعثة.

ثم انتقل النبي ﷺ إلىٰ التجارة بمال السيدة خديجة رضوان الله عليها.

عن محمَّد بن إسحاق، قال: «كانت خديجة بنت خويلدٍ امرأةً تاجرةً ذات شرفٍ ومالٍ، تستأجر الرِّجال في مالها، وتضاربهم إيَّاه بشيءٍ تجعله لهم منه، وكانت قريش قومًا تجَّارًا، فلمَّا بلغها عن رسول الله ﷺ من صدق حديثه وعظيم أمانته وكرم أخلاقه؛ بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجرًا إلىٰ الشَّام وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التُّجَّار، مع غلامٍ لها يقال له: ميسرة، فقبله منها رسول الله، وخرج في مالها ذلك، ومعه غلامها ميسرة، حتَّىٰ قدم الشَّام، فنزل رسول الله في ظلِّ شجرةٍ قريبًا من صومعة راهبٍ من الرُّهبان،

(١) أخرجه ابن عساكر والذهبي في «السير».

فاطَّلع الرَّاهب إلىٰ ميسرة فقال: من هذا الرَّجل الَّذي نزل تحت هذه الشَّجرة؟ فقال له ميسرة: هذا رجل من قريشٍ من أهل الحرم؛ فقال له الرَّاهب: ما نزل تحت هذه الشَّجرة قطُّ إلا نبيٌّ. ثمَّ باع رسول الله ﷺ سلعته الَّتي خرج فيها، واشترىٰ ما أراد أن يشتري ثمَّ أقبل قافلًا إلىٰ مكَّة ومعه ميسرة، وكان ميسرة فيما يزعمون قال: إذا كانت الهاجرة واشتدَّ الحرُّ نزل ملكان يظلانه من الشَّمس وهو يسير علىٰ بعيره، فلمَّا قدم مكَّة علىٰ خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعف أو قريبًا، وحدَّثها ميسرة عن قول الرَّاهب وعما كان يرىٰ من إظلال الملكين إيَّاه، فبعثت إلىٰ رسول الله فقالت له: فيما يزعمون يا ابن عمِّ أنِّي قد رغبت فيك لقرابتك منِّي وشرفك في قومك، وسطتك فيهم وأمانتك عندهم، وحسن خلقك وصدق حديثك، ثمَّ عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة امرأةً حازمةً لبيبةً شريفةً، وهي يومئذٍ أوسط قريشٍ نسبًا وأعظمهم شرفًا وأكثرهم مالًا، كلُّ قومها قد كان حريصًا علىٰ ذلك منها لو يقدر علىٰ ذلك، فلمَّا قالت لرسول الله ﷺ ما قالت ذكر رسول الله ذلك لأعمامه، فخرج معه منهم حمزة بن عبد المطَّلب حتَّىٰ دخل علىٰ خويلد بن أسدٍ فخطبها إليه، فتزوَّجها رسول الله ﷺ».

وإذن فقد تزوج الرسول ﷺ من خديجة بنت خويلد وهو ابن خمسٍ وعشرين سنة، وهي في الأربعين من عمرها، فلم يبحث ﷺ عن شابة بكر صغيرة، وإنما تزوج السيدة خديجة بنت خويلد؛ لكمال عقلها وشرفها وسيرتها الطيبة وذكائها، وهي كما مرَّ في الرواية عرضت عليه أن يتزوجها لمَّا وجدت فيه الأمانة والشرف والصدق والورع.

فصل في أولاده ﷺ

وعاش النبي معها ﷺ في دفء وودٍّ، وقد وفَّرت له بيتًا سعيدًا، وأنجبت له: القاسم، وبه كان يُكنَّىٰ، فكنيته ﷺ «أبو القاسم»، ولد القاسم قبل البعثة ومات وهو ابن سنتين.

ثم أنجبت خديجة - رضوان الله عليها - له زينب - رضوان الله عليها -، ثم أنجبت له رقية - رضوان الله عليها - وهي التي تزوجها عثمان بن عفان - رضوان الله عليه -، ثم أنجبت له أم كلثوم وهي التي تزوجها عثمان بعدما ماتت رقية - رضوان الله عليها -، ثم أنجبت له فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي التي تزوجت من ابن عمِّ رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه -، وكذلك وُلد له عبد الله وهو الطيب والطاهر، كذا كان يُسمىٰ، وقد وُلد بعد بعثة النبي ﷺ.

وكل أبنائه كانوا من خديجة عدا إبراهيم فإنه من مارية القبطية، وقد وُلد بالمدينة بعد الهجرة، وكل أبنائه ماتوا في حياته عدا فاطمة - رضوان الله عليها - ماتت بعده بستة أشهر.

فصل في عقيدته وعبادته قبل البعثة

لقد كان النبي ﷺ علىٰ ملة أبيه إبراهيم حنيفًا موحِّدًا، لا يعبد الأصنام ولا يسجد للأوثان وما شرب خمرًا قطُّ، وما احتفل يومًا مع المشركين بأعيادهم، بل جاء عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لمَّا بنيت الكعبة ذهب النَّبيُّ ﷺ وعبَّاس ينقلان الحجارة، فقال عبَّاس للنَّبيِّ ﷺ: اجعل إزارك علىٰ رقبتك يقيك من الحجارة؛ فخرَّ إلىٰ الأرض، وطمحت عيناه إلىٰ السَّماء، ثمَّ أفاق فقال: «**إزاري إزاري**». فشدَّ عليه إزاره»[(١)].

فانظر كيف وقاه الله جَلَّ وَعَلَا من أن يظهر فخذه للناس وهو ينقل حجارة الكعبة، فهو عمَّا دون ذلك أبعد بيقين ﷺ.

وقد شارك رسول الله ﷺ في بناء الكعبة بعدما تصدَّع بنيانها، ونزل بها السيل، فقررت قريش أن تهدم جدرانها وتعيد بناءها، وكان ذلك بعد مولد النبي ﷺ بخمسٍ وثلاثين سنة، فشارك معهم ﷺ، ولما وصلوا إلىٰ وضع الحجر الأسود في مكانه اختلفت القبائل؛ من التي تضعه؟ وتنازعوا نزاعًا شديدًا، فقرَّروا أن يتحاكموا لأول من يمرُّ عليهم من العقلاء، فمرَّ النبي ﷺ، فقبلوه جميعًا حكمًا بينهم، فقضىٰ بأن يُحضروا رداءً، فوضع الحجر في وسطه، وطلب ﷺ

(١) رواه البخاري.

من رؤساء القبائل أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، ثم أمرهم أن يرفعوه، حتىٰ إذا أوصلوه إلىٰ موضعه فأخذه بيده فوضعه في مكانه ﷺ.

فكان حسن الخُلق أمينًا صادقًا ما كذب قطُّ ﷺ، حتىٰ سُمي بالصادق الأمين، وكانت قريشٌ تضع عنده من الأمانات ما تخشىٰ عليه، حتىٰ بعد بعثته كانوا يعلمون أنه لا يوجد في مكة كلها من هو آمن علىٰ أماناتهم منه ﷺ.

وكان ﷺ يصعد إلىٰ غار حراء، يعتكف فيه شهرًا في العام يختلي بنفسه ليعبد ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلما بلغ الأربعين ﷺ حُبِّبَ إليه الخلاء، والمكث في غار حراء، كما كان يفعل الصالحون من قبله من مُوحدي العرب.

❀❀❀

فصل في بعثته ﷺ (بدء الوحي)

نزل الوحي أول مرة علىٰ رسول الله ﷺ بعد بلوغه الأربعين من عمره، وهي سنُّ اكتمال الرجولة، اصطفاه الله جَلَّوَعَلَا ليتحمل حِمل الرسالة وتبليغها للناس.

يقول صاحب «الرحيق المختوم»: «وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدِّد ذلك اليوم بأنه كان يوم الاثنين لإحدىٰ وعشرين مضت من شهر رمضان ليلًا، وقد وافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠م، وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية، وستة أشهر، و١٢ يومًا، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر وعشرين يومًا».

عن ابن شهابٍ، قال: «حدَّثني عروة بن الزُّبير أنَّ عائشة زوج النَّبيِّ ﷺ أخبرته أنَّها قالت: كان أوَّل ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرُّؤيا الصَّادقة في النَّوم، فكان لا يرىٰ رؤيا إلَّا جاءت مثل فلق الصُّبح، ثمَّ حبِّبَ إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراءٍ يتحنَّث فيه - وهو التَّعبُّد - اللَّيالي أولات [أي: ذوات] العدد قبل أن يرجع إلىٰ أهله ويتزوَّد لذلك، ثمَّ يرجع إلىٰ خديجة فيتزوَّد لمثلها حتَّىٰ فَجِئه الحقُّ وهو في غار حراءٍ، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: «**ما أنا بقارئٍ**، - قال -: **فأخذني فغطَّني حتَّىٰ بلغ منِّي الجهد، ثمَّ أرسلني فقال: اقرأ**. قال: **قلت: ما أنا بقارئٍ**، - **قال** - **فأخذني فغطَّني الثَّانية حتَّىٰ بلغ منِّي الجهد، ثمَّ أرسلني فقال:**

اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئٍ، فأخذني فغطَّني الثَّالثة حتَّىٰ بلغ منِّي الجهد، ثمَّ أرسلني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥]». فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتَّىٰ دخل علىٰ خديجة فقال: «**زمِّلوني زمِّلوني**». فزمَّلوه حتَّىٰ ذهب عنه الرَّوع، ثمَّ قال لخديجة: «**أي خديجة ما لي**». وأخبرها الخبر، قال: «**لقد خشيت علىٰ نفسي**». قالت له خديجة: كلَّا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدًا، والله إنَّك لتصل الرَّحم وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ وتكسب المعدوم، وتقري الضَّيف وتعين علىٰ نوائب الحقِّ.

فانطلقت به خديجة حتَّىٰ أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزَّىٰ وهو ابن عمِّ خديجة أخي أبيها، وكان امرَأً تنصَّر في الجاهليَّة، وكان يكتب الكتاب العربيَّ ويكتب من الإنجيل بالعربيَّة ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي. فقالت له خديجة: أي عمِّ اسمع من ابن أخيك. قال ورقة بن نوفلٍ: يا ابن أخي ماذا ترىٰ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه، فقال له ورقة: هذا النَّاموس الَّذي أنزل علىٰ موسىٰ ﷺ، يا ليتني فيها جذعًا، يا ليتني أكون حيًّا حين يخرجك قومك. قال رسول الله ﷺ: «**أومخرجيَّ هم؟**». قال ورقة: نعم لم يأت رجل قطُّ بما جئت به إلَّا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا»[1].

وإذن فقد اختاره الله لتحمُّل الرسالة وأدائها من بين العالمين، الرسالة الخاتمة التي هي لعموم المُكلَّفين من الإنس والجن علىٰ السواء من بعثته إلىٰ

(١) رواه البخاري ومسلم.

قيام الساعة، وإذن فهو سيد ولد آدم وخاتم المرسلين صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

فاتصل ﷺ بالسماء من خلال ملك الوحي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكان ينزل عليه الوحي في صور متعدِّدة، وقد سأله ﷺ الحارثُ بن هشامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس - وهو أشدُّه عليَّ -، فيفصم** [يقلع] **عنِّي وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثَّل لي الملك رجلًا فيكلِّمني فأعي ما يقول**». قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشَّديد البرد، فيفصم [يقلع] عنه وإنَّ جبينه ليتفصَّد [يسيل] عرقًا»[1].

***

(١) رواه البخاري.

فصل في زوجاته ﷺ

إنما أَخَّرتُ ذكر زوجات النبي ﷺ بعد بعثته؛ لأنه ما تزوج ﷺ قبل البعثة إلا خديجة - رضوان الله عليها -، ثم تزوج بعد البعثة بقية أزواجه - رضوان الله عليهن -، وهذه نبذة مختصرة عن مكانة أزواج رسول الله ﷺ في دين الله جَلَّ وَعَلَا.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره للآية: «وقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦]؛ أي: في الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام».

وقال الله تعالىٰ فيهن رضوان الله عليهن: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

قال العلَّامة السعدي في تفسيره للآية: «ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين؛ أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء ﴿أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: أذيَّة قولية أو فعلية، بجميع ما يتعلَّق به، ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ﴾ هذا من جملة ما يؤذيه؛ فإنه ﷺ له مقام التعظيم، والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته بعده مخلٌّ بهذا المقام.

وأيضًا فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجية باقية بعد موته؛ فلذلك لا يحلُّ نكاح زوجاته بعده، لأحد من أمته. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهىٰ الله عنه منه، ولله الحمد والشكر» اهـ.

وإليك ذكر أزواجه ﷺ أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن جميعًا:

١- خديجة رضوان الله عليها

تزوَّجها النبي قبل البعثة، وما تزوج عليها قطُّ، وكانت في الأربعين من عمرها، وهو في الخامسة والعشرين - صلوات الله عليه -، فعاش معها خمسة عشر عامًا قبل البعثة، وماتت خديجة - رضوان الله عليها - بعد البعثة في عام الحزن وهو العام العاشر من بعثة النبي محمد ﷺ، ولها من العمر خمس وستون سنة، فعاشت معه خمسة عشر عامًا قبل البعثة وعشرة أعوام بعد البعثة وكانت أول من آمن به من البشر قاطبةً، ماتت بعد موت أبي طالب عم النبي ﷺ بثلاثة أيام، وقيل: بعده بأكثر من ذلك، وعمُّه أبو طالب الذي كان سببًا في منع كثيرٍ من أذىٰ المشركين أن يصل لرسول الله ﷺ، فماتت زوجته التي قال عنها: «**ما أبدلني الله عَزَّوَجَلَّ خيرًا منها؛ قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عَزَّوَجَلَّ ولدها إذ حرمني أولاد النساء**»[١].

❁❁❁

(١) رواه أحمد في «مسنده».

٢ - سودة بنت زمعة - رضوان الله عليها -

لما ماتت خديجة - رضوان الله عليها - ومات عمُّ رسول الله أبو طالب، وكان عامًا حزينًا حتىٰ سُمِّيَ عام الحزن، وأشفق الصحابة والصحابيات علىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ عرضت خولة بنت حكيم السلمية رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا امرأة عثمان بن مظعون علىٰ رسول الله أن يتزوج، فقال لها: «**فمن؟**».

فعرضت عليه عائشة - رضوان الله عليها - وسودة بنت زمعة - رضوان الله عليها -، فقال لها: «**اعرضي عليهما**». كما جاء في مسند الإمام أحمد:

«**عن أبي سلمة أنه قال**: لما هلكت [يعني ماتت] خديجة [رضوان الله عليها] جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون، قالت: يا رسول الله ألا تزوج؟ [يعني ألا تتزوج ؟].

قال: مَنْ؟

قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا.

قال: فمن البكر؟

قالت: ابنة أحب خلق الله عَزَّوَجَلَّ إليك عائشة بنت أبي بكر.

قال: ومن الثيب؟

قالت: سودة ابنة زمعة، قد آمنت بك واتَّبعتك علىٰ ما تقول.

قال: فاذهبي فاذكريهما عليَّ.

فدخلت بيت أبي بكر، فقالت: يا أم رومان [زوجة أبي بكر]، ماذا أدخل الله عَزَّوَجَلَّ عليكم من الخير والبركة؟

قالت: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة.

قالت: انتظري أبا بكر حتىٰ يأتي، فجاء أبو بكر.

فقالت: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟

قال: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة.

قال: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه.

قالت: فرجعت إلىٰ رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك.

قال: ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي.

قالت: فرجعت فذكرت ذلك له، فقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ، فدعته فزوَّجَها إياه وعائشة يومئذ بنت ست سنين [عقد عليها ولم يدخل بها حتىٰ بلغت تسع سنين].

قالت خولة رضوان الله عليها: ثم خرجت فدخلت علىٰ سودة بنت زمعة.

فقالت: ماذا أدخل الله عَزَّوَجَلَّ عليك من الخير والبركة؟

قالت: وما ذاك؟

قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك عليه.

قالت: وددت، ادخلي إلىٰ أبي فاذكري ذاك له - وكان شيخًا كبيرًا قد أدركه

السن قد تخلف عن الحج -.

فدخلت عليه فحيَّته بتحية الجاهلية فقال: من هذه؟

فقالت: خولة بنت حكيم.

قال: فما شأنك؟

قالت: أرسلني محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة.

قال: كفء كريم، ماذا تقول صاحبتك [يعني سودة]؟

قالت: تحب ذاك.

قال: ادعها لي فدعيتها.

قال: أي بنية، إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك، وهو كفء كريم، أتحبِّين أن أزوجك به؟

قالت: نعم.

قال: ادعيه لي.

فجاء رسول الله ﷺ إليه فزوجها إياه.

وقدمَ عبدُ بنُ زمعةَ فجعلَ يحثو علىٰ رأسِهِ التُّرابَ [لأن أخته قد تزوجت من رسول الله ﷺ وكان كافرًا وقتها]، فقالَ بعدَ أن أسلمَ: إنِّي لسفيهٌ يومَ أحثو علىٰ رأسي التُّرابَ أن تزوَّجَ رسولُ اللهِ ﷺ سودَةَ»[1].

وإذن فقد تزوج النبي ﷺ السيدة سودة وخطب السيدة عائشة بعد وفاة السيدة خديجة، رضوان الله علىٰ أمهات المؤمنين جميعًا.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده».

٣ - عائشة بنت أبي بكر رضوان الله عليها

عقد عليها بعد وفاة السيدة خديجة كما مرَّ، وهي بنت ست سنين، وبنىٰ بها وهي بنت تسع سنين، وتزوجها النبي ﷺ لرؤيا رآها ولِما وقع من خولة - رضوان الله عليها - لما دلَّته عليها، فقد ثبت في البخاري من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال لها: «**أُريتك في المنام مرتين، أرىٰ أنك في سَرَقَةٍ من حرير ويقال: هذه امرأتك، فاكشف عنها، فإذا هي أنت، فأقول: إن يك هذا من عند الله يُمْضِهِ**»(١).

وكانت أحبَّ النساء إلىٰ قلبه ﷺ، وما تزوج بكرًا غيرها - رضوان الله عليها -، ومات وهي بنت ثمانية عشر عامًا، مات ﷺ ورأسه في حجرها، فتذكر عائشة ذلك قائلة: «فمات في اليوم الذي كان يدور علي فيه في بيتي، فقبضه الله وإن رأسه لبين نَحْري وسَحْري، وخالط ريقه ريقي، - ثمَّ قالت: - دخل عبد الرَّحمن بن أبي بكرٍ ومعه سواك يستنُّ به، فنظر إليه رسول الله ﷺ، فقلت له: أعطني هذا السِّواك يا عبد الرَّحمن. فأعطانيه فقضمته، ثمَّ مضغته فأعطيته رسول الله ﷺ فاستنَّ به وهو مستند إلىٰ صدري»(٢).

ودُفن النبي ﷺ في حجرتها.

(١، ٢) رواه البخاري.

٤ - حفصة بنت عمر رضي الله عنها

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب حين تأيَّمت حفصة بنت عمر من خنيس بن حذافة السهمي [أي: مات زوجها خنيس]، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قد شهد بدرًا، توفِّي بالمدينة، قال عمر: «فلقيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر.

قال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي، فقال - أي عثمان -: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا.

قال عمر: فلقيت أبا بكرٍ، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر. فصمت أبو بكرٍ فلم يرجع إليَّ شيئًا، فكنت عليه أوجد مني علىٰ عثمان، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكرٍ فقال: لعلك وجدت عليَّ حين عرضت عليَّ حفصة فلم أرجع إليك؟ قلت: نعم.

قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت إلا أني قد علمت أنَّ رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ، ولو تركها لقبلتها»[١].

❀❀❀

(١) رواه البخاري.



٥ - زينب بنت خزيمة رضوان الله عليها

أرملة عبيدة بن الحارث بن المطلب الذي استشهد في غزوة بدر، فتزوجها النبي ﷺ في رمضان سنة ٣هـ، على رأس واحد وثلاثين شهرًا من الهجرة، لم تلبث مع النبي ﷺ شهرين أو ثلاثة ثم ماتت رضوان الله عليها[١].

❀❀❀

(١) «سيرة ابن هشام»، و«طبقات ابن سعد» (٨/ ١١٥).

٦ - أم سلمة بنت أبي أمية رضي الله عنها

عن أم سلمة رضي الله عنها **قالت**: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبدٍ تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرًا منها. إلا أجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرًا منها**». قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف الله لي خيرًا منه رسول الله ﷺ. وفي رواية: «فلما توفي أبو سلمة قلت: من خير من أبي سلمة صاحب رسول الله ﷺ؟! ثم عزم الله لي فقلتها، قالت: فتزوجت رسول الله ﷺ»(١).

---

(١) رواه مسلم.

٧ - جويرية بنت الحارث رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا

وقعت أسيرة في أيدي المسلمين في غزوة بني المصطلق، وجاءت إلىٰ النبي ﷺ تطلب منه أن يعينها في مكاتبتها لعتق رقبتها [يعني تكتب كتابًا لسيدها كعقد إذا قامت بالوفاء بقيمته يتم عتقها]، فعرض عليها النبي ﷺ قضاء كتابتها وزواجه بها فقبلت.

فتزوجها النبي ﷺ وجعل عتقها صداقها.

فلما علم الناس بذلك أعتقوا مَنْ بأيديهم من السبي (الأسرىٰ)؛ إكرامًا لأصهار الرسول ﷺ؛ فما كانت امرأة أعظم علىٰ قومها بركة منها[1].

❁❁❁

(١) رواه ابن إسحاق، وانظر «سيرة ابن هشام» (٣/ ٤٠٨، ٤٠٩).

٨ - زينب بنت جحش رضوان الله عليها

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٧، ٣٨].

قال العلامة السعدي في تفسيره لهذه الآيات:

«وكان سبب نزول هذه الآيات؛ أن الله تعالىٰ أراد أن يشرع شرعًا عامًّا للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة من جميع الوجوه، وأن أزواجهم لا جناح علىٰ من تبنَّاهم في نكاحهن.

وكان هذا من الأمور المعتادة، التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولًا من رسوله وفعلًا، وإذا أراد الله أمرًا؛ جعل له سببًا، وكان زيد بن حارثة يُدعىٰ «زيد بن محمد» قد تبنَّاه النبي ﷺ، فصار يدعىٰ إليه حتىٰ نزل" ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٥]، فقيل له: «زيد بن حارثة».

وكانت تحته زينب بنت جحش، ابنة عمة رسول الله ﷺ، وكان قد وقع في قلب الرسول لو طلَّقها زيد لتزوَّجها، فقدَّر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضىٰ أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها.

قال الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعتق، حين جاءك مشاورًا في فراقها، فقلت له ناصحًا له ومخبرًا بمصلحته مع وقوعها في قلبك: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي: لا تفارقها، واصبر علىٰ ما جاءك منها، ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ تعالىٰ في أمورك عامة، وفي أمر زوجك خاصة؛ فإن التقوىٰ تحث علىٰ الصبر، وتأمر به.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ والذي أخفاه أنه لو طلَّقها زيد لتزوجها ﷺ.

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ في عدم إبداء ما في نفسك ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ وأن لا تباليهم شيئًا، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي: طابت نفسه، ورغب عنها، وفارقها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وإنما فعلنا ذلك لفائدة عظيمة، وهي: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ حيث رأوك تزوجت زوج زيد بن حارثة، الذي كان من قبل ينتسب إليك.

ولما كان قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾؛ عامًّا في جميع الأحوال، وكان من الأحوال ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها، قيَّد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: لا بدَّ من فعله، ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات علىٰ هذه القصة؛ فوائد، منها: الثناء علىٰ زيد بن حارثة، وذلك من وجهين:

أحدهما: أن الله سمَّاه في القرآن، ولم يسمِّ من الصحابة باسمه غيره.

والثاني: أن الله أخبر أنه أنعم عليه؛ أي: بنعمة الإسلام والإيمان. وهذه

شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن، ظاهرًا وباطنًا، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة، لولا أن المراد بها النعمة الخاصة.

ومنها: أن الْمُعْتَق في نعمة الْمُعْتِق.

ومنها: جواز تزوج زوجة الدَّعِيِّ، كما صرَّح به.

ومنها: أن التعليم الفعلي أبلغ من القولي، خصوصًا إذا اقترن بالقول؛ فإن ذلك نور علىٰ نور.

ومنها: أن المحبة التي في قلب العبد لغير زوجته ومملوكته، ومحارمه، إذا لم يقترن بها محذور؛ لا يأثم عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمنيته أن لو طلقها زوجها لتزوَّجها، من غير أن يسعىٰ في فرقة بينهما، أو يتسبَّب بأي سبب كان؛ لأن الله أخبر أن الرسول ﷺ أخفىٰ ذلك في نفسه.

ومنها: أن الرسول ﷺ قد بلَّغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئًا مما أوحي إليه، إلا وبلَّغه، حتىٰ هذا الأمر، الذي فيه عتابه.

وهذا يدلُّ علىٰ أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحي إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

ومنها: أن المستشار مؤتمن، يجب عليه - إذا استشير في أمر من الأمور - أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير ولو كان له حظ نفس؛ فتقدَّم مصلحة المستشير علىٰ هوىٰ نفسه وغرضه.

ومنها: أن من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإمساكها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.

ومنها: [أنه يتعين] أن يقدم العبد خشية الله علىٰ خشية الناس، وأنها أحق

منها وأولىٰ.

ومنها: فضيلة زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم المؤمنين، حيث تولَّىٰ الله تزويجها من رسوله ﷺ، من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر بذلك علىٰ أزواج رسول الله ﷺ، وتقول: زوَّجكن أهاليكن، وزوَّجني الله من فوق سبع سموات.

ومنها: أن المرأة إذا كانت ذات زوج؛ لا يجوز نكاحها، ولا السعي فيه وفي أسبابه، حتىٰ يقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره حتىٰ تنقضي عدَّتُها؛ لأنها قبل انقضاء عدتها هي في عصمته، أو في حقه الذي له وطر إليها، ولو من بعض الوجوه». اهـ.

❊❊❊

٩ - أم حبيبة بنت أبي سفيان رضوان الله عليها

وهي من بنات عمِّ الرسول ﷺ، ليس في أزواجه من هي أقرب نسبًا إليه منها، ولا في نسائه من هي أكثر صداقًا منها، ولا من تزوج بها وهي نائية الدار أبعد منها - إذ كانت في الحبشة -.

أرسل النبيُّ ﷺ إلىٰ النجاشي يخطبها - لما مات عنها زوجها في بلاد الحبشة -، فأوكلت عنها خالد بن سعيد بن العاص؛ فلم يكن أبو سفيان هو وليَّها لأنه لم يكن قد أسلم بعدُ، وأصدقها النجاشي أربعمائة دينار، وأَوْلَمَ لها وليمة فاخرة، وجهَّزها وأرسلها إلىٰ المدينة مع شرحبيل بن حسنة.

تزوَّجت الرسول ﷺ سنة ٧هـ، وكان عمرها يومئذٍ ٣٦ سنة، وذكر في شأنها قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الممتحنة: ٧]. يعني سيجعل الله مودَّة بين المسلمين وبين أبيها أبي سفيان بسبب زواجها من رسول الله ﷺ.

١٠ - ميمونة بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ تزوج ميمونة وهو محرم(١).

وقوله: (وهو محرم)؛ ردَّ عليه العلماء وبيَّنوا أنه وَهْمٌ منه - رضوان الله عليه - والصواب أن النبي ﷺ تزوجها بعد أن تحلَّل من عمرة القضاء كما جاء عند أبي داود، وبيَّنَ ذلك ابن القيم - رحمة الله عليه - في «زاد المعاد»(٢).

❁❁❁

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) «زاد المعاد» (١/ ١١٣)، «فتح الباري» حديث رقم (٥١١٤).

١١ - صفية بنت حيي بن أخطب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا

جاء عند مسلم أنه في غزوة خيبر أقبل صحابي اسمه دحية، فقال: يا رسول الله، أعطني جاريةً من السَّبي، فقال: «**اذهب فخذ جاريةً**»، فأخذ صفيَّة بنت حييٍّ، فجاء رجل إلىٰ نبيِّ الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله أعطيت دحية صفيَّة بنت حييٍّ سيِّد قريظة والنَّضير، ما تصلح إلَّا لك. قال: «**ادعوه بها**». قال: فجاء بها فلمَّا نظر إليها النَّبيُّ ﷺ قال: «**خذ جاريةً من السَّبي غيرها**»، قال: وأعتقها وتزوَّجها. فقال له ثابت: يا أبا حمزة، ما أصدقها؟ قال: نفسها، أعتقها وتزوَّجها حتَّىٰ إذا كان بالطَّريق جهَّزتها له أمُّ سليمٍ فأهدتها له من اللَّيل، فأصبح النَّبيُّ ﷺ عروسًا، فقال: «**من كان عنده شيء فليجئ به**»، قال: وبسط نطعًا، قال: فجعل الرَّجل يجيء بالأقط وجعل الرَّجل يجيء بالتَّمر وجعل الرَّجل يجيء بالسَّمن، فحاسوا حيسًا. فكانت وليمة رسول الله ﷺ[١].

(١) رواه مسلم.

وأما سراريه ﷺ

«وأما السراري[١] فالمعروف أنه تسرَّىٰ باثنتين؛ إحداهما مارية القبطية، أهداها له المقوقس، فأولدها ابنه إبراهيم.

والسرية الثانية هي ريحانة بنت زيد النضرية أو القرظية، كانت من سبايا قريظة، فاصطفاها لنفسه، وقيل: بل هي من أزواجه ﷺ، أعتقها فتزوجها. والقول الأول رجَّحه ابن القيِّم»[٢].

---

(١) جمع سرية، والمقصود بها الأمة المملوكة الَّتِي بَوَّأْتَهَا بَيْتًا، وَهِيَ فُعْلِيَّةٌ مَنْسُوبَةٌ إِلَىٰ السِّرِّ، وَهُوَ الْإِخْفَاءُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ كَثِيرًا مَا يُسِرُّهَا وَيَسْتُرُهَا عَنْ حُرَّتِهِ . انظر مختار الصحاح مادة (س ر ر).

(٢) انظر زاد المعاد (١/ ٢٩).

فصل في ذكر آل بيته رضوان الله عليهم

وآل بيته ﷺ هم الذين تحرم عليهم الصدقة؛ فقد حرَّم الله جَلَّ وَعَلَا علىٰ نبيه وعلىٰ آل بيته الصدقة، قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الصَّدقة لا تنبغي لآل محمَّدٍ، إنَّما هي أوساخ النَّاس**»[1]، فيدخل في آل بيته ﷺ أزواجه - رضوان الله عليهن - قال تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

وإذن فخديجة وعائشة وسودة وحفصة وزينب بنت خزيمة، وأم سلمة بنت أبي أمية وجويرية بنت الحارث وزينت بنت جحش وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وميمونة بنت الحارث وصفية بنت حيي - رضوان الله عليهن جميعًا -؛ من آل بيته ﷺ.

ويدخل في آل بيته ﷺ من آمن من بني عبد المطلب، ودليل ذلك ما جاء عن مسلم مطولًا، ومفاده أن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب أنه ذهب هو والفضل بن عباس إلىٰ رسول الله ﷺ يطلبان منه أن يوليهما من الصدقة ليصيبا من المال ما يتزوجان به، فقال لهما: «**إن الصدقة لا تنبغي لآل**

---

(١) رواه مسلم.

محمد إنما هي أوساخ الناس»، ثم أمر بتزويجهما وإصداقهما من الخمس.

فيدخل في آل بيته من آمن من أعمامه ومن آمن من بني عمومته.

وإذن: فالعباس بن عبد المطلب، وحمزة بن عبد المطلب من آل بيت رسول الله ﷺ.

كما يدخل في آل بيته ﷺ أبناء عمومته: كعلي بن أبي طالب بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وجعفر بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وغيرهم ممن أسلم من أبناء عمومته ﷺ.

ويدخل في آل بيته أبناؤه رضوان الله عليهم: القاسم وإبراهيم وعبد الله وزينب وفاطمة وأم كلثوم ورقية، رضوان الله عليهم أجمعين.

كما يدخل في آل بيته أبناء علي بن أبي طالب، فهو من آل بيته - صلوات الله عليه - وزوجه بنت رسول الله ﷺ، وقد جاء في الحديث الصحيح عند مسلم أيضًا أنه ﷺ قال: «**وأهل بيتي، أذكِّركم الله في أهل بيتي أذكِّركم الله في أهل بيتي أذكِّركم الله في أهل بيتي**». فقال له حصين: ومَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ [التابعي يسأل الصحابي بعدما سمع الحديث] قال [زيد بن أرقم الصحابي]: نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصَّدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل عليٍّ وآل عقيلٍ وآل جعفرٍ وآل عبَّاسٍ. قال: كلُّ هؤلاء حرم الصَّدقة؟ قال: نعم.

وإذن فأهل بيته ﷺ يدخل فيهم آل علي، وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس.

وأما حديث: «**سلمان منا آل البيت**»؛ فهو حديث ضعيف ضعَّفه الجمهور كما نقل ذلك الهيثمي، وكذلك ضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع»؛ فلا يصح مرفوعًا لرسول الله ﷺ وإن ثبت موقوفًا علىٰ علي بن أبي طالب.

❀❀❀

فصل في دعوته ﷺ إلى الله بمكة

بعدما نزل عليه الملك في غار حراء، وقال له: اقرأ - كما مرَّ -، فقال له الرسول ﷺ: «**ما أنا بِقَارِئٍ**»، يقول ﷺ: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي**»، [يعني: ضمَّني ضمًّا شديدًا] ثلاث مرات حتىٰ قال له الآيات الكريمات: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ - ٥].

فهي أول ما نزل من وحي السماء علىٰ النبي ﷺ، فرجع النبي ﷺ إلىٰ بيته وهو خائف يرتجف، فرجع إلىٰ خديجة - رضوان الله عليها - وكان منها ما مرَّ ذكرُه من تثبيتها له، والذهاب معه إلىٰ ورقة بن نوفل ابن عمها، وكان رجلًا كبيرًا قد تنصَّر وحفظ من كتب أهل الكتاب ما حفظ، فعرف النبي ﷺ بصفته وبما قصَّه عليه؛ فأخبره أن قومه سيكذِّبونه وسيخرجونه من بلده.

ثم فتر الوحي ولم ينزل عليه جبريل لعدة أيامٍ، اختلف العلماء في تعدادها، وأما القصة التي جاءت في «صحيح البخاري» بعد حديث عائشة - رضوان الله عليها - بأنه ﷺ كان يصعد إلىٰ قمم الجبال يريد أن يتردَّىٰ منها - يعني: يُلقي بنفسه - حزنًا علىٰ انقطاع الوحي؛ فهي لم تصح عنه ﷺ، بل إن الإمام البخاري - رحمة الله عليه - أسندها إلىٰ الزهري، فهي من كلامه وليست من كلام عائشة - رضوان الله عليها -، حيث بيَّن بكلمة «فيما بلغنا - يعني أن الزهري بعدما روىٰ حديث عائشة في بدء الوحي زاد عليه ما بلغه -».

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في تعليقه علىٰ الحديث:** «ثم إن القائل: «فيما بَلَغَنا»؛ هو الزهري، ومعنىٰ الكلام: أن في جملة ما وصل إلينا من خبر رسول الله ﷺ في هذه القصة. وهو من بلاغات الزهري وليس موصولًا، وقال الكرماني: هذا هو الظاهر».

قال العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قلت: هذا العزو للبخاري خطأ فاحش؛ ذلك لأنه يوهم أن قصة التردِّي هذه صحيحة علىٰ شرط البخاري وليس كذلك، وبيانه أن البخاري أخرجها في آخر حديث عائشة في بدء الوحي»[1].

ثم نزل الوحي مرة أخرىٰ علىٰ رسول الله ﷺ وحميَ؛ يعني كَثُرَ نزول الوحي عليه ﷺ في هذه الفترة.

قال رسول الله ﷺ: «جاورت بحراءٍ شهرًا فلمَّا قضيت جواري نزلت فاستبطنت بطن الوادي فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أرَ أحدًا، ثمَّ نوديت فنظرت فلم أرَ أحدًا، ثمَّ نوديت فرفعت رأسي فإذا هو علىٰ العرش في الهواء - يعني جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -، **فأخذتني رجفة شديدة، فأتيت خديجة فقلت: دثِّروني. فدثَّروني فصبُّوا عليَّ ماءً، فأنزل الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر: ١ - ٤]»[2].

وبدأت فترة التكليف بالدعوة، فأصبح محمدٌ نبيًّا بنزول سورة اقرأ عليه، وأصبح رسولًا بنزول سورة المدثر.

وامتثل رسول الله ﷺ أمر ربه بالقيام لإنذار الناس ودعوتهم إلىٰ التوحيد،

(١) انظر «دفاع عن الحديث النبوي» (ص٤٠).

(٢) رواه مسلم.

فعاش بقية حياته منفِّذًا لهذا الأمر الذي نزل عليه في أول أيام الرسالة: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢]، صلوات الله عليه، فعاش ثلاثةً وعشرين عامًا قائمًا من أجل هذه الآية وأمثالها في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا.

ويُستدلُّ هنا بحديث مشهور بين الناس، جاء فيه: «مضىٰ زمن النوم يا خديجة»، وهو حديث لا أصل له(١).

ونعود: بدأت المعركة بين الحق والباطل والإسلام والكفر من أول يوم عرف الناس ببعثته لهم نبيًّا ورسولًا ليُخرجهم من الظلمات إلىٰ النور.

وأمر الله نبيَّه ﷺ أن تكون دعوته في أول الأمر سرِّيَّة غير معلنة للناس كافَّة، فبدأت الدعوة كدعوة سرية في أول ثلاثة أعوام.

بدأت الدعوة في بيت النبوة؛ حيث كان أول من دُعِيَ إلىٰ الإسلام هي زوجه ﷺ خديجة - رضوان الله عليها - فآمنت به في أول لحظة دون أن يبدأها بالدعوة إلىٰ الإيمان به، بل كان منها ما مرَّ ذكره في بدء الوحي، فآمنت به وكانت له بمثابة العون الداخلي من داخل بيته الشريف ﷺ، وآمن ورقة بن نوفل وكان رجلًا كبيرًا أعمىٰ عندما أخبر الرسولَ ﷺ أن الذي نزل عليه هو عين ما نزل علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما آمن به زيد بن حارثة مولاه وخادمه، ثم آمن ابن عمه علي بن أبي طالب وكان صبيًّا، كما آمن به صديقه المقرَّب إليه عبد الله بن أبي قحافة المسمَّىٰ بعدُ بأبي بكرٍ الصديق، ثاني اثنين رضوان الله عليه.

---

(١) لن تجد له أصلًا في كتب السنة، ويبدو أن أول من نشره كان سيد قطب في كتابه «في ظلال القرآن»، ولعله كتبه من عند نفسه ليوضح ما فهمه من الآيات!

ونشط أبو بكرٍ في الدعوة إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا حتىٰ آمن علىٰ يديه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله. فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام.

وبدأ الإسلام يدخل كل بطنٍ من بطن قريش، وكأن الله أراد ألَّا تقوم قبيلة واحدة علىٰ أمر الدعوة فيسلم منها العدد الأكبر؛ فيظن الناس أنها دعوة قبلية، بل انتشر الإسلام سرًّا في أول الأمر في كل فروع قريش، بل خرجت الدعوة إلىٰ ما هو أبعد من قريش، خرجت بنشاط الرعيل الأول إذ تحمَّلوا همَّ الرسالة وانتشروا بها يدعون كل من يثقون فيهم إلىٰ التوحيد واتباع النبي محمد ﷺ، فعبد الله بن مسعود من هذيل، وعتبة بن غزوان من مازن، وأبو موسىٰ الأشعري من الأشعريين، وعمار بن ياسر من عنس، وزيد بن حارثة من كلب، والطفيل بن عمرو من دوس، وأبو ذر من غفار، وعمرو بن عبسة من سليم، وعامر بن ربيعة من عنز بن وائل، وصهيب النمري من بني النمر بن قاسط. فكان واضحًا من اليوم الأول أنها ليست دعوة قبلية ولا خاصة بمكان معين.

وحتىٰ جهر النبي ﷺ بالدعوة أسلم قرابة المائة شخص، فكانوا هم الرعيل الأول.

كان النبي ﷺ في أول الأمر في الدعوة السرية يأمر من آمن معه بعبادة الله وحده، فلم يكن هنالك من التشريعات ما نزل علىٰ النبي ﷺ بعدُ، غير أنه كان يعلِّمهم الصلاة، وكانوا يُصلُّون صلاةً قبل طلوع الشمس وأخرىٰ قبل الغروب.

وبدأت قريش تعرف أن هنالك ما يُدعىٰ له سرًّا، وبدءوا في تتبُّع المؤمنين بالإيذاء والتضييق، غير أن المشركين لم يكونوا مبالين بذلك؛ إذ لم يأمرهم الرسول ﷺ بشيء بعد، ولم يطالبهم أن يتركوا الآلهة الباطلة ويعبدوا الله وحده.

ومرَّت الثلاث سنوات، ونزل قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

فجمع النبي ﷺ قومه وعشيرته مرة بعد مرة، فقال: «**الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له**». ثم قال: «**إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة وإلىٰ الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبدًا أو النار أبدًا**».

فقال أبو طالب: ما أحبَّ إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقًا لحديثك! وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلىٰ ما تحب، فامضِ لما أمرت به، فوالله، لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني علىٰ فراق دين عبد المطلب.

فقال أبو لهب: هذه والله السوءة، خذوا علىٰ يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعه ما بقينا.

ثم صعد النبي ﷺ ذات يوم علىٰ الصفا، فعلا أعلاها حجرًا، ثم هتف: «**يا صباحاه**».

وكانت كلمة إنذار تخبر عن هجوم جيش أو وقوع أمر عظيم.

ثم جعل ينادي بطون قريش، ويدعوهم قبائل قبائل: «**يا بني فهر، يا بني عدي، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب**».

فلما سمعوا قالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فأسرع الناس إليه، حتىٰ إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولًا ليسمع ما يقوله النبي ﷺ.

فلما اجتمعوا قال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي بسَفْح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟**».

قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك كذبًا، ما جربنا عليك إلا صدقًا.

قال: «**إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأىٰ العَدُوَّ فانطلق يَرْبَأ أهله**» (أي يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع لئلا يدهمهم العدو؛ خشي أن يسبقوه فجعل ينادي: يا صباحاه).

ثم دعاهم إلىٰ الحق، وأنذرهم من عذاب الله، فخصَّ وعمَّ فقال:

«**يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا.**

يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، يا معشر بني قصي، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا.

يا معشر بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا.

يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار.

يا معشر بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغني عنكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم، لا أملك لكم من الله شيئًا.

يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئًا.

يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا.

يا فاطمة بنت محمد رسول الله، سليني ما شئت من مالي، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لك ضرًّا ولا نفعًا، ولا أغني عنك من الله شيئًا.

غير أن لكم رحمًا سأَبُلُّها بِبلَالها»؛ أي أصلُها حسب حقِّها.

ولمَّا تمَّ هذا الإنذار انفضَّ الناس وتفرَّقوا، ولا يذكر عنهم أي ردة فعل، سوىٰ أن أبا لهب واجه النبي ﷺ بالسوء، وقال: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

وبدأت الدعوة الجهرية في مكة، وأصبحت محاربة المشركين للنبي ﷺ وأتباعه علانية، ويُخطِّطون لها بنواديهم ومنتدياتهم.

دعوة الرسول لهم وتكذيبهم له!

والنبي ﷺ يطوف عليهم في أماكن تجمعهم يدعوهم إلىٰ الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن، فمنهم من يُسلم وأكثرهم يكفرون به ويستهزئون به - صلوات الله عليه -.

واقترب موسم الحج وعلمت قريش أن النبي ﷺ سيعرض دينه علىٰ الحجيج، فقرَّروا أن يُجهِّزوا ما سيقولونه للحجيج عن النبي ﷺ لينفِّروهم عن

دينه، فاجتمعوا واتفقوا علىٰ أن يقولوا: إنه ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرِّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

أما رسول الله ﷺ فخرج يتبع الناس في منازلهم وفي عُكَاظ ومَجَنَّة وذي المَجَاز، يدعوهم إلىٰ الله، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب.

وأدَّىٰ ذلك إلىٰ أن رجعت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها.

دفاع الله عن نبيه ﷺ:

وأخبر الله نبيه ﷺ أنه سيكفيه من يستهزئ به: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الحجر: ٩٥، ٩٦]، وأخبره أن ما يقولونه لك، وما يفعلونه معك؛ إنما فعله المشركون الأوائل مع الأنبياء والرسل من قبلك، فعاقبهم الله بما يستحقُّون من عقاب، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، فكان النبي ﷺ لا ينشغل بالدفاع عن نفسه، ولا ببيان أنهم يفترون عليه، وكان ينشغل فقط بالدعوة إلىٰ التوحيد وترك الأوثان والأصنام، وكان القرآن ينزل من عند الله جَلَّ وَعَلَا مدافعًا عنه كما نزل في سورة المسد ردًّا علىٰ أبي لهب، ولما قالوا: إن النبي تنزل عليه الشياطين! ردَّ الله عليهم قائلًا: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

إلىٰ غير ذلك من الآيات التي دافع الله فيها عن نبيه ورسوله ﷺ.

تعذيب المؤمنين الأوائل من قِبَل المشركين:

ثم اتفق المشركون علىٰ وسيلة جديدة لمحاربة الإسلام والتوحيد وهي أن كل كبير في قبيلته مسئول عن تعذيب من آمن بمحمد ﷺ حتىٰ يرجع عن دينه!

وكان من ذلك ما يعرفه القاصي والداني من تعذيب بلال وعثمان بن عفان وصهيب وعمار بن ياسر وأبيه وأمه، وكذا مصعب بن عمير، فكانت مكة حينها كالسجن الذي قد حُكم علىٰ سجنائه بالتعذيب حتىٰ الرِّدَّة أو الموت!

فعُذِّب ياسر - رضوان الله عليه - وزوجه وولده، وكان النبي يمُرُّ عليهم يقول لهم: «**صبرًا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة**»، ثم مات ياسر - رضوان الله عليه - من شدة التعذيب، وطعنَ أبو جهلٍ سمية زوجته في موطن عفتها؛ فماتت شهيدة فكانت أول شهيدة في الإسلام.

ثم شدَّدوا العذاب علىٰ عمار بن ياسر، فلمَّا لم يستطع له تحمُّلًا أصبح يقول لهم ما يريدون ليخفِّفوا عنه العذاب، وقلبه يتحسر علىٰ ما يقوله ظاهرًا وهو منكر له بقلبه، فنزل فيه قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦].

وكان أبو بكر يشتري من استطاع ممن آمن من العبيد ليرحمهم من العذاب الذي يلاقونه من المشركين، فاشترىٰ بلالًا واشترىٰ أبو فُكَيهة واسمه أفلح، وكان من أوائل من أسلم وعُذِّب في سبيل الله كثيرًا.

وكان خبَّاب بن الأرت مولًىٰ لأم أنمار بنت سِباع الخزاعية، وكان حدَّادًا، فلما أسلم عذَّبَتْه مولاته بالنار، كانت تأتي بالحديدة المحماة فتجعلها علىٰ ظهره أو رأسه؛ ليكفر بمحمد ﷺ، فلم يكن يزيده ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، وكان

المشركون أيضًا يعذِّبونه فيلوون عنقه، ويجذبون شعره، وقد ألقوه علىٰ النار، ثم سحبوه عليها، فما أطفأها إلا وَدَكُ ظهره.

وأما موقفهم من رسول الله ﷺ:

موقفهم من رسول الله ﷺ يتلخص في هاتين الروايتين:

عن محمَّد بن عقيلٍ، قال: «خطبنا عليُّ بن أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: أيُّها النَّاس أخبروني بأشجع النَّاس، قالوا: أو قال، قلنا: أنت يا أمير المؤمنين. قال: أما إنِّي ما بارزت أحدًا إلَّا انتصفت منه، ولكن أخبروني بأشجع النَّاس، قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إنَّه لمَّا كان يوم بدرٍ جعلنا لرسول الله ﷺ عريشًا فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ ليلًا ؟ [لكي لا] يهوي إليه أحد من المشركين فوالله، ما دنا منه إلَّا أبو بكرٍ شاهرًا بالسَّيف علىٰ رأس رسول الله ﷺ، لا يهوي إليه أحد إلَّا أهوىٰ عليه؛ فهذا أشجع النَّاس، فقال عليٌّ: ولقد رأيت رسول الله ﷺ، وأخذته قريش، فهذا يجؤه وهذا يتلتله وهم يقولون: أنت الَّذي جعلت الآلهة إلهًا واحدًا؟ قال: فوالله ما دنا منه أحد إلَّا أبو بكرٍ، يضرب هذا ويجاء هذا ويتلتل هذا، وهو يقول: ويلكم! أتقتلون رجلًا أن يقول: ربِّي الله! ثمَّ رفع عليٌّ بردةً كانت عليه فبكىٰ حتَّىٰ اخضلَّت لحيته، ثمَّ قال: أنشدكم بالله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكرٍ؟ فسكت القوم، فقال: ألا تجيبوني؟ فوالله لساعة من أبي بكرٍ خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون؛ ذاك رجل كتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه»[1].

(١) رواه البزار في «مسنده».

وعن عمرو بن ميمونٍ: «أنَّ عبد الله بن مسعودٍ حدَّثه أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يصلِّي عند البيت، وأبو جهلٍ وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعضٍ: أيُّكم يجيء بسلىٰ جزور بني فلانٍ فيضعه علىٰ ظهر محمَّدٍ إذا سجد؟ فانبعث أشقىٰ القوم فجاء به، فنظر حتَّىٰ إذا سجد النَّبيُّ ﷺ وضعه علىٰ ظهره بين كتفيه وأنا أنظر، لا أغيِّر شيئًا، لو كان لي منعة! قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم علىٰ بعضٍ، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتَّىٰ جاءته فاطمة، فطرحت عن ظهره، فرفع رأسه ثمَّ قال: «**اللَّهمَّ عليك بقريشٍ**». ثلاث مرَّاتٍ، فشقَّ عليهم إذ دعا عليهم – قال: وكانوا يرون أنَّ الدَّعوة في ذلك البلد مستجابة –، ثمَّ سمَّىٰ: «**اللَّهمَّ عليك بأبي جهلٍ، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأميَّة بن خلفٍ، وعقبة بن أبي معيطٍ**». وعدَّ السَّابع فلم يحفظه، قال: فوالَّذي نفسي بيده، لقد رأيت الَّذين عدَّ رسول الله ﷺ صرعىٰ في القليب قليب بدرٍ»[(١)].

وأرسل المشركون وفدًا لأبي طالب؛ لأنه كان يحوط النبي ﷺ ولا يستطيعون إيذاء الرسول ﷺ في وجوده، فطلبوا منه أن يأمر رسول الله ﷺ بألَّا يُسفِّه آلهتهم، وألَّا يصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا ترىٰ ولا تتكلَّم إلىٰ آخر ما وُصفت به الأصنام في كتاب الله جَلَّوَعَلَا وعلىٰ لسان نبيه، فرفض رسول الله ﷺ ذلك، وأخبرهم أن الأمر ليس من عنده، ولا يستطيع أن يكتم حرفًا أمره الله بتبليغه للناس كما لا يستطيع الواحد منهم أن يُشعل شعلة من الشمس.

---

(١) رواه البخاري.

ثم أرسلوا لأبي طالب مرة أخرىٰ من يهدِّده بالقتال، وبأن قريشًا ستنازله حتىٰ يهلك أحد الفريقين، فأرسل إلىٰ رسول الله ﷺ وطلب منه أن يترك بعض ما يأمر به حتىٰ يهدأ القوم؛ فقال له الرسول ﷺ قولته الشهيرة: «**لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري علىٰ أن أترك هذا الأمر ما تركته**»، فأنشد عمُّه يقول:

والله لـن يـصلوا إليـك بجَمْعِهِـم — حتـىٰ أُوَسَّـدَ في التـراب دفينـا

فاصـدع بـأمرك مـا عليـك غَـضَاضَة — وابْـشِرْ وقَـرَّ بـذاك منـك عيونـا

ومعلوم أن عمَّه أبا طالب ما أسلم وما ترك دين آبائه من المشركين، ولكنه كان يعرف أن محمدًا ما جاء بشيء من عند نفسه وإنما هو دين الله، فلم ينتفع بتصديقه للرسول ﷺ؛ لأنه ما ترك عبادة الأصنام أنفةً واستحياءً أن يترك دين أبيه، ومع ذلك كان يدافع عن رسول الله ﷺ؛ لأنه يعلم أنه ليس كذابًا ولأنه ابن أخيه.

وفي ذلك أحاديث صحيحة يوضح فيها رسول الله ذلك توضيحًا لا لبس فيه.

وكان النبي ﷺ يجتمع مع المسلمين في دار الأرقم، وهي في أصل الصفا بعيدًا عن أعين المشركين، فكان النبي ﷺ مع جهره بالدعوة وتحمُّله الأذىٰ من المشركين إلا أنه كان يخاف علىٰ المسلمين من أذىٰ المشركين؛ فكان يجتمع بهم سرًّا يتلو عليهم القرآن ويعلمهم الدين ويجهر هو بالدعوة أمام كفار قريش؛ لأنه مأمور بذلك صلوات الله عليه.

❀❀❀

فصل في الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة

وفي أوساط السنة الخامسة من بعثة النبي ﷺ ازداد أذىٰ المشركين للمؤمنين بالله ورسوله ﷺ؛ فنزل قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وأخبر النبي ﷺ أصحابه أن في الحبشة ملكًا لا يُظلم عنده أحد.

وفي رجب سنة خمس من النبوَّة هاجر أول فوج من الصحابة إلىٰ الحبشة. كان مكوَّنًا من اثني عشر رجلًا وأربع نسوة، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وقد روي أن النبي ﷺ قال فيهما: «**إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام**».

العودة من الهجرة الأولى:

خرج النبي ﷺ إلىٰ بيت الله الحرام، وكان فيه جمع كبير من المشركين، وكان ذلك في رمضان من السنة الخامسة؛ أي بعد الهجرة إلىٰ الحبشة بشهرين تقريبًا، وقرأ النبي ﷺ علىٰ المشركين سورة النجم حتىٰ وصل إلىٰ قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ [النجم: ٦٢].

فسجد المشركون جميعًا لما سمعوا هذه الآية الكريمة والآيات التي قبلها، ولكنهم ما آمنوا وما رجعوا عن غيِّهم بعدما قاموا من سجودهم.

وخرجت شائعة من مكة تقول: إن المشركين كلهم آمنوا بالله وبرسوله ﷺ،

حتىٰ وصلت إلىٰ المهاجرين في أرض الحبشة؛ فرجعوا ظنًّا منهم أن المحنة قد رُفعت، فكانت الصدمة أن القوم علىٰ كفرهم وعنادهم قائمون!

العودة إلى أرض الحبشة مرة أخرى:

وجهَّزوا للهجرة إلىٰ الحبشة مرة أخرىٰ، ولكن علىٰ نطاق أوسع؛ فهاجر ثلاثة وثمانون رجلًا وثماني عشرة امرأة، وحاولت قريشٌ أن يمنعوهم من الهجرة ويمسكوا بهم ليعذبوهم فلم يُدركوهم، فلم تستسلم قريش لذلك، بل أرسلت إلىٰ ملك الحبشة من يُهيِّجه علىٰ المؤمنين لكي يردَّهم إلىٰ مكة مرة أخرىٰ ليستكملوا مخطَّط التعذيب ليردُّوهم عن دينهم، ولكنهم لم يفلحوا، منعهم من ذلك عدل النجاشي ملك الحبشة، وأنه لم يقبل منهم الهدايا التي أرادوا أن يُغروه بها، بالإضافة إلىٰ أنه آمن بما سمع من المؤمنين لما قرءوا عليه سورة مريم، لكنه كتم إيمانه لأنه ما استطاع أن يُقنع القساوسة الذين كانوا يديرون معه الحكم، فالحبشة كانت بلدة نصرانية وللقساوسة فيها وضع وقوة.

ازداد ضعف المسلمين في مكة بعد الهجرة إلىٰ الحبشة، بسبب قلَّة عددهم، لا سيما بعدما هاجر قرابة المائة من المسلمين، فكان من بقي من المسلمين إما ذا منعة وقوة في قومه تمنعهم من محاربته أو كان في جوار أحد من المشركين.

إسلام حمزة بن عبد المطلب عم النبي وأخوه من الرضاعة:

وسبب إسلامه: أن أبا جهل مرَّ برسول الله ﷺ يومًا عند الصفا فآذاه ونال منه، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلِّمه، ثم ضربه أبو جهل بحجر في رأسه فَشَجَّهُ حتىٰ نزف منه الدم، ثم انصرف عنه إلىٰ نادي قريش عند الكعبة، فجلس معهم،

وكانت مولاة [جارية] لعبد الله بن جُدْعَان في مسكن لها علىٰ الصفا ترىٰ ذلك، وأقبل حمزة من القَنْص مُتَوَشِّحًا قوسه، فأخبرته المولاة [أي: الجارية] بما رأت من أبي جهل، فغضب حمزة - وكان أعزَّ فَتًىٰ في قريش وأشدَّهم شَكِيمة - فخرج يسعىٰ، لم يقف لأحد؛ مُعِدًّا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد قام علىٰ رأسه، وقال له: يا مُصَفِّرَ اسْتِهِ، تشتم ابن أخي وأنا علىٰ دينه؟! ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة، فثار رجال من بني مخزوم - حي أبي جهل -، وثار بنو هاشم - حي حمزة -، فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة؛ فإني سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا.

ثم ازداد إيمانه وقوي يقينه - رضوان الله عليه -، واشتدَّ دفاعه عن رسول الله ﷺ حتىٰ سُمِّيَ بأسد الله.

إسلام عمر بن الخطاب رضوان الله عليه:

وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم! أعزَّ الإسلام بأحبِّ الرجلين إليك: أبي جهل بن هشام أو عمر بن الخطاب»[١].

وجاء عنه ﷺ أيضًا؛ أنه قال: «**اللهم! أعزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب خاصةً**»[٢].

وعن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**اللهم أعزَّ الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب** - قال: وكان أحبهما إليه عمر -»[٣].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) صححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

(٣) صححه الألباني في «صحيح الترمذي».

فأسلم عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه -، وكان قبل إسلامه شديد الإيذاء للمؤمنين، غير أن الله شرح صدره للإسلام فأسلم، وقصته طويلة ومشهورة، ولعلَّنا نوردها في كتاب «فضل جيل الصحابة» إن شاء الله رب العالمين.

كان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يقول**: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتىٰ أسلم عمر.

وعن صهيب بن سنان الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال**: لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودُعِيَ إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به.

مفاوضات فاشلة من قِبَلِ المشركين:

لما أعزَّ الله المسلمين بالأسد والفاروق علمت قريش أنه لا بدَّ من المفاوضة، وأن الاضطهاد والتعذيب لن يُجدي شيئًا.

فأرسلوا عتبة بن ربيعة إلىٰ رسول الله - عليه الصلاة والسلام - يفاوضه ليتنازل عن بعض ما جاء به مقابل المال أو الملك، فقرأ النبي ﷺ آيات من سورة فصلت، فعلم عتبة أن النبي لن يتنازل عن شيء مما جاء به، وأن الأمر من عند الله، فرجع إلىٰ قومه ينصحهم أن يتركوا النبي ﷺ وشأنه خشية أن ينزل عليهم عقاب من السماء، فاتَّهموه بأنه قد سُحر من قِبل النبي ﷺ، وقرَّروا أن يجتمعوا - أي رؤساء القبائل - ويَعرضوا هم الأمرَ علىٰ النبي ﷺ.

وبالفعل اجتمعوا عند الكعبة وأرسلوا إلىٰ النبي ﷺ وعرضوا عليه ما يريدون، فأخبرهم أنه لا يريد مالًا ولا ملكًا ولا شيئًا، وأنه لا يملك من أمر الدعوة شيئًا إلا امتثال ما أمره الله به.

فلما أعجزهم ردُّه ﷺ طلبوا منه من المستحيلات ما يظنُّون أنه سيُحاول فعله فلا يستطيع، وبذلك تكون نهاية دعوته، ولكنه أجابهم أن الآيات والمعجزات تأتي من عند الله عَزَّوَجَلَّ ليس من عند نفسه ﷺ، وأن الله لو أراد أن يُحيي الموتىٰ، أو ينقل لهم الجبال، أو يُنزل عليهم عذابًا من عنده؛ لفعل سبحانه.

فهدَّدوه ﷺ تهديدًا شديدًا، فرجع رسول الله حزينًا لتكذيبهم له وعنادهم للحق.

وحاول بعضهم بالفعل قتلَ رسول الله ﷺ ولكن لم يُفلحوا، وقصة أبي جهل في ذلك مشهورة عندما أراد أن يضع الحجر علىٰ رأسه ﷺ ليقتله به، فرأىٰ فحلًا من إبل عظيم الحجم لم يُرَ مثله قطُّ فرجع خائبًا. وغير هذه المحاولة الكثير، لكن الله حفظ رسوله من تسلُّط البشر عليه.

ولما ازدادت محاولاتهم قتلَه ﷺ جمع أبو طالب عمُّ النبي ﷺ بني هاشم وبني عبد المطلب، جمع مسلمهم ومشركهم وطلب منهم حماية رسول الله ﷺ من أذىٰ غيرهم من أهل قريش، فوافقوا علىٰ ذلك واجتمعوا علىٰ أن يدافعوا عنه.

فلم يجد المشركون بُدًّا من مقاطعة بني هاشم مقاطعة اجتماعية وتجارية؛ كرد فعلٍ علىٰ أمر أبي طالبٍ لقومه بأن يدافعوا عن النبي ﷺ.

حصار المؤمنين في شعب أبي طالب:

وكتب المشركون وثيقة وجعلوها داخل الكعبة يتعهَّدون فيها بمقاطعة المؤمنين ومقاطعة بني هاشم؛ لأنهم يدافعون عنهم، وألَّا يتزوجوا منهم ولا يبيعوا لهم ولا يشتروا منهم ولا يتعاملوا معهم بأي معاملة كانت، حتىٰ إنهم كتبوا في وثيقتهم ألَّا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتىٰ

يسلموا رسول الله ﷺ للقتل!

تمَّ هذا الميثاق وعُلِّقت الصحيفة في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب؛ مؤمنهم وكافرهم - إلا أبا لهب -، وحبسوا في شعب أبي طالب، وذلك - فيما يقال - ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة.

واشتدَّ الأمر علىٰ المؤمنين في الحصار فلم يجدوا ما يأكلونه حتىٰ أكلوا أوراق الشجر! وظل الأمر علىٰ ذلك حتىٰ مرَّت ثلاثة أعوام علىٰ المؤمنين وبني هاشم وبني عبد المطلب، وهم يعانون من الجوع والحصار الاجتماعي.

ذكر فك الحصار عن المؤمنين ومن والاهم:

وفي ظل هذه الأجواء اجتمع هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي وكان من المشركين، اجتمع مع رجلٍ من المشركين وقال له: كيف نأكل ونشرب وأخوالنا من بني هاشم يجوعون في الشِّعْبِ؟! فقال: وأنا لا أرضىٰ بذلك ولكن كيف نصنع ونحن رجلان؟! فظل يتكلم بين من يعرفهم بالعقل حتىٰ اجتمع بأربعة نفر واتفقوا جميعًا علىٰ أن ينقضوا الوثيقة.

فأصبحوا فطافوا بالبيت واجتمعوا مع المشركين عند البيت، وتكلَّم من الخمسة زهير بن أبي أمية وقال: يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكىٰ، لا يباع ولا يبتاع منهم؟! والله لا أقعد حتىٰ تشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فقال أبو جهل: لا، لن تنقض الصحيفة.

فلما تدخل بقية الخمسة في الكلام وتكلَّموا بما يريدون قال أبو جهل: إنما

اجتمعتم سرًّا واتفقتم علىٰ ذلك، وفي ظل هذا الحوار الملتهب كان أبو طالب قد جلس بجوار البيت، وكان النبي ﷺ قد أخبره أن الله أرسل الأرضة [أي: القوارض] علىٰ الصحيفة فأكلتها كلها إلا ذكر الله فيها.

فأخبرهم بذلك أبو طالب وقال: ادخلوا فانظروا فيها، فإن كان محمد كاذبًا أسلمناه لكم، وإن كان صادقًا رجعتم عن قطيعتنا وظلمنا، فقالوا: أنصفت.

ودخلوا إلىٰ الصحيفة فإذا بها كما وصفها أبو طالب؛ ليس فيها إلا: «باسمك اللهم»؛ فانتهىٰ الحصار وخرج المسلمون من الشعب، بعدما رأت قريشٌ معجزة من معجزات الرسول ﷺ.

بعدما جاوز المسلمون مرحلة الحصار وجاوزها معهم أبو طالب عمُّ الرسول ﷺ كان قد بلغ من العمر ثمانين عامًا تقريبًا، وعلمت قريش أنه قد كبر سنه وربما يموت في أي لحظة، وكانوا يخافون أن يموت ثم يخرج منهم ما يسوء تجاه رسول الله ﷺ فتقول العرب عنهم أنهم تركوا محمدًا فلما مات عمه تناولوه!

فأرسلوا وفدًا إلىٰ أبي طالب وكان مريضًا وهو الوفد الأخير، ودخلوا علىٰ أبي طالب فقالوا: لقد نزل بك ما نزل وإنا لنريد منك أن تأخذ منا ما لابن أخيك وتأخذ منه ما لنا.

يريدون بذلك أن يحكم هو بينهم في حياته ويقدموا هم بعض التنازلات ليُقدم لهم رسول الله ﷺ أيضًا بعض التنازلات!

فأرسل أبو طالب لرسول الله ﷺ ليسمع من وفد قريش ما يقولون، فلما سمع قال لهم ﷺ: «**ألا أخبركم بما هو أفضل من ذلك؟**»، قالوا: نعم، قال:

«**كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم**»، فلما قال هذه المقالة توقَّفوا وتحيَّروا ولم يعرفوا كيف يرفضون هذه الكلمة الواحدة النافعة إلىٰ هذه الغاية والحد.

ثم قال أبو جهل: ما هي؟ وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها.

قال ﷺ: «**تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه**».

فصفَّقوا بأيديهم، ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟!

ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئًا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا علىٰ دين آبائكم، حتىٰ يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا.

❊❊❊

فصل في عام الحزن

وعقب فك الحصار في السنة العاشرة أحداث حزينة علىٰ رسول الله ﷺ وعلىٰ المؤمنين؛ لأنهم كانوا يحزنون لحزنه ﷺ كما يفرحون لفرحه - ﷺ ورضوان الله عليهم أجمعين -.

تُوفي عمُّه أبو طالب والذي كان يُمثِّل له المنعة والحماية البشرية وحائط الصدِّ الذي يخافه مشركو قريش بسبب نسبه ومكانته فيهم.

عن سعيد بن المسيب، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «لما حضرتْ أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أُميَّة بن المُغيرَة، فقال رسول الله ﷺ: «**يا عمِّ، قُلْ: لا إله إلا الله. كلمةً أشهدُ لكَ بها عند الله**»؛ فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُميَّة: «يا أبا طالب، أترغبُ عن مِلَّةِ عبد المطَّلِب؟!». فلم يَزَل رسول الله ﷺ يَعرضها عليه، ويُعيد له تلك المقالة، حتَّىٰ قال أبو طالب آخرَ ما كلَّمهم: «هو علىٰ مِلَّةِ عبد المطَّلِب»، وأَبَىٰ أن يقول: لا إله إلا الله؛ فقال رسول الله ﷺ: «**أَمَا والله لأستغفِرَنَّ لكَ، ما لم أُنْهَ عنكَ**»؛ فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله تعالىٰ في أبي طالب، فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

 [القصص: ٥٦]»[1].

فمات أبو طالب علىٰ دين آبائه وشفع له رسول الله ﷺ عند الله؛ لأنه كان يحوطه ويحمي دعوته، فقبل الله شفاعة نبيه ﷺ وخفَّف له العذاب، لكنه لن يدخل الجنة لأن الله حرمها علىٰ الكافرين.

عن العبَّاس بن عبد المطَّلِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنه قال للنبيِّ ﷺ: «ما أغنيتَ عن عَمِّكَ؛ فإنه كان يَحُوطُكَ ويغضبُ لكَ؟»، قال: «**هو في ضَحْضَاحٍ من نارٍ** [أي: في نار تبلغ كعبيه]، **ولولا أنا لكان في الدَّرْكِ الأسفلِ من النَّار**»[2].

وبعد وفاة عمِّه أبي طالب تُوفيت زوجته خديجة - رضوان الله عليها - والتي كانت تمثل له البيت الهادئ الذي يعود إليه بعد ما يعانيه من المشركين في الخارج، يرجع إلىٰ بيته حيث الزوجة المؤمنة الصالحة الطيبة، فحزن رسول الله ﷺ حزنًا شديدًا حتىٰ سُمِّيَ هذا العام بعام الحزن.

واشتدَّ تسلُّط المشركين علىٰ المؤمنين حتىٰ إن أبو بكر الصديق قرَّر الهجرة إلىٰ الحبشة من شدة ما يجد من المشركين، ولكن أحد المشركين وهو ابن الدغنة ردَّه وهو في طريق الهجرة وجعله في جواره [يعني يجيره من المشركين ويحميه].

قال ابن إسحاق: لما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذىٰ ما لم تطمع به في حياة أبي طالب، حتىٰ اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر علىٰ رأسه ترابًا، ودخل بيته والتراب علىٰ رأسه، فقامت إليه إحدىٰ بناته،

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: «**لا تبكي يا بنية؛ فإن الله مانعٌ أباك**».

❊❊❊

فصل في الدعوة إلى التوحيد خارج مكة

خرج النبي ﷺ إلىٰ الطائف يدعوهم إلىٰ الله، وهي علىٰ بُعد ستين ميلًا من مكة، وكلَّما مرَّ علىٰ قبيلة دعاها إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا، ثم مكث في الطائف عشرة أيام يدعو كل من يجالسه من أشرافها ورجالها، فلم يؤمن به من الطائف إلا غلامٌ نصرانيٌ اسمه عداس، كان مولًىٰ عند واحد من المشركين في الطائف، وخرج النبي حزينًا بعدما هيَّجوا عليه سفهاءهم وأطفالهم يُلقونه بالحجارة، صلوات الله عليه.

فعن عروة بن الزبير؛ أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتىٰ عليك يوم كان أشدَّ عليك من يوم أحد؟ قال: «**لقيت من قومكِ ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي علىٰ ابن عبد يالِيل بن عبد كُلَال، فلم يجبني إلىٰ ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - علىٰ وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقَرْنِ الثعالب** - وهو المسمَّىٰ بقَرْنِ المنازل - **فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداني ملك الجبال، فسلَّم عليَّ ثم قال: يا محمد، ذلك فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين** - أي لفعلت، والأخشبان: هما جبلا مكة: أبو قُبَيْس، والذي يقابله، وهو قُعَيْقِعَان - قال النبي ﷺ: **بل أرجو أن يخرج الله**

عَزَّوَجَلَّ **من أصلابهم من يعبد الله** عَزَّوَجَلَّ **وحده لا يشرك به شيئًا**»[١].

فكان النبي ﷺ بعد السنة الرابعة من البعثة يستقبل الوفود التي تأتي إلىٰ مكة حاجَّة أو معتمرة، ويعرض عليها الإسلام من السنة الرابعة حتىٰ قبيل هجرته الشريفة إلىٰ المدينة.

فعرض النبي ﷺ الإسلام علىٰ القبائل، وعلىٰ الأفراد، وآمن به من خارج قريش من آمن، ولكن الكثرة الكثيرة لم تؤمن به ﷺ.

❁❁❁

---

(١) رواه البخاري.



فصل في الإسراء والمعراج

بعدما وقع ما وقع من تكذيب المكذبين له واستضعافهم للمؤمنين به ﷺ وموت عمه وزوجه، وخروجه إلىٰ الطائف داعيًا أهلها إلىٰ الإسلام فلم يؤمنوا به ﷺ، كانت واقعة الإسراء والمعراج.

وبدأت بشقِّ صدر الرسول ﷺ للمرة الثانية؛ فعن أنس بن مالك بن صعصعة أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما أنا بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلًا يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأُتيت بطست ملئ حكمة وإيمانًا، فشق من النحر إلىٰ مَراقِّ البطن، ثم أخرج القلب، فغسل بماء زمزم، وملئ حكمة وإيمانًا.**

وأتيت بدابة - دون البغل وفوق الحمار - أبيض، يقال له: البراق...»[(١)]، ثم ذكر ما وقع في الإسراء والمعراج.

قال شيخ الإسلام ابن القيم - رحمة الله عليه - في «زاد المعاد»:

«ثمّ أُسري برسول الله ﷺ - بجسده علىٰ الصّحيح - من المسجد الحرام إلىٰ بيت المقدس راكبًا علىٰ البراق صحبة جبريل - عليهما الصّلاة والسّلام -، فنزل وصلّىٰ بالأنبياء إمامًا، وربط البراق بحلقة باب المسجد. وقد قيل: إنّه نزل ببيت لحمٍ وصلّىٰ فيه. ولم يصحّ ذلك عنه البتّة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

ثمّ عرج به تلك اللّيلة من بيت المقدس إلىٰ السّماء الدّنيا، فاستفتح له جبريل ففتح له، فرأىٰ هنالك آدم أبا البشر فسلّم عليه، فردَّ عليه السلامَ ورحّب به وأقرّ بنبوّته، وأراه الله أرواح السّعداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره. ثمّ عرج به إلىٰ السّماء الثّانية، فاستفتح له فرأىٰ فيها يحيىٰ بن زكريّا وعيسىٰ ابن مريم، فلقيهما وسلّم عليهما، فردّا عليه ورحّبا به وأقرّا بنبوّته، ثمّ عرج به إلىٰ السّماء الثّالثة فرأىٰ فيها يوسف فسلّم عليه، فردّ عليه ورحّب به وأقرّ بنبوّته، ثمّ عرج به إلىٰ السّماء الرّابعة فرأىٰ فيها إدريس، فسلّم عليه ورحّب به وأقرّ بنبوّته، ثمّ عرج به إلىٰ السّماء الخامسة فرأىٰ فيها هارون بن عمران، فسلّم عليه ورحّب به وأقرّ بنبوّته، ثمّ عرج به إلىٰ السّماء السّادسة فلقي فيها موسىٰ بن عمران، فسلّم عليه ورحّب به وأقرّ بنبوّته، فلمّا جاوزه بكىٰ موسىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأنّ غلامًا بُعث من بعدي يدخل الجنّة من أمّته أكثر ممّا يدخلها من أمّتي. ثمّ عرج به إلىٰ السّماء السّابعة فلقي فيها إبراهيم، فسلّم عليه ورحّب به وأقرّ بنبوّته، ثمّ رُفع إلىٰ سدرة المنتهىٰ، ثمّ رفع له البيت المعمور، ثمّ عرج به إلىٰ الجبَّار جَلَّجَلَالُهُ فدنا منه حتَّىٰ كان قاب قوسين أو أدنىٰ، فأوحىٰ إلىٰ عبده ما أوحىٰ، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتىٰ مرَّ علىٰ موسىٰ فقال له: **بِمَ أُمِرْتَ**؟ قال: **بخمسين صلاةً، قال: إنّ أمّتك لا تطيق ذلك، ارجع إلىٰ ربّك فاسأله التّخفيف لأمّتك**. فالتفت إلىٰ جبريل كأنّه يستشيره في ذلك، فأشار أن نعم إن شئت؛ فعلا به جبريل حتّىٰ أتىٰ به الجبّار تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وهو في مكانه.

هذا لفظ البخاريّ في بعض الطّرق: فوضع عنه عشرًا، ثمّ أنزل حتىٰ مرّ

بموسىٰ فأخبره، فقال ارجع إلىٰ ربِّك فاسأله التَّخفيف. فلم يزل يتردّد بين موسىٰ وبين الله عَزَّوَجَلَّ حتىٰ جعلها خمسًا، فأمره موسىٰ بالرّجوع وسؤال التّخفيف؛ فقال: «**قد استحييت من ربّي ولكن أرضىٰ وأسلّم**»، فلمَّا بُعد؛ نادىٰ منادٍ: **قد أمضيت فريضتي وخفَّفت عن عبادي**.

فلمَّا أصبح رسول الله ﷺ في قومه أخبرهم بما أراه الله عَزَّوَجَلَّ من آياته الكبرىٰ، فاشتدّ تكذيبهم له وأذاهم وضراوتهم عليه، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس؛ فجلَّاه الله له حتّىٰ عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته ولا يستطيعون أن يردّوا عليه شيئًا. وأخبرهم عن عيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الّذي يقدمها، وكان الأمر كما قال، فلم يزدهم ذلك إلّا نفورًا وأبىٰ الظّالمون إلّا كفورًا»[١].

❀❀❀

(١) «زاد المعاد في هدي خير العباد»، صفحة (٣٠) وما بعدها.

فصل في بيعة العقبة الأولى والثانية

قال ابن إسحاق: فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه، وإنجاز موعده له؛ خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه علىٰ قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم.

فبينا هو عند العقبة لقي رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيرًا. فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه، قالوا: لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «**من أنتم؟**». قالوا: نفر من الخزرج. قال: «**أمن موالي يهود؟**» قالوا: نعم. قال: «**أفلا تجلسون أكلِّمكم؟**»، قالوا: بلىٰ.

فجلسوا معه ﷺ، فدعاهم إلىٰ الله وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

قال: وكان ممَّا صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا: إن نبيًّا مبعوثٌ الآن قد أظل زمانه نتبعه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلىٰ الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه.

فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأنْ صدقوه وقَبِلوا منه ما عَرَض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرِّ ما بينهم،

وعسىٰ أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلىٰ أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدِّين، فإنْ يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.

ثم انصرفوا راجعين إلىٰ بلادهم قد آمنوا وصدقوا.

وأسماؤهم كما يلي:

١ - أسعد بن زُرَارة - وهو أول من صلَّىٰ بالناس الجُمُعة في المدينة النبويَّة قبل هجرة رسول الله ﷺ كما ذكر ابن إسحاق [من بني النجار].

٢ - عوف بن الحارث بن رفاعة ابن عَفْراء [من بني النجار].

٣ - رافع بن مالك بن العَجْلان [من بني زُرَيْق].

٤ - قُطْبَة بن عامر بن حديدة [من بني سلمة].

٥ - عُقْبَة بن عامر بن نابي [من بني حَرَام بن كعب].

٦ - جابر بن عبد الله بن رِئاب [من بني عبيد بن غَنْم].

❊❊❊

بيعة العقبة الأولى

وفي العام التالي - العام الثاني عشر من البعثة - جاء خمسة من السِّتَّة الذين آمنوا برسول الله ﷺ من الخزرج، وأما جابر بن عبد الله فلم يأتِ معهم، وجاء مع الخمسة سبعةٌ آخرون قد آمنوا بالله ورسوله ﷺ، وهم:

١ - معاذ بن الحارث ابن عفراء، من بني النجار [من الخزرج].

٢ - ذَكْوَان بن عبد القيس، من بني زُرَيْق [من الخزرج].

٣ - عبادة بن الصامت، من بني غَنْم [من الخزرج].

٤ - يزيد بن ثعلبة، من حلفاء بني غنم [من الخزرج].

٥ - العباس بن عُبَادة بن نَضْلَة، من بني سالم [من الخزرج].

٦ - أبو الهَيْثَم بن التَّيِّهَان، من بني عبد الأشهل [من الأوس].

٧ - عُوَيْم بن ساعدة، من بني عمرو بن عَوْف [من الأوس].

روىٰ البخاري عن عبادة بن الصامت؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**تبايعوني علىٰ ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف؛ فمن وفىٰ منكم فأجره علىٰ الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا؛ فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله، فأمره إلىٰ الله؛ إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا**

عنه». قال: فبايعناه علىٰ ذلك»[١].

وبعد أن بايعوا رسول الله ﷺ علىٰ ما مَرَّ ذكرُه، أرسل معهم مصعب بن عمير - رضوان الله عليه - يقرأ عليهم وعلىٰ من خلفهم في يثرب القرآنَ الكريمَ، ويعلِّمهم ما تعلَّمه من سنَّة النبي الكريم ﷺ.

والآن أصبح للإسلام مركز جديد وإن كان رسول الله ﷺ ما زال في مكة، إلا أنه كان مُحارَبًا بها من أهلها، وأما يثرب فقد أقبلت بأبنائها من الأوس والخزرج مسلمين لله ربِّ العالمين، حتىٰ إنه بتعليم مصعب لأبنائها أقام فيهم أسعد بن زرارة أول جمعة، فأُذن للجمعة واجتمع أربعون رجلًا يُصلُّون الجمعة في صلاة مُعلنة، ربما لم يستطع المسلمون في مكة أن يقيموا لهم جمعة ولا جماعة تحت مرأىٰ ومسمع من أهل مكة.

وقد روىٰ ابن إسحاق أن كعب بن مالك كان يستغفر لأسعد بن زرارة كلما سمع أذان الجمعة إلىٰ أن مات - رضوان الله عليه -، فلما سأله ولده؛ قال: لأنه هو أول من صلَّىٰ بنا الجُمُعة في الإسلام في مدينة رسول الله ﷺ.

❁❁❁

---

(١) رواه البخاري.

فصل في إقبال أهل يثرب على الإسلام

لما أرسل رسول الله ﷺ مصعب بن عمير إلىٰ أهل يثرب ليعلِّمهم القرآن وما تعلَّمه من السنَّة؛ نزل علىٰ أسعد بن زُرَارة، وأخذا في دعوة أهل المدينة إلىٰ الإسلام.

ذكر ابن إسحاق عمن سمَّىٰ من شيوخه، أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر، فدخل به حائطًا من حوائط بني ظفر فجلسا فيه، واجتمع إليهما رجال ممَّن أسلم.

فلما سمع بذلك سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، وهما يومئذ سيدا قومهما بني عبد الأشهل، وكلاهما مشركٌ علىٰ دين قومه؛ فلما سمعا بهما قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك! انطلق إلىٰ هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفِّها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا إلينا؛ فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منِّي حيث قد علمت كفيتك ذلك [هو ابن خالتي].

فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب: هذا سيِّد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه.

قال: فوقف عليهما مُتَشَتِّمًا فقال: ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا! اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع؛ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره.

قال: أنصفت. ثم ركَّز حربته وجلس إليهما، فكلَّمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن، فقالا - فيما ذُكر عنهما -: والله لعرفنا في وجهه الإسلامَ قبل أن يتكلَّم في إشراقه وتسهله.

ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدِّين؟ قالا له: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبيك، ثم تتشهد شهادة الحق ثم تصلِّي.

فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إنَّ ورائي رجلًا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن: سعد بن معاذ.

ثم انصرف إلىٰ سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلًا قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيدٌ بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما وقف علىٰ النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت. وقد حدثت أن بني حارثة خرجوا إلىٰ أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك؛ ليخفروك.

فقام سعد مغضبًا مبادرًا متخوفًا للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا.

ثم خرج إليهما فلما رآهما مطمئنين عرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتمًا ثم قال: يا أبا أمامة، والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟!

وقد قال أسعد لمصعب بن عمير: أي مصعب، جاءك والله سيدُ مَنْ وراءه

مِنْ قومه، إن يتبعك لا يتخلَّف عنك منهم اثنان.

فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؛ فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره.

قال سعد: أنصفت ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن.

قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم؛ لإشراقه وتسهله. ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟

قالا: تغتسل فتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين.

فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه وتشهَّد شهادة الحق وركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عامدًا إلىٰ نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلًا قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعدٌ بغير الوجه الذي ذهب به.

فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم حرامٌ عليَّ حتىٰ تؤمنوا بالله ورسوله.

قال: فوالله ما أمسىٰ في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلَّا مسلمًا أو مسلمة، ورجع مصعب إلىٰ منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلىٰ الإسلام، حتىٰ لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

❀❀❀

فصل في بيعة العقبة الثانية (الكبرى)

وفي موسم الحج من السنة الثالثة عشرة من البعثة رجع الأنصار متمنِّين أن يأتي معهم رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة، وكانوا بضعًا وسبعين نفسًا من الأنصار من الأوس والخزرج.

اجتمع المؤمنون من الأنصار في آخر أيام الحج ليلًا بعدما نام المشركون الذين كانوا قد خرجوا معهم من يثرب للحجِّ، بعدما نام المشركون قام المؤمنون للقاء رسول الله ﷺ في المكان المتفق عليه.

وتمَّ اختيار اثنتي عشر نقيبًا من الأنصار ليأخذ النبيُّ ﷺ عهدًا عليهم فوق العهد المأخوذ علىٰ المبايعين جميعًا؛ إذ هم القادة المختارون لمن بايع.

وبايعهم النبيُّ ﷺ «**علىٰ السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلىٰ النفقة في العسر واليسر، وعلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلىٰ أن تقوموا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم، وعلىٰ أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة**».

وتمَّت البيعة، وعلم بها صناديد قريش وحاولوا أن يمنعوها، ولكنهم علموا بها بعد تمامها.

واتفق النبي ﷺ مع الأنصار أن يهاجر إليهم.



فصل في قوافل الهجرة إلى يثرب

بدأ الأصحاب بعدما علموا ببيعة الأنصار لرسول الله ﷺ أن يتوافدوا علىٰ المدينة مهاجرين؛ فهاجر أبو سلمة، وهاجر صهيب الرومي، وهاجر عمر بن الخطاب.

ومن الصحابة من كان إذا هَمَّ بالهجرة حبسه المشركون في مكة، ومنهم من لم يستطع أن يهمَّ بالهجرة بسبب العذاب الواقع عليه من صناديد الكفر في مكة.

ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلىٰ المدينة، وتجهَّز أبو بكر قِبَل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «**علىٰ رِسْلِك، فإني أرجو أن يؤذن لي**»، فقال له أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت؟ قال: «**نعم**».

فانتظر أبو بكر الصديق - رضوان الله عليه - أن يهاجر مع رسول الله ﷺ.

فصل في ردة فعل قريش على طلائع الهجرة

اجتمع المشركون ليتباحثوا في المصيبة التي حلَّت بهم، كيف يخرج أتباع محمد ﷺ إلىٰ يثرب ويوشك أن يخرج إليهم، فتقوم لهم بها دولة، مما يُعرضهم للخطر؛ فإما أن تقوىٰ شوكته فيرجع فاتحًا بلادهم رغم أنوفهم، وإما أن يُهدِّد وجودُه في يثرب تجارتَهم التي تمرُّ بيثرب ذاهبة إلىٰ الشام وراجعةً منها.

فاجتمعوا في دار ندوتهم يتباحثون، وحضر الشيطان هذه الندوة متجسدًا في هيئة رجلٍ عجوز يزعم أنه من أهل نجد.

وبعد عدة حلول قد رُفضت كلُّها عرض أبو جهل بن هشام حلًّا ارتضاه الشيطان الرجيم، وهو أن ينتدبوا شابًّا قويًّا من كل قبيلة، فيجتمعوا علىٰ قتل محمد ﷺ فيتفرَّق دمه في القبائل، فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا جميع القبائل، فيوافقوا علىٰ قبول الدية فيه وينتهي الأمر.

❊❊❊❊

فصل في الهجرة النبوية إلى المدينة

بعدما مكرت قريشٌ مكرها وأبرمت أمرها، وظنُّوا أنهم في معزلٍ عن رسول الله، وأنه لن يعرف عن مخططهم شيئًا؛ أنزل الله جَلَّ وَعَلَا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ محمد ﷺ وأخبره بما وقع، وأذن له بالهجرة إلىٰ المدينة.

فذهب النبيُّ ﷺ في الهاجرة – أي: في وقت القيلولة، وهو وقت شديد الحرِّ يستريح الناس فيه –؛ ذهب إلىٰ أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليُخبره بما أوحاه الله له.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: بينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعًا، في ساعة لم يكن يأتينا فيها. فقال أبو بكر: فداءً له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

قالت: فجاء رسول الله ﷺ، فاستأذن؛ فأذن له فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «**أخرج مَنْ عندك**». فقال أبو بكر: إنَّما هم أهلك، بأبي أنت يا رسول الله. قال: «**فإني قد أُذِنَ لي في الخروج**»، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «**نعم**».

وذهب النبيُّ ﷺ إلىٰ بيته، وكان ﷺ من عادته التي يعرفها الناس عنه أنه ينام بعد العشاء ثم يستيقظ لقيام الليل.

وكانت قريش قد اتفقت علىٰ أن يجتمعوا عند بيت رسول الله ﷺ في منتصف الليل ليقتلوه إذا خرج إلىٰ صلاته.

فجلسوا ينتظرونه، ولكن الله ماكرٌ بهم، ومخيِّبٌ مكرَهم وناصرٌ نبيَّه عليهم ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

فأمر النبيُّ ﷺ عليًّا – رضوان الله عليه – أن ينام في فراشه.

خرج رسول الله ﷺ من البيت، واخترق صفوفهم، وأخذ حفنةً من البطحاء فجعل يذره علىٰ رءوسهم، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وهو يتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]. فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع علىٰ رأسه ترابًا، ومضىٰ إلىٰ بيت أبي بكر، فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلًا حتىٰ لحقا بغار ثَوْر في اتجاه اليمن.

ثم استيقظ المشركون وما زالوا ينتظرونه ﷺ فجاء أحد المشركين ممَّن لا يعرف عن المؤامرة شيئًا فوجدهم ما زالوا عند بيت النبي ﷺ فقال لهم: ما لكم؟!

فقالوا: ننتظر محمدًا؛ فقال: والله لقد مرَّ بكم ووضع علىٰ رؤوسكم التراب. فدخلوا بيته ﷺ، فوجدوا عليًّا – رضوان الله عليه –، فقالوا: أين محمد؟

فقال: لا علم لي به.

يقول صاحب «الرحيق»: «غادر رسول الله ﷺ بيته في ليلة (٢٧) من شهر صفر سنة (١٤) من النبوَّة، الموافق ١٢/ ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢م».

وهاجت قريش غضبًا بعدما علموا أنه ﷺ خرج من بين أيديهم، وأنه هاجر هو وأبو بكرٍ، ولم يجدوا لهما أثرًا.

فضربوا عليًّا وحبسوه، فلمَّا لم يجدا عنده خبرًا يوصلهم إلىٰ رسول الله ﷺ؛

تركوه، وذهبوا إلىٰ بيت أبي بكر، وضرب أبو جهلٍ أسماءَ بنت أبي بكر لكي تخبره عن مكان أبيها فلم تخبره.

وأخرجوا الفرسان في الصحراء حول مكة ليبحثوا عن النبيِّ ﷺ وصاحبه، وأعلنوا عن جائزة مقدارها مائة ناقة لمن يأتي بالنبي ﷺ أو أبي بكر.

وخرج النبيُّ ﷺ جهة الجنوب، جهة اليمن بدلًا من أن يتَّجه جهة الشمال جهة المدينة، وصعد هو وأبو بكر فوق جبل حتىٰ دخلا غار ثور.

ووصل الباحثون من كفار قريش إلىٰ باب الغار؛ فعن أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت مع النَّبيِّ ﷺ في الغار فرفعت رأسي، فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبيَّ الله، لو أنَّ بعضهم طأطأ بصره رآنا. قال: «**اسكت يا أبا بكرٍ، اثنان الله ثالثهما**»، رواه البخاري.

وظل النبي ﷺ وأبو بكر في الغار ثلاث ليالٍ يأتيهما عبد الله بن أبي بكر بالطعام في السحر، فيخرج إلىٰ مكة في الصباح وخلفه عامر بن فهيرة مولىٰ أبي بكر بالغنم ليمحو أثره.

وفي الهجرة وغيرها مواقف مشرفة لأبي بكر وغيره من أصحاب رسول الله ﷺ نستفيض في ذكر شيء منها في كتاب «فضل جيل الصحابة» إن شاء الله رب العالمين.

وبعد ثلاث ليالٍ من خروج الرسول ﷺ وأبو بكر من مكة خمدت قريش ويئِست من طلبها لرسول الله ﷺ، فخرج الرسول ﷺ متَّجهًا إلىٰ المدينة عبر طريق دائري حيث نزل متجهًا إلىٰ اليمن ثم اتجه غربًا نحو الساحل، ثم سلك طريقًا لا يعتاد الناس علىٰ السير فيه، وكان قد اتَّخذ دليلًا يدلُّه علىٰ الطريق،

ومعه صاحبه الصديق - رضوان الله عليه - ومعهم مولىٰ أبي بكر عامر بن فهيرة.

حتىٰ وصل النبي ﷺ إلىٰ قباء في يوم الاثنين الموافق ١٢ ربيع الأول من السنة الرابعة عشرة من البعثة، وهي السنة الأولىٰ من الهجرة المباركة.

يقول ابن القيم - رحمة الله عليه - في «زاد المعاد»:

«وبلغ الأنصار مخرج رسول الله ﷺ من مكَّة وقصده المدينة، وكانوا يخرجون كلَّ يومٍ إلىٰ الحرَّة ينتظرونه أوَّل النَّهار، فإذا اشتدَّ حرُّ الشَّمس رجعوا علىٰ عادتهم إلىٰ منازلهم، فلمَّا كان يوم الاثنين ثاني عشر ربيعٍ الأوَّل علىٰ رأس ثلاث عشرة سنةً من النُّبوَّة خرجوا علىٰ عادتهم، فلمَّا حميَ حرُّ الشَّمس رجعوا، وصعد رجل من اليهود علىٰ أطمٍ من آطام المدينة لبعض شأنه، فرأىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه مبيّضين يزول بهم السَّراب، فصرخ بأعلىٰ صوته: يا بني قيلة، هذا صاحبكم قد جاء، هذا جدُّكم الَّذي تنتظرونه. فبادر الأنصار إلىٰ السِّلاح ليتلقَّوا رسول الله ﷺ وسمعت الرَّجَّة والتَّكبير في بني عمرو بن عوفٍ، وكبَّر المسلمون فرحًا بقدومه، وخرجوا للقائه فتلقَّوه وحيَّوه بتحيَّة النُّبوَّة، فأحدقوا به مطيفين حوله والسَّكينة تغشاه والوحي ينزل عليه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، فسار حتَّىٰ نزل بقباء في بني عمرو بن عوفٍ، فنزل علىٰ كلثوم بن الهدم، وقيل: بل علىٰ سعد بن خيثمة. والأوَّل أثبت، فأقام في بني عمرو بن عوفٍ أربع عشرة ليلةً، وأسَّس مسجد قباء، وهو أوَّل مسجدٍ أُسِّس بعد النُّبوَّة»[١].

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٢).

وفي يوم الجمعة أخذ النبي ﷺ راحلته وخرج من قباء، فلما أدركته الصلاة صلَّىٰ بهم - صلوات الله عليه - في مسجد بني سالم بن عوف، ثم انطلق علىٰ راحلته، والجميع يريدون أن يأخذوا بخطامها إلىٰ بيوتهم لينزل عليهم رسول الله ﷺ، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**دعوها فإنها مأمورة**»، فوقفت في موضع مسجده - صلوات الله عليه -، ثم تحرَّكت ثم عادت إلىٰ موضعها؛ فكان ذلك إشارة إلىٰ مكان المسجد النبويِّ الشريف.

فأخذ رحلَه الصحابيُّ الجليل أبو أيوب الأنصاري، وكان الأنصار يقبلون علىٰ رسول الله ﷺ يطلبون منه النزول عليهم، فكل واحد يتمنَّىٰ أن ينزل عليهم رسول الله ﷺ في بيته، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**المرء مع رحله**»، فنزل علىٰ أبي أيوب الأنصاري - رضوان الله عليه -.

ثم ما مكث النبي ﷺ طويلًا حتىٰ وصلت إليه زوجته سودة بنت زمعة ومعها أهل أبي بكر الصديق، وفيهم عائشة - رضوان الله عليها -.

وكان في المدينة المنورة - التي أنارها الله جَلَّوَعَلَا بقدوم نبيِّه إليها، - وكانت تُسمىٰ يثرب ، فأصبحت مدينة رسول الله ﷺ بعدما أضاءها الله جل وعلا بنور النبوة - ؛ كان فيها وباء، فأخذت الحُمَّىٰ تشتدُّ علىٰ أبي بكر وبلال، فدعا النبيُّ ﷺ ربَّه أن يرفع عن المدينة الوباء، وأن يحبِّبها إليه وإلىٰ المهاجرين كحبِّ مكة أو أشد؛ فاستجاب الله له، وارتفع الوباء، واستراح فيها أصحاب رسول الله ﷺ.

وبدأت المدينة بقيادة رسول الله ﷺ تستقبل قوافل المهاجرين، كما تستقبل المسلمين الجدد من شتىٰ بقاع الأرض.

فصل في بداية جديدة بنشأة دولة الإسلام في المدينة

بعدما هاجر النبيُّ ﷺ إلىٰ المدينة أصبحت قبلةً للمهاجرين – فبعدما كانوا يهاجرون إلىٰ الحبشة أصبحت هي مهجر المسلمين - ودولة للمسلمين، ومقرًّا لدعوة سيِّد المرسلين ﷺ.

فبعدما كان المسلمون يعيشون في مكة تحت الاضطهاد والحصار؛ صارت لهم شوكة ومنعة، ولم يكن الأمر أمرًا سياسيًّا كما يظنُّه الكافرون، بل هو نبويٌّ كما أراده الله جَلَّ وَعَلَا.

فلم يبدأ النبي ﷺ بتكوين الجيش ولا بإنشاء وزارة للحرب، ولا بالاستعداد للانتقام من قريش، بل كان أول ما بدأ به هو إنشاء المسجد الذي هو دار العبادة وإقامة الصلوات، وتلاوة القرآن، والذكر والتذكير، والتعليم والإرشاد؛ لمحو آثار الوثنية من الأرض، وتهيئة قلوب الخلق لتحمُّل دين الرب جَلَّ وَعَلَا.

فسأل النبيُّ ﷺ عن الأرض المختارة لمسجده، فأُخبر أنها لسهل وسهيل وهما غلامان يتيمان، فعرضا علىٰ رسول الله ﷺ أن يهبا الأرض له ليجعلها مسجدًا؛ فرفض النبي ﷺ حتىٰ تكون من ماله، فدفع النبي ﷺ عشرة دنانير؛ أي: عشرة آلاف درهم فضِّيٍّ.

ثم طُهِّرت الأرض مما فيها من خِرب وشجر للغرقد، ونخل وقبور للمشركين، وجُهِّزت لتكون مسجدًا، فبدأ النبي ﷺ ببناء مسجده مع أصحابه

وكان طوله مائة ذراع وعرضه كذلك.

يقول ابن القيم في «زاد المعاد»:

«وجعل رسول الله ﷺ يبني معهم وينقل اللَّبن والحجارة بنفسه ويقول:

«**اللَّهُمَّ لا عيش إلَّا عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة**».

وكان يقول:

«**هذا الحمال لا حمال خيبر، هذا أبرُّ ربَّنا وأطهر**».

وجعلوا يرتجزون وهم ينقلون اللَّبن، ويقول بعضهم في رجزه:

لئن قعدنا والرَّسول يعمل لذاك منَّا العمل المضلَّل

وجعل قبلته إلىٰ بيت المقدس، وجعل له ثلاثة أبوابٍ؛ بابًا في مؤخَّره، وبابًا يقال له: باب الرَّحمة، والباب الَّذي يدخل منه رسول الله ﷺ، وجعل عمده الجذوع، وسقفه بالجريد، وقيل له: ألا تسقِّفه؟ فقال: **لا، عريش كعريش موسىٰ**. وبنىٰ إلىٰ جنبه بيوت أزواجه باللَّبن، وسقَّفها بالجريد والجذوع، فلمَّا فرغ من البناء بنىٰ بعائشة في البيت الَّذي بناه لها شرقيَّ المسجد قبليَّه، وهو مكان حجرته اليوم، وجعل لسودة بنت زمعة بيتًا آخر»(١).

ثم آخىٰ النبيُّ ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلًا نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار، فآخىٰ بين أفرادهم، وفي المؤاخاة من المواقف المشرقة والوقائع المُشرفة للأنصار وكذا المهاجرين ما نستفيض في

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٦).

ذكر طرف منه في كتاب: «فضل جيل الصحاب» إن شاء الله رب العالمين.

فها هي دولة الإسلام قد قامت، فالله يُشرِّع لهم الشرائع، وينزل عليهم الأحكام والفرائض، وهو أحكم الحاكمين - سبحانه -، والرسول ﷺ يوضِّح لهم ويطبِّق أمامهم ما أُمِرُوا به، وهو سيد المرسلين وإمام المتقين، والصحابة - وهم خير جيل - يتسارعون ويتسابقون إلىٰ تلبية أوامر الله جَلَّوَعَلَا ورسوله ﷺ.

فوضع النبيُّ ﷺ لأهل المدينة ميثاقًا، وكان في المدينة ثلاث قبائل يهودية فأبىٰ عامَّتهم إلَّا الكفر به؛ وكانت الثلاث قبائل هي : بني قينقاع وبني النَّضير وبني قريظة، ولنا معهم وقفات فيما يأتي من بيان غزواته ﷺ.

وضع النبي ﷺ ميثاقًا ونظامًا لينظم بين هذه الجموع والطوائف؛ فالمدينة بها من اليهود ما بها، وبها من الوثنيِّين الذين لم يؤمنوا بعدُ برسالته ﷺ ما بها، وبها من المهاجرين - رضوان الله عليهم - ما بها، وسيحلُّ بها من قوافل المهاجرين من سيحلُّ، وبها من الأنصار - رضوان الله عليهم - ما بها.

ولا تنسَ أنها [أي: المدينة] كانت محلًّا للحروب بين الأوس والخزرج، فكان بها من الصراعات الجاهلية والنزاعات القبلية ما فتَّت وحدتها لأعوام وأعوام.

فوضع النبيُّ ﷺ عليهم ميثاقًا وعهدًا؛ عاهد فيه اليهود، لتنتظم الحياة بين سكان المدينة بجميع طوائفهم، وقد ذكر نصَّ الوثيقة ابنُ إسحاق في «سيرته».

وكانت بنود الوثيقة كما يلي:

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم:

١ - أنهم أمة واحدة من دون الناس.

٢ - المهاجرون من قريش علىٰ ربعتهم (الحال التي هم عليها) يتعاقلون بينهم (يدفعون ديَّاتهم بعضهم عن بعض)، وهم يَفْدُون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف، والقسط بين المؤمنين، وكل قبيلة من الأنصار علىٰ ربعتهم يتعاقلون معاقلهم (ديَّاتهم) الأولىٰ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٣ - وأن المؤمنين لا يتركون مُفَرَّجًا (مُثقلًا بالدين) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

٤ - وأن المؤمنين المتقين علىٰ من بغىٰ منهم، أو ابتغىٰ دسيعة (عطية) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين.

٥ - وأن أيديهم عليه جميعًا ولو كان ولد أحدهم.

٦ - ولا يُقتل مؤمن في كافر، ولا يُنصر كافر علىٰ مسلم.

٧ - وأن ذمة المسلمين واحدة يجير عليهم أدناهم.

٨ - وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

٩ - وإن سِلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا علىٰ سواء وعدل بينهم.

١٠ - وأن المؤمنين يفيء - يرجع ويحتمل - بعضهم علىٰ بعض بما ينالهم في سبيل الله.

١١ – وأنه لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه علىٰ مؤمن.

١٢ – وأنه من اعتبط مؤمنًا (قتله بدون سبب) قتلًا عن بينة؛ فإنه قود (يقتل به) إلا أن يرضىٰ وَلِيُّ المقتول، وأن المؤمنين عليه كافَّة، ولا يحلُّ لهم إلا قيام عليه.

١٣ – وأنه لا يحلُّ لمؤمن أن ينصر مُحْدِثًا – من أحدث منكرًا غير معتاد – ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل (أي لا يشارك في تصريف الأمور ولا في الشهادة عليها).

١٤ – وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء؛ فإن مردَّه إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ وإلىٰ محمد ﷺ.

ثم وقَّع النبي ﷺ عهدًا مع اليهود ليعيشوا مسالمين ومستأمنين في مدينة رسول الله ﷺ، وأنشأ حلفًا عسكريًّا بين المسلمين ويهود المدينة، وأنه إذا ما اختلف مسلم مع يهودي أو تشاجرا؛ فإن مردَّهم إلىٰ الله جَلَّوَعَلَا وإلىٰ رسوله ﷺ؛ ينصر المظلوم منهم ويأخذ الحقَّ من الظالم، وأن بينهم النصر علىٰ دارهم يثرب؛ فهم حِلْفٌ واحد ضِدَّ من عاداهم من الخارج.

والآن قد اكتملت أركان الدولة، وأصبح للمسلمين شوكة ومنعة، ومضىٰ خطر الاضطهاد والتعذيب والتنكيل من قِبل صناديد الكفر بمكة، فاستقرت للمسلمين الأمور، وأمنوا علىٰ أنفسهم في دولتهم، وأما المشركون الكافرون من الوثنيين ومن أهل الكتاب في الخارج؛ فلم تكن لهم حيلة إلا الحروب، ونقض المعاهدات مع المسلمين، فأصبح الخطر خارجيًّا من خارج المدينة، غير أن خطرًا آخر داخليًّا قد ظهر للمسلمين في المدينة بعد استقرارهم واستتباب الأمر

لهم؛ وهو ظهور المنافقين، أتباع ابن سلول الذي كان قد تهيَّأ لأن يكون زعيمًا ليثرب قبل هجرة رسول الله ﷺ، فلما هاجر رسول الله ﷺ كانت له الزعامة والرئاسة والعزَّة - ﷺ -، وأما ابن سلول فأسلم ظاهرًا مع حقده الدفين علىٰ النبي ﷺ وأصحابه، فالمنافق يُظهر الإسلام وباطنه يتغلغل فيه الشرك ومحاربة الإسلام، فهم يظهرون في زمن قوة المسلمين ومنعتهم، ويختفون في زمن الاستضعاف والاضطهاد، فإن كان المؤمنون قد استراحوا من خطر اضطهاد الكفار، غير أن الحرب بين الخير والشرِّ والإسلام والكفر لا تتوقف، فالإسلام واحد لا يتبدَّل ولا يتغيَّر، وأما الكفر فمتلوِّن متغيِّر.

وقد بدأت مرحلة جديدة، فيها من الغزوات ما رفع الله به راية الإسلام والمسلمين، وإن كانت الأيام دولًا، فينصر الله المؤمنين بطاعتهم وتوحيدهم، فإن خالفوا أمر الله وأمر رسوله ﷺ أدال عليهم الدولة؛ ليتعلموا أن النصر لا يكون إلا بطاعة الله ورسوله ﷺ، وأن يُخلصوا نيَّاتهم لتكون للآخرة وحدها، وينبذوا الدنيا بعيدًا عن نيَّاتهم وأغراضهم، وأن يعلموا أن النصر من عند الله لا بكثرة عدد وبقوة عتاد، وإنما من عند الله وحده، ليخْرُجوا من هذه المدرسة «مدرسة الجهاد» مؤهَّلين لنشر دين الله جَلَّ وَعَلَا في العالم كله، وليصبحوا قادة الأمم في دولة الخلافة فيضربوا مثالًا عمليًّا تذهل العقول من روعته، فيعيشوا بين الناس بتوحيد الله واتِّباع رسوله ﷺ زاهدين في الدنيا زهدًا لم ترَ البشرية مثله، فيعيشوا بين الناس بتوحيد الله واتِّباع رسوله ﷺ زاهدين في الدنيا زهدًا لم ترَ البشرية مثله، ثم بعدما صارت الدنيا في أيديهم إذا بهم يقبلون علىٰ العبادة زاهدين

في الدنيا داعين الناس إلىٰ الزهد مبلغين حديث رسول الله ﷺ: «**والله لا الفقر أخشىٰ عليكم ، ولكن أخشىٰ عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت علىٰ من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم**»؛ لتشهد الدنيا خير البشر بعد الأنبياء، ولا عجب، لقد ربَّاهم رسول الله ﷺ في مدرسة النبوَّة – رضوان الله عليهم أجمعين، وصلوات الله علىٰ خير المرسلين وسيِّد ولد آدم أجمعين –.

❀❀❀

فصل في استكمال قصة سلمان الفارسي الباحث عن الحق

وقد مرَّ معنا ما كان من بحثه عن الدين الحق حتىٰ انتقل من المجوسية إلىٰ النصرانية، حتىٰ سمع باقتراب بعثة رسول آخر الزمان، وقد أخبره صاحبه الراهب بصفة هذا الرسول ﷺ وبصفة البلد التي سينزل بها، فعلم أنها المدينة فنزل بها، ولكنه قد غدر به من غدر؛ فعاش في الرِّقِّ في يثرب ينتظر مقدم رسول آخر الزمان ﷺ.

يقول سلمان: فلمَّا مات [أي: معلمه] وغيَّب؛ لحقتُ بصاحب عمُّوريَّة وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي. فأقمت مع رجلٍ علىٰ هدي أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتَّىٰ كان لي بقرات وغُنَيْمَةٌ.

قال: ثمَّ نزل به أمر الله، فلمَّا حُضِرَ قلت له: يا فلان! إنِّي كنت مع فلانٍ، فأوصىٰ بي فلان إلىٰ فلانٍ، وأوصىٰ بي فلان إلىٰ فلانٍ، ثمَّ أوصىٰ بي فلان إليك، فإلىٰ من توصي بي؟ وما تأمرني؟

قال: أي بنيَّ! والله ما أعلمُه أصبح علىٰ ما كنَّا عليه أحدٌ من النَّاس آمرك أن تأتيه، ولكنَّه قد أظلَّك زمان نبيٍّ، هو مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب مهاجرًا إلىٰ أرضٍ بين حرَّتين (الحرة: الأرض ذات الحجارة السود)، بينهما نخل، به علامات لا تخفىٰ: يأكل الهديَّة ولا يأكل الصَّدقة، بين كتفيه خاتم النُّبوَّة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال: ثمَّ مات وغيِّب، فمكثت بعمُّوريَّة ما شاء الله أن أمكث، ثمَّ مرَّ بي نفر من كلبٍ تجَّارًا، فقلت لهم: تحملوني إلىٰ أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه؟ قالوا: نعم. فأعطيتهموها وحملوني، حتَّىٰ إذا قدموا بي وادي القرىٰ ظلموني فباعوني من رجلٍ من يهود عبدًا، فكنت عنده، ورأيت النَّخل، ورجوت أن تكون البلد الَّذي وصف لي صاحبي، ولم يحق لي في نفسي.

فبينما أنا عنده قدم عليه ابن عمٍّ له من المدينة من بني قريظة، فابتاعني منه، فاحتملني إلىٰ المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها، وبعث الله رسوله فأقام بمكَّة ما أقام، لا أسمع له بذكرٍ مع ما أنا فيه من شغل الرِّقِّ، ثمَّ هاجر إلىٰ المدينة، فوالله إنِّي لفي رأس عذقٍ لسيِّدي أعمل فيه بعض العمل وسيِّدي جالس إذ أقبل ابن عمٍّ له حتَّىٰ وقف عليه، فقال فلان: قاتل الله بني قيلة، والله إنَّهم الآن لمجتمعون بقباء علىٰ رجلٍ قدم عليهم من مكَّة اليوم يزعمون أنَّه نبيٌّ. قال: فلمَّا سمعتها أخذتني العرواء (برد الحمىٰ) حتَّىٰ ظننت سأسقط علىٰ سيِّدي، قال: ونزلت عن النَّخلة، فجعلت أقول لابن عمِّه ذلك: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ قال: فغضب سيِّدي فلكمني لكمةً شديدةً ثمَّ قال: ما لك ولهذا؟! أقبل علىٰ عملك. قال: قلت: لا شيء، إنَّما أردت أن أستثبت عمَّا قال.

وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلمَّا أمسيت أخذته ثمَّ ذهبت إلىٰ رسول الله ﷺ وهو بقباء، فدخلت عليه فقلت له: إنَّه قد بلغني أنَّك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجةٍ، وهذا شيء كان عندي للصَّدقة، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم، قال: فقرَّبته إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: **كلوا**.

وأمسك يده فلم يأكل، قال: فقلت في نفسي: هذه واحدة، ثمَّ انصرفت عنه فجمعت شيئًا، وتحوَّل رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة، ثمَّ جئت به، فقلت: إنِّي رأيتك لا تأكل الصَّدقة وهذه هديَّة أكرمتك بها، قال: فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال: فقلت في نفسي: هاتان اثنتان.

ثمَّ جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد، قال: وقد تبع جنازةً من أصحابه عليه شملتان له، وهو جالس في أصحابه، فسلَّمت عليه ثمَّ استدرت أنظر إلىٰ ظهره هل أرىٰ الخاتم الَّذي وصف لي صاحبي. فلمَّا رآني رسول الله ﷺ استدرته عرف أنِّي أَسْتثبتُ في شيءٍ وُصِفَ لي، قال: فألقىٰ رداءه عن ظهره، فنظرت إلىٰ الخاتم فعرفته فانكببت عليه أُقَبِّلُه وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: «**تحوَّل**». فتحوَّلت فقصصت عليه حديثي كما حدَّثتك يا ابن عبَّاسٍ، قال: فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

ثمَّ شغل سلمانَ الرِّقُّ حتَّىٰ فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد، قال: ثمَّ قال لي رسول الله ﷺ: «**كاتب يا سلمان**». فكاتبت صاحبي علىٰ ثلاث مائة نخلةٍ أحييها له بالفقير (حفرة الفسيلة التي تغرس فيها) وبأربعين أوقيَّةً، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أعينوا أخاكم**». فأعانوني بالنَّخل، الرَّجل بثلاثين وديَّةً (أي صغار النخل)، والرَّجل بعشرين، والرَّجل بخمس عشرة، والرَّجل بعشرٍ (يعني: الرَّجل بقدر ما عنده)، حتَّىٰ اجتمعت لي ثلاث مائة وديَّةٍ، فقال لي رسول الله ﷺ: «**اذهب يا سلمان ففقِّر لها** (أي: احفر لها موضع غرسها)، **فإذا فرغتَ فأتني أكون أنا أضعها بيديَّ**»، ففقَّرت لها وأعانني أصحابي، حتَّىٰ إذا

فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله ﷺ معي إليها، فجعلنا نقرِّب له الوديَّ، ويضعه رسول الله ﷺ بيده، فوالَّذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها وديَّة واحدة، فأدَّيت النَّخل وبقي عليَّ المال.

فأُتِيَ رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدَّجاجة من ذهبٍ، من بعض المغازي، فقال: «**ما فعل الفارسيُّ المكاتب؟**»، قال: فدُعيت له فقال: «**خذ هذه؛ فأدِّ بها ما عليك يا سلمان**». فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله ممَّا عليَّ؟! قال: «**خذها؛ فإنَّ الله سيؤدِّي بها عنك**». قال: فأخذتها فوزنت لهم منها - والَّذي نفس سلمان بيده - أربعين أوقيَّةً، فأوفيتهم حقَّهم، وعُتقتُ، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق، ثمَّ لم يفتني معه مشهد»[1].

❊❊❊

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٤٤١)، وحسنه الألباني في «الصحيحة».

فصل في تكالب العرب على مدينة رسول الله ﷺ

عن أُبَيِّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **قال**: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار؛ رمتهم العرب عن قوس واحدة؛ فكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: «ترون أنَّا نعيش حتىٰ نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؟» فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ إلىٰ: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ يعني: بالنعمة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النور: ٥٥][(١)].

إذن فقد تحولت الحالة من حالة استضعاف شخصي قبل الهجرة إلىٰ حالة أخرىٰ بعد الهجرة؛ وهي الاستنفار من قِبَلِ قريشٍ ومَنْ حالفها من وثنيِّ العرب ومن اليهود حول المدينة، وشعر المسلمون بالقلق إذ يُهدِّدهم الأعداء من حولهم، حتىٰ كانوا يعيشون في المدينة علىٰ وَجَلٍ وخوف؛ حتىٰ إن الواحد منهم لا يستطيع مفارقة سلاحه، بل إن الرسول ﷺ كان يأتي من يأتي من أصحابه ليقف أمام حجرته يحرسه ليتمكَّن ﷺ من النوم؛ لأنه كان قد بلغه عن المشركين في قريش أنهم يَعُدُّون العُدَّة ليقتلوه ﷺ، حتىٰ نزل عليه قول الله:

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»، وقال صحيح الإسناد.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾ [المائدة: ٦٧].

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية:

«**قوله:** ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] أي: بلِّغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك علىٰ أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك.

وقد كان النبي ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحْرَس؛ كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يزيد، حدثنا يحيىٰ؛ قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدِّث: أنَّ عائشة كانت تُحدِّث: أن رسول الله ﷺ سَهِر ذات ليلة، وهي إلىٰ جنبه، قالت: فقلتُ: ما شأنُكَ يا رسول الله؟ قال: «**لَيْتَ رجلًا صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة!**»، قالت: فبينا أنا علىٰ ذلك إذ سمعت صوت السلاح؛ فقال: «**من هذا؟**» فقال: أنا سعد بن مالك. فقال: «**ما جاء بك؟**» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسمعت غطيط رسول الله ﷺ في نومه. أخرجاه في الصحيحين من طريق يحيىٰ بن سعيد الأنصاري؛ به[1].

وفي لفظ: سَهِر رسول الله ﷺ ذات ليلة مَقْدَمَهُ المدينة. يعني: علىٰ أثر هجرته [إليها] بعد دخوله بعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وكان ذلك في سنة ثنتين منها.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا إبراهيم بن مرزوق البصري نزيل مصر، حدثنا

(١) «المسند» (٦/ ١٤٠)، و«صحيح البخاري» برقم (٢٨٨٥)، و«صحيح مسلم» برقم (٢٤١٠).

مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عُبَيد - يعني أبا قدامة - عن الجُرَيري، عن عبد الله بن شَقِيق، عن عائشة [رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا] قالت: كان النبي ﷺ يُحْرَس حتىٰ نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، قالت: فأخرج النبيُّ ﷺ رأسه من القُبَّة، وقال: «**يا أيها الناس، انصرفوا فقد عصمني الله** عَزَّوَجَلَّ»» اهـ.

وبالفعل كانت الهجرة النبويَّة الشريفة إلىٰ المدينة النبوية بداية للغزوات، والجهاد في سبيل الله، وصدِّ عدوان المشركين.

❀❀❀



فصل في الإذن بالقتال

تميَّزت الفترة المكِّيَّة قبل الهجرة بكفِّ الأيدي وإقام الصلاة، مع ما في هذه المرحلة من تحمُّل للاضطهاد والتعذيب، وكأنها فترة إعداد وتدريب لينتج عنها جيل من حديد لا يصرفه عن دينه شيء، بل كان الواحد من أصحاب رسول الله ﷺ يُقيَّد ويُضرب، فيسأله المشركون: هل تَودُّ أن تكون في بيتك ومحمد ﷺ مُقيد مكانك؟

يطمعون من التعذيب الذي وقع علىٰ هذا الصحابي أن يصل به إلىٰ أن يَودَّ السلامة بينما يؤذىٰ رسول الله ﷺ مكانه.

ولكن كان يأتيهم الجواب بلا تأخُّر ولا تردُّد: لا والله، لا أحب أن أكون في بيتي آمنًا ورسول الله ﷺ يُشاك بشوكة.

فكانوا في فترة صبر وبذل، حتىٰ هاجروا - رضوان الله عليهم - مع رسول الله ﷺ إلىٰ المدينة، فنزل الإذن بالجهاد.

فنزل قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

يقول الإمام السعدي في تفسيره لهذه الآية:

«كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار، ومأمورين بالصبر عليهم، لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلىٰ المدينة، وأُوذوا، وحصل لهم منعة وقوَّة؛ أُذِنَ لهم بالقتال، قال تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾، يفهم منه أنهم كانوا قبلُ ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلون، وإنما أذن لهم لأنهم ظُلِموا؛ بمنعهم من دينهم، وأذيَّتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾، فَلْيستنصروه، وَلْيستعينوا به. **ثم ذكر صفة ظلمهم فقال:** ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾؛ أي: أُلجئوا إلىٰ الخروج بالأذية والفتنة ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ﴾ أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم ﴿أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ أي: إلا أنهم وَحَّدوا الله، وعبدوه مخلصين له الدين، فإن كان هذا ذنبًا، فهو ذنبهم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وهذا يدلُّ علىٰ حكمة الجهاد، وأن المقصود منه إقامة دين الله، وذبُّ الكفار المؤذين للمؤمنين، البادئين لهم بالاعتداء، عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكُّن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضررَ الكافرين، ﴿لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ﴾ أي: لهُدِّمت هذه المعابد الكبار لطوائف أهل الكتاب، معابد اليهود والنصارىٰ، والمساجد للمسلمين، ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا﴾ أي: في هذه المعابد ﴿ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾ تقام فيها الصلوات، وتتلىٰ فيها كتب الله، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر.

فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض؛ لاستولىٰ الكفَّار علىٰ المسلمين، فخرَّبوا معابدهم، وفتنوهم عن دينهم، فدلَّ هذا أن الجهاد مشروع لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره، ودلَّ ذلك علىٰ أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله، وعمرت مساجدها، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها، من فضائل المجاهدين وببركتهم دفع الله عنها الكافرين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]» اهـ.

فصل في غزواته وسراياه ﷺ

سرايا وغزوات سبقت غزوة بدر الكبرى:

لما أنزل الله إذنه بالجهاد للمسلمين، ووصف قريشًا بأنَّها ظالمة ومحاربة لله ورسوله ﷺ؛ قرَّر رسول الله ﷺ أن يبدأ في إعداد معسكره الحربي؛ ليفرض سيطرته علىٰ الطرق المحيطة بالمدينة، ومنع قريش من العبور بالتجارات في الطرقات حول المدينة، فأرسل رسول الله ﷺ السرايا - وهي جمع سريَّة؛ وهي جزء من الجيش -.

فكان من ذلك ما وقع في: سرية سيف البحر، وسرية رابغ، وسرية الخرار، وغزوة الأبواء، وغزوة بواط، وغزوة ذي العشيرة، وكلها لم يقع فيها قتال، ولم يُدرك فيها المسلمون قوافل قريش، وأقصىٰ ما وقع كان في سرية رابغ إذ ترامىٰ الطائفتان بالنبال ولم يقع بينهما قتال، وكانت ألوية الغزوات والسرايا بيضاء.

بينما وقعت غزوة سفوان قبل ذي العشيرة، ولم تكن تتبُّعًا لقوافل قريش حول المدينة، ولكن كانت دفاعًا عمَّا وقع من بعض مشركي قريش؛ إذ عدوا علىٰ مراعي المدينة، فخرج النبي ﷺ يتتبعهم لكنه لم يُدركهم، وفرُّوا هاربين، وسُمِّيت «غزوة بدر الأولىٰ» لقرب موقعها من بدر. علىٰ خلاف بين المؤرِّخين في أسماء بعض هذه السرايا والغزوات.

غزوة بدر الكبرى

عن أنسٍ: «أنَّ رسول الله ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان؛ قال: فتكلَّم أبو بكرٍ فأعرض عنه، ثمَّ تكلَّم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيَّانا تريد يا رسول الله؟ والَّذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نُخِيضَها البحر لأَخَضْناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلىٰ بَرْك الغِمَاد لفعلنا. قال: فندب رسول الله ﷺ النَّاس؛ فانطلقوا حتَّىٰ نزلوا بدرًا، ووردت عليهم روايا قريشٍ وفيهم غلام أسود لبني الحجَّاج، فأخذوه. فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه؛ فيقول: ما لي علم بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهلٍ وعتبة وشيبة وأميَّة بن خلفٍ. فإذا قال ذلك ضربوه؛ فقال: نعم، أنا أخبركم، هذا أبو سفيان. فإذا تركوه فسألوه فقال: ما لي بأبي سفيان علم، ولكن هذا أبو جهلٍ وعتبة وأميَّة بن خلفٍ في النَّاس. فإذا قال هذا أيضًا ضربوه، ورسول الله ﷺ قائم يصلِّي، فلمَّا رأىٰ ذلك انصرف؛ قال: «**والَّذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدقكم، وتتركوه إذا كذبكم!**». قال: فقال رسول الله ﷺ: «**هذا مصرع فلانٍ**». قال: ويضع يده علىٰ الأرض هاهنا وهاهنا قال: فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ»[1].

---

(١) أخرجه مسلم.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣ - ١٢٧].

قال العلَّامة السعدي في «تفسيره»:

«وهذا امتنان مِنْه علىٰ عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر وهم أذلة في قِلَّة عَددهم وعُددهم، مع كثرة عَدد عدوهم وعُددهم، وكانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، خرج النبيُّ ﷺ من المدينة بثلاث مئة وبضعة عشر من أصحابه - ولم يكن معهم إلا سبعون بعيرًا وفرسان -؛ لطلب عير لقريش قدمت من الشام، فسمع به المشركون فتجهَّزوا من مكة لفكاك عيرهم، وخرجوا في زهاء ألف مقاتل مع العُدَّة الكاملة، والسلاح العام، والخيل الكثيرة، فالتقوا هم والمسلمون في ماء يقال له: «بدر»، بين مكة والمدينة، فاقتتلوا، ونصر الله المسلمين نصرًا عظيمًا، فقَتلوا من المشركين سبعين قتيلًا من صناديد المشركين وشجعانهم، وأسروا سبعين، واحتووا علىٰ معسكرهم، ستأتي - إن شاء الله - القصة في سورة الأنفال؛ فإنَّ ذلك موضعها، ولكن الله تعالىٰ هنا أتىٰ بها ليتذكر بها المؤمنون ليتقوا ربهم ويشكروه؛ فلهذا قال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ لأن من اتقىٰ ربه فقد شكره، ومن ترك التقوىٰ فلم يشكره. إذ تقول يا محمد للمؤمنين يوم بدر مبشرًا لهم بالنصر:

﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: من مَقْصِدِهم هذا، وهو وقعة بدر ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥] أي: معلَّمين بعلامة الشجعان. فشرط الله لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوىٰ، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأمَّا وعدُ النصر وقَمْعِ كيد الأعداء فَشَرَطَ الله له الشرطين الأوَّلَيْن؛ كما تقدم في قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠] .

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: إمداده لكم بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ تستبشرون بها وتفرحون ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]؛ فلا تعتمدوا علىٰ ما معكم من الأسباب، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم، وأما النصر الحقيقي الذي لا معارض له، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده؛ فإنَّه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سُنَّتُه في خلقه، وإن شاء نصر المستضعفين الأذلِّين؛ ليبين لعباده أن الأمر كله بيديه، ومرجع الأمور إليه؛ ولهذا قال: ﴿عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]؛ فلا يمتنع عليه مخلوق، بل الخلق كلهم أذلاء مدبَّرون تحت تدبيره وقهره، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة في إدَالَةِ الكفار في بعض الأوقات علىٰ المسلمين إدالةً غير مستقرَّة»[1].

وأما ما كان من شأن أسرىٰ المشركين في بدر فكما قال ابن عبَّاسٍ: فلمَّا

(١) (ص ١٤٧).

أسروا الأسارىٰ قال رسول الله ﷺ لأبي بكرٍ وعمر: «**ما ترون في هؤلاء الأسارىٰ؟**». فقال أبو بكرٍ: يا نبيَّ الله، هم بنو العمِّ والعشيرة، أرىٰ أن تأخذ منهم فديةً فتكون لنا قوَّةً علىٰ الكفَّار، فعسىٰ الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترىٰ يا ابن الخطَّاب؟**». قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرىٰ الَّذي رأىٰ أبو بكرٍ، ولكنِّي أرىٰ أن تمكِّنَّا فنضرب أعناقهم؛ فتمكِّن عليًّا من عقيلٍ فيضرب عنقه، وتمكِّنِّي من فلانٍ - نسيبًا لعمر - فأضرب عنقه؛ فإنَّ هؤلاء أئمَّة الكفر وصناديدها. فهوىٰ رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكرٍ ولم يهوَ ما قلت، فلمَّا كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكرٍ قاعدَيْنِ يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أيِّ شيءٍ تبكي أنت وصاحبك، فإنْ وجدْتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «**أبكي للَّذي عَرَضَ عليَّ أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرِضَ عليَّ عذابهم أدنىٰ من هذه الشَّجرة**»؛ شجرةٍ قريبةٍ من نبيِّ الله ﷺ. وأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩]، فأحلَّ الله الغنيمة لهم»[(١)].

(١) رواه مسلم.



غزوة بني سُليم

لمَّا وقع ما وقع في غزوة بدر ظهر ما ظهر من حقد العرب واليهود والقبائل المرتزقة في الصحراء، والتي تتكسَّبُ عن طريق قطع الطرق وما أشبه؛ علىٰ الإسلام والمسلمين، وكان من ذلك ما وقع من بني سُليم وبني غَطفان؛ إذ علم النبيُّ ﷺ أنهما يُعدَّان العُدَّة لمهاجمة المسلمين في المدينة، فباغتهم النبيُّ ﷺ في ديارهم؛ ففرُّوا، ومكث في ديارهم ثم عاد، وكان لذلك أثر عظيم في نفوس المتآمرين علىٰ الإسلام والمسلمين؛ فازدادت رهبتهم للمسلمين، غير أنَّ مؤامراتهم لم تنتهِ.

❀❀❀

غزوة بني قينقاع

وبنو قينقاع قبيلة من القبائل التي تسكن المدينة، وهم من اليهود، وقد عاهدهم النبيُّ ﷺ بمعاهدة مَرَّ ذكرُهَا.

وبدأ بنو قينقاع في إثارة الشغب في المدينة، والتعرُّض للمسلمين في أسواقهم؛ إذ كانوا - أي: يهود بني قينقاع - من صُناع الأواني والسيوف والصاغة وما أشبه، فتعرَّضوا للمسلمين بعدما علموا ما وقع في بدر؛ حقدًا وحسدًا على المسلمين.

عن ابن عبَّاسٍ قال: لمَّا أصاب رسول الله ﷺ قريشًا يوم بدرٍ، وقدم المدينة؛ جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال: «**يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا**». قالوا: يا محمَّد، لا يغرَّنَّك من نفسك أنَّك قتلت نفرًا من قريشٍ كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنَّك لو قاتلتنا لعرفت أنَّا نحن النَّاس، وأنَّك لم تلقَ مثلنا. فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣]»[1].

(١) «سنن أبي داود» برقم (٣٠٠١)، وضعَّفه الألباني.

روىٰ ابن هشام عن أبي عون: أنَّ امرأة من العرب قدمت بجَلَبٍ لها، فباعته في سوق بني قينقاع، وجلست إلىٰ صائغ، فجعلوا يريدونها علىٰ كشف وجهها، فأبت، فَعَمَد الصائغ إلىٰ طرف ثوبها فعقده إلىٰ ظهرها - وهي غافلة -، فلمَّا قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها؛ فصاحت، فوثب رجل من المسلمين علىٰ الصائغ فقتله - وكان يهوديًّا -، فشدَّت اليهود علىٰ المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين علىٰ اليهود، فوقع الشرُّ بينهم وبين بني قينقاع.

وحاصرهم النبيُّ ﷺ خمسة عشر يومًا، ثم نزلوا علىٰ حكمه ﷺ؛ فقرَّر أن يقتلهم إذ خالفوا العهد والميثاق، وتعدَّوا علىٰ امرأة مسلمة، وقتلوا مسلمًا لمَّا دافع عنها، فتدخل في الأمر عبد الله بن أبي ابن سلول، وطلب من الرسول ﷺ ألَّا يقتلهم، وكان قد أسلم قبل هذه الواقعة بشهر تقريبًا، وألحَّ علىٰ النبي ﷺ حتىٰ أمر بهم فرحلوا إلىٰ الشام وتركوا المدينة.

❁❁❁

غزوة السويق

ووقعت بين هذه الغزوة وغزوة أحد عدَّة غزوات ووقائع، منها «**غزوة السويق**»، ولم يقع فيها قتال؛ إنَّما كانت هجومًا من أبي سفيان ولم يكن أسلم وقتها، فهجم علىٰ ضاحية من ضواحي المدينة فقتل بها رجلًا وأفسد فيها، وفرَّ هو ورجاله قبل أن يلحق بهم الرسول ﷺ وأصحابه، ولم تقع مقتلة.

❁❁❁

سرية زيد بن حارثة

ومن بعدها «**سرية زيد بن حارثة**» إذ جهَّز رسول الله ﷺ السرية من مائة راكب؛ لما علم أن قوافل قريش ستمرُّ من طريق نجد متجهة إلىٰ الشام، وجعل عليها زيد بن حارثة، وبالفعل أدرك زيدٌ القوافل وفرَّ قادة القوافل من المشركين وتركوا كلَّ شيء، وكانت غنيمة عظيمة للمسلمين؛ فردَّ الله علىٰ المسلمين بعض ما تركوا في مكة من أموالهم، وكانت محنة عظيمة لقريش.

❁❁❁

غزوة أحد

جيَّشت قريش الجيش، وكان قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ومثلهم من البعير، ومائتي فارس، وأخذوا معهم النساء حتىٰ لا يفرَّ الجنود ويتركوا نساءهم، وكانت القيادة لأبي سفيان، ومِنْ بعدِهِ خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل - وقد أسلموا جميعًا بعد ذلك -، وتحرَّكَ الجيش إلىٰ المدينة، وأرسل العباس عمُّ الرسول ﷺ إليه رسالة يخبره بالأمر، وعلم النبيُّ ﷺ بالأمر قبل وصولهم إلىٰ المدينة بأيام، واستعدَّ له هو وأصحابه.

واستشار النبيُّ ﷺ أصحابه في مقاتلة قريش في المدينة، وكان البقاء في المدينة هو ما يراه، وأيَّده عبد الله بن أبي ابن سلول هربًا من الخروج من المدينة للقتال، ولم يكن نفاقه قد ظهر بعدُ، ولكن حمزة بن عبد المطلب - رضوان الله عليه - ومعه بعض الصحابة كانوا متحمِّسين للخروج لقتال المشركين؛ حتىٰ لا يقال: إنَّ المسلمين جبنوا عن الخروج. فلبس النبيُّ ﷺ لَأْمَةَ الحرب [أي: ثياب الحرب] وخرج بهم، فلمَّا رأوا النبي ﷺ نزل علىٰ رأيهم قالوا: ما كنا لنخالف قولك يا رسول الله ﷺ، فلنبقَ في المدينة. فقال لهم ﷺ: «**ما كان لنبيٍّ أن يلبس لَأْمَةَ الحرب ثم يضعها حتىٰ يحكم الله بينه وبين عدوِّه**».

وخرج النبي ﷺ عصر الجمعة في ألف من الجنود، محتسبين عند الله خروجهم، آملين أن ينصرهم الله علىٰ عدوِّهم، وبات الجيش بين أحد

والمدينة، وفي الصباح إذا بثلث الجيش ينقلب مع زعيمه عبد الله بن أبي ابن سلول زاعمًا هذا المنافق أنه يرفض قتال المشركين خارج المدينة، وبقي مع النبي ﷺ قرابة سبعمائة مقاتل، وكادت تحدث فتنة بين الصفوف، إذ رجع ثلث الجيش، والعدو يفوقهم عددًا؛ إذ يبلغ جيش المشركين ثلاثةَ آلاف مقاتل!

قال تعالىٰ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران: ١٢٢].

فثبَّت الله المؤمنين أن يُفتنوا؛ إذ وقع ذلك في وقت عصيب وعلىٰ مرأىٰ ومسمع من المشركين؛ إذ كانوا يرون هذا المنافق وهو يرجع بثلث الجيش.

وأنزل الله في المنافقين قوله:

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦٧].

ونظَّم النبي ﷺ الصفوف، وجعل علىٰ الجبل كتيبة الرماة من خمسين راميًا، وجعل عليهم عبد الله بن جبير؛ فعن البراء بن عازب قال: جعل النَّبيُّ ﷺ علىٰ الرَّجَّالة يوم أحدٍ - وكانوا خمسين رجلًا - عبد الله بن جبيرٍ؛ فقال ﷺ: «**إنْ رأيتمونا تخطفنا الطَّير، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتَّىٰ أُرسِلَ إليكم، وإنْ رأيتمونا هَزَمْنا القومَ وأَوْطَأْناهم فلا تَبْرَحُوا حتَّىٰ أرسل إليكم**»[1].

(١) رواه البخاري.

وبدأت المعركة، وكانت الغلبة للمسلمين، حتىٰ كاد المشركون أن يفرُّوا من المعركة، فلمَّا رأىٰ ذلك كتيبة الرماة من فوق الجبل أرادوا النزول لجمع الغنائم حتىٰ لا يفر بها المشركون، فمنعهم قائدهم عبد الله بن جبير، وذكَّرهم بأمر رسول الله ﷺ لهم، فلم ينتهوا بنهيه، ولم يلتزموا ما سمعوا من رسول الله ﷺ، ونزلوا من علىٰ الجبل، فلما خلا الجبل من الرماة عدا عبد الله بن جبير ومن التزم معه بأمر الله وأمر رسوله ﷺ بلزوم الجبل؛ فلما نزل الرماة من علىٰ الجبل رأىٰ خالد بن الوليد الجبلَ فارغًا وكان قائدًا لجنود المشركين، فأخذ جندًا من جند المشركين وصعد الجبل وقتل عبد الله بن جبير ومن بقي معه من جند المسلمين، وثبَّتَ كتيبته فوق الجبل لترمي المسلمين بالسهام، فانقلبت المعركة، وقُتل حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاع علىٰ يد وَحْشِيٍّ - رضوان الله عليه - قبل أن يُسلم.

وعن أنسٍ: أنَّ رسول الله ﷺ كُسرت رباعيته يوم أحدٍ وشجَّ في رأسه، فجعل يسلت الدَّم عنه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجُّوا نبيَّهم، وكسروا رباعيَّته، وهو يدعوهم إلىٰ الله؟!**»؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]»[(١)].

وعن البراء بن عازبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يحدِّث قال: جعل النَّبيُّ ﷺ علىٰ الرَّجَّالة يوم أحدٍ - وكانوا خمسين رجلًا - عبد الله بن جبيرٍ فقال: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطَّير، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتَّىٰ أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزَمْنا القومَ**

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

وأَوْطَأْناهم فلا تبرحوا حتَّىٰ أرسل إليكم»، فهزموهم، قال: فأنا والله رأيت النِّساء يشتددن قد بدت خلاخلهنَّ وأسوقهنَّ رافعاتٍ ثيابهنَّ، فقال أصحاب عبد الله بن جبيرٍ: الغنيمة - أي قوم - الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟! فقال عبد الله بن جبيرٍ: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟! قالوا: والله لنأتينَّ النَّاس فلنصيبنَّ من الغنيمة. فلمَّا أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذاك إذ يدعوهم الرَّسول في أُخْراهم، فلم يبقَ مع النَّبيِّ ﷺ غير اثني عشر رجلًا، فأصابوا منَّا سبعين، وكان النَّبيُّ ﷺ وأصحابه أصاب من المشركين يوم بدرٍ أربعين ومائةً؛ سبعين أسيرًا وسبعين قتيلًا.

فقال أبو سفيان: أفي القوم محمَّد؟ ثلاث مرَّاتٍ، فنهاهم النَّبيُّ ﷺ أن يجيبوه، ثمَّ قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرَّاتٍ، ثمَّ قال: أفي القوم ابن الخطَّاب؟ ثلاث مرَّاتٍ، ثمَّ رجع إلىٰ أصحابه فقال: أمَّا هؤلاء فقد قُتلوا. فما ملك عمر نفسه فقال: كذبت والله يا عدوَّ الله! إنَّ الَّذين عددت لأحياء كلُّهم، وقد بقي لك ما يسوءُك. قال [أي: أبو سفيان]: يوم بيوم بدرٍ، والحرب سجال، إنَّكم ستجدون في القوم مُثْلَةً لم آمر بها ولم تسؤني.

ثمَّ أخذ يرتجز: «اعلُ هُبل، اعلُ هبل»، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**ألا تجيبوا له!**». قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلىٰ وأجلُّ**». قال: إنَّ لنا العزَّىٰ ولا عزَّىٰ لكم. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**ألا تجيبوا له!**». قال: قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا ولا مولىٰ لكم**».

وانتهت المعركة بهزيمة المسلمين، قال ابن إسحاق: جميع من قتل الله

تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يوم أحدٍ من المشركين اثنان وعشرون رجلًا.

وحزن النبيُّ ﷺ علىٰ موت أخيه من الرضاعة وعمِّه حمزة بن عبد المطلب - رضوان الله عليه - حزنًا شديدًا، وعلىٰ من مات من أصحابه - رضوان الله عليهم -؛ إذ قُتل منهم سبعون، وعدد من أصحابه قد أصيبوا بإصابات مختلفة، وأما هو ﷺ فوقع في حفرة قد حفرها أحد المشركين، ودخلت حلقة من حلقات خوذته - المغفر - في وجنته، وكُسرت أسنانه الرباعية، ونزل الدم علىٰ وجهه الشريف - صلوات الله عليه -.

فكانت الهزيمة نتيجةً لمخالفة الرماة أمر رسول الله ﷺ؛ إذ تركوا الجبل، فاعتلاه المشركون، ووقع ما وقع.

وأنزل الله جَلَّ وَعَلَا قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

قال الإمام السعدي - رحمة الله عليه - في «تفسيره»:

«هذا تسليةٌ من الله تعالىٰ لعباده المؤمنين، حين أصابهم ما أصابهم يوم «أحد»، وقُتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم﴾ من المشركين ﴿مِّثۡلَيۡهَا﴾ يوم بدر؛ فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتم سبعين، فَلْيَهُنِ الأمر ولتَخِفَّ المصيبة عليكم، مع أنكم لا تستوون أنتم وهم؛ فإن قتلاكم في الجنَّة وقتلاهم في النار.

﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ﴾ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟ ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون؛ فعودوا علىٰ

أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٦٥﴾ فإياكم وسوء الظن بالله؛ فإنَّه قادر على نصركم، ولكن له أتمّ الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم، ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]».

غزوة حمراء الأسد

وبعد انتهاء المعركة علم النبيُّ ﷺ بخبرته في القتال وبما أوحاه الله له أنَّ المشركين لن يرجعوا إلىٰ مكة، وإنما سيفكِّرون في الرجوع لغزو المدينة؛ ليتركوها جزعةً، وليقضوا علىٰ جند رسول الله ﷺ، ويستأصلوا شأفتهم.

فقرَّر النبيُّ ﷺ أن يجمع الجنود في اليوم التالي من المعركة ويلاحق جيش المشركين ليبطل عليهم مخططهم، فكانت غزوة «حمراء الأسد»، ولم يقع بها قتال ولا شيء، غير أن مسير رسول الله ﷺ إلىٰ المشركين ونزوله بحمراء الأسد، بثَّ الخوف في نفوس المشركين الذين كانوا قد نزلوا بالروحاء وقرروا أن يرجعوا ليستأصلوا شأفة المسلمين، فلما علم أبو سفيان بأنَّ النبي ﷺ قد جاءه بجيش عظيم؛ قرر هو وجيشه أن يرجعوا إلىٰ مكة؛ خوفًا علىٰ دمائهم، وعلىٰ نصرهم من أن يضيع قبل أن يرجعوا.

ومكث النبي ﷺ بحمراء الأسد ثلاثة أيام، ثم رجع إلىٰ المدينة.

❀❀❀

جراءة المشركين على المسلمين بعد ما وقع في أحد

تحرَّك بعد نكسة أُحدٍ العديدُ من القبائل تجاه المسلمين، فكان النبي ﷺ إذا علم بتحرك قبيلة ضده كان يباغتهم بسرية أو بغزوة؛ حتىٰ يردعهم، وليردَّ الهيبة في قلوبهم من لقاء المسلمين.

غزوة بني النضير

وفي هذه الأحداث المتلاحقة، وتجرؤ المشركون علىٰ المسلمين، بدأ اليهود في المكر والتحالف مع المنافقين والمشركين في المدينة ، حتىٰ وصل بهم الأمر إلىٰ محاولة اغتياله ﷺ، ولكن نجاه الله منهم.

فكان النبي ﷺ عندهم في حيِّهم يتَّفق مع كبرائهم علىٰ دفع الدية لأولياء واحدٍ من القتلىٰ، فاتفق أشقىٰ من في القوم علىٰ الصعود فوق دار يجلس النبي ﷺ بجوار حائط لها، ثم يُلقي بحجر علىٰ رأسه الشريف، وبذلك يكونون قد قضوا علىٰ الإسلام وأهله - في زعمهم -، ولكن الله أوحىٰ لنبيه ﷺ بذلك، فقام النبي ﷺ مسرعًا، وذهب إلىٰ المدينة واجتمع بأصحابه، ثم أصدر قرارًا بإجلائهم من حيِّهم ليخرجوا خارج المدينة، مع إمهالهم عشرة أيام لكي يرحلوا، فكان ذلك لزامًا عليهم ولم يجدوا منه مفرًّا، حتىٰ مع إلحاح ابن سلول عليهم في البقاء علىٰ أن يحارب النبي ﷺ معهم، والذي بثَّ في نفوسهم الأمل، وجعل حيي بن أخطب يتجرأ علىٰ أن يُرسل لرسول الله ﷺ رسالة يقول له فيها: «لن نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك»، فخرج النبيُّ ﷺ بجيشه، وولىٰ علىٰ المدينة ابن أم مكتوم، وسار النبي ﷺ إليهم بجيش يحمل لواءه عليُّ بن أبي طالب، وحاصرهم حتىٰ علموا أنه لا مفرَّ من الخروج، فخرجوا وتركوا ديارهم، وأخذوا معهم ما استطاعوا أخذه عدا السلاح، حتىٰ إنهم كانوا يحملون

الأبواب والنوافذ الخشبية، ويخلعون الأوتاد والأعمدة، حتىٰ خربوا بيوتهم بأيديهم؛ فكان ذلك عقابًا لهم بعدما خانوا العهد والميثاق، وأرادوا الغدر برسول الله ﷺ، ولكن الله نصره عليهم، وفضحهم ثم أخزاهم.

وأنزل الله فيهم قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ﴾ [الحشر: ٢، ٣].

غزوة بدر الثانية

وكانت علىٰ موعد قد اتفق عليه الفريقان من المسلمين ومن عاداهم من قريش، فكانت في شهر شعبان من السنة الرابعة من الهجرة، فخرج النبي ﷺ في ألف وخمسمائة من جند الإسلام العظيم، وخرج أبو سفيان في ألفين من جند الشرك والكفران، ونزل النبي ﷺ بدرًا ومكث بها، غير أن أبا سفيان قد غلبه خوفه وطغىٰ عليه ما نزل به من رعب وهلع، فلم يتمالك نفسه حتىٰ عاد بجيشه بحجَّة أنه لا يريد القتال إلا في عام ذي ثمر وخصب؛ ليأكلوا الثمار ويشربوا الألبان؛ ليتقووا بذلك لكي يستطيعوا مواجهة المسلمين.

وأمَّا النبيُّ ﷺ وأصحابه فمكثوا في بدر ثمانية أيام، ثم عادوا إلىٰ المدينة وقد علمت العرب ما نزل بجند المشركين من خوف من المسلمين، فعادت هيبةُ العرب لجند الإسلام العظيم.

❁❁❁

غزوة الأحزاب وهي الخندق

لما بدأت الأمور تستقر علىٰ غلبة المسلمين وزيادة نفوذهم، وخضوع القبائل لهم؛ زاد الحقد والحسد في نفوس اليهود، حتىٰ اجتمع نفرٌ منهم وخرجوا يبحثون عن تأليب المشركين وقبائل العرب ليحاربوا النبيَّ ﷺ بدعم من اليهود.

كما جاء في «سيرة ابن هشام»: إنّه كان من حديث الخندق: أنَّ نفرًا من اليهود، منهم: سلّام بن أبي الحقيق النّضريّ، وحييُّ بن أخطب النّضريّ، وكنانة بن أبي الحقيق النّضريّ، وهوذة بن قيسٍ الوائليّ، وأبو عمّارٍ الوائليّ، في نفرٍ من بني النَّضير ونفرٍ من بني وائلٍ، وهم الَّذين حزَّبوا الأحزاب علىٰ رسول الله ﷺ؛ خرجوا حتَّىٰ قدموا علىٰ قريشٍ مكّة، فدعوهم إلىٰ حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنّا سنكون معكم عليه حتّىٰ نستأصله. فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنَّكم أهل الكتاب الأوَّل، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمّد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولىٰ بالحقِّ. فهم الَّذين أنزل الله تعالىٰ فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥١، ٥٢] إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ﴾ أي النُّبوَّة ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ

بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٤، ٥٥]. اهـ.

قال ابن إسحاق: فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حربٍ، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدرٍ، في بني فزارة؛ والحارث بن عوف بن أبي حارثة المرّيّ، في بني مرّة؛ ومسعر بن رخيلة بن نويرة بن طريف بن سحمة بن عبد الله بن هلال بن خلاوة بن أشجع بن ريث بن غطفان، فيمن تابعه من قومه من أشجع. اهـ.

فاجتمع حول المدينة جيش عظيم عدده ربَّما فاق عدد المسلمين في المدينة بأضعاف مضاعفة، **وكان ذلك في شوال من السنة الخامسة من الهجرة.**

فاجتمع النبيُّ ﷺ بأصحابه يُشاورهم في الأمر، فأشار عليه سلمان الفارسي – رضوان الله عليه – بفكرة الخندق فقال: «إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا».

فأمر النبي ﷺ بحفر الخندق حول المدينة، وعمل فيه بنفسه؛ ترغيبًا للمسلمين، فسارعوا إلىٰ عمله حتىٰ فرغوا منه، وجاء المشركون فحاصروهم.

يقول ابن حجر في «فتح الباري»: «وذكر ابن إسحاق بأسانيده: أن عدتهم عشرة آلاف، قال: وكان المسلمون ثلاثة آلاف. وقيل: كان المشركون أربعة آلاف والمسلمون نحو الألف. وذكر موسىٰ بن عقبة أن مدة الحصار كانت عشرين يومًا، ولم يكن بينهم قتال إلا مراماة بالنبل والحجارة، وأصيب منها سعد بن معاذ بسهم، فكان سبب موته، كما سيأتي. وذكر أهل المغازي سبب رحيلهم، وأن نعيم بن مسعود الأشجعي ألقىٰ بينهم الفتنة فاختلفوا، وذلك بأمر النبي ﷺ له بذلك. ثم أرسل الله عليهم الريح فتفرَّقوا، وكفىٰ الله المؤمنين

القتال»[١].

فعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرج رسول الله ﷺ إلىٰ الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداةٍ باردةٍ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلمَّا رأىٰ ما بهم من النَّصب والجوع قال: «**اللَّهمَّ إنَّ العيش عيش الآخره، فاغفر للأنصار والمهاجره**». فقالوا مجيبين له: نحن الَّذين بايعوا محمَّدَا علىٰ الجهاد ما بقينا أبدَا»[٢].

وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل التُّراب وقد وارىٰ التُّراب بياض بطنه، وهو يقول: «**لولا أنت ما اهتدينا، ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا. فأنزل السَّكينة علينا وثبِّت الأقدام إن لاقينا. إنَّ الأُلىٰ قد بغوا علينا، إذا أرادوا فتنةً أبينا**»[٣].

فسلَّط الله علىٰ المشركين الريح والبرد، وبدا بينهم الشقاق والخلاف فتفرَّقوا ولم ينالوا شيئًا من جند الإسلام العظيم، وكفىٰ الله المؤمنين القتال.

وكبت الله اليهود والمنافقين لم ينالوا خيرًا، وأنزل الله قوله:

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟

---

(١) انظر «فتح الباري»، باب غزوة الخندق (٧/ ٣٩٣).

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسۡلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقًا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضًا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٠ – ٢٧].

❁❁❁



غزوة بني قريظة

عن عائشة قالت: أُصيب سعدٌ يوم الخندق؛ رماه رجل من قريشٍ يقال له: ابن العرقة، رماه في الأَكْحَل فضرب عليه رسول الله ﷺ خيمةً في المسجد يعوده من قريبٍ، فلمَّا رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السِّلاح فاغتسل، فأتاه جبريل وهو ينفض رأسه من الغبار فقال: وضعت السِّلاح والله ما وضعناه، اخرج إليهم. فقال رسول الله ﷺ: «**فأين؟**». فأشار إلىٰ بني قريظة، فقاتلهم رسول الله ﷺ، فنزلوا علىٰ حكم رسول الله ﷺ، فردَّ رسول الله ﷺ الحكم فيهم إلىٰ سعدٍ؛ قال: فإنِّي أحكم فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تُسبىٰ الذُّرِّيَّة والنِّساء، وتقسم أموالهم(١).

فخرج النبي ﷺ إلىٰ أصحابه بعدما أخذ سلاحه، وأمرهم ألا يصلي أحدهم العصر إلا في بني قريظة.

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** قال النَّبيُّ ﷺ يوم الأحزاب: «**لا يصلِّينَّ أحد العصر إلَّا في بني قريظة**». فأدرك بعضهم العصر في الطَّريق، فقال بعضهم: لا نصلِّي حتَّىٰ نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلِّي، لم يرد منَّا ذلك. فذكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ فلم يعنِّف واحدًا منهم(٢).

فاجتمع جيش رسول الله ﷺ حول بني قريظة، وبدأ الحصار، والذي استمر

(١، ٢) رواه البخاري ومسلم.

نحو خمسٍ وعشرين ليلة، وكان ﷺ قد خيَّر بني قريظة بين الإسلام والقتال والنزول علىٰ حكمه ﷺ ليحكم فيهم بما أراه الله، فأبوا أن يجيبوه.

حتىٰ انتشر في نفوسهم الرعب والهلع، ولم يستطيعوا للحصار تحملًا، فنزلوا علىٰ حكم رسول الله ﷺ بعدما كانوا قد علموا من أبي لُبابة - رضوان الله عليه - أنَّ حكمه ﷺ فيهم هو الذبح، غير أن الرعب والهلع جعلهم يخافون من القتال والجلاد أكثر من النزول علىٰ حكمه ﷺ، فلعلهم ظنوا أنه سيعفو عنهم كما عفا عن أسلافهم من بني قينقاع، أو لعل الهلع والرعب لم يترك لهم بقية من عقل، فلم يُفكروا في خير الخيارات المطروحة عليهم، والذي فيه نجاتهم في الدنيا والآخرة؛ وهو أن يُسلموا لله رب العالمين، بل اختاروا أدنىٰ الخيارات والذي فيه هلاكهم في الدنيا والآخرة؛ وهو النزول علىٰ حكمه ﷺ دون إسلام أو توبة مما فعلوا.

فحكَّم النبي ﷺ فيهم من يرضون هم بحكمه من المسلمين؛ وهو سعد بن معاذ - رضوان الله عليه - وكان مصابًا من غزوة الخندق قد أصيب فيها بسهم فاستدعاه النبي ﷺ.

فعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يقول**: نزل أهل قريظة علىٰ حكم سعد بن معاذٍ، فأرسل النَّبيُّ ﷺ إلىٰ سعدٍ، فأتىٰ علىٰ حمارٍ، فلمَّا دنا من المسجد قال للأنصار: «**قوموا إلىٰ سيِّدكم** - أو: **خيركم** -»، فقال: «**هؤلاء نزلوا علىٰ حكمك**». فقال: تُقتَل مقاتلتهم، وتُسبىٰ ذراريُّهم. قال: «**قضيتَ بِحُكم الله**».

وربَّما قال: «**بحكم الملك**»[١].

وكانت نهاية بني قريظة إذ نَفِذَ فيهم حكم الله من فوق سبع سموات؛ وهو أن تقتل مقاتلتهم - إذ خالفوا العهد والميثاق وتحالفوا مع أحزاب الكفر علىٰ المسلمين في المدينة - وأن تُسبىٰ ذراريهم.

إذ كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفًا وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس وحَجَفَة، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم.

وأمر رسول الله ﷺ فحُبست بنو قريظة في دار بنت الحارث، امرأة من بني النجار، وحُفرت لهم خنادق في سوق المدينة، ثم أُمر بهم، فجعل يذهب بهم إلىٰ الخنادق أرسالًا أرسالًا، وتضرب في تلك الخنادق أعناقهم. فقال من كان بعد في الحبس لرئيسهم كعب بن أسد: ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ أما ترون الداعي لا ينزع؟ والذاهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتل. وكانوا ما بين الستمائة إلىٰ السبعمائة، فضُربت أعناقهم.

❁❁❁

(١) رواه البخاري ومسلم.

غزوة بني المصطلق

وكانت في السنة الخامسة من الهجرة؛ إذ علم النبيُّ ﷺ أنَّ بني المصطلق وقومًا من العرب قد جيَّشوا جيشًا ليحاربوا رسول الله ﷺ، فأرسل من يتأكَّد من الخبر، فلما تأكد خرج بجيش عظيم، يحمل راية المهاجرين فيه أبو بكر الصديق - رضوان الله عليه -، ويحمل راية الأنصار فيه سعد بن عبادة - رضوان الله عليه -، فلمَّا كانوا في طريقهم ألقوا القبض علىٰ عين من أعين بني المصطلق يتجسَّس ليرجع لهم بخبر جيش رسول الله ﷺ، فقُتل، فلمَّا علم الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق ما وقع لجاسوسه؛ أصابه وقومه الخوف والرعب، فبينما هم يسقون إبلهم وماشيتهم من ماء تسمَّىٰ «المُرَيسيع» أغار عليهم ﷺ فقتل مقاتلتهم وسبىٰ ذراريهم.

فعن ابن عونٍ قال: كتبتُ إلىٰ نافعٍ فكتب إليَّ: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ أغار علىٰ بني المصطلق وهم غارُّون، وأنعامهم تُسقىٰ علىٰ الماء، فَقَتَلَ مقاتلتهم، وسبىٰ ذراريَّهم، وأصاب يومئذٍ جويرية»[١].

وانتهت الغزوة بلا قتال ولا نزال، وقُتل جند المشركين وسُبيت ذراريهم، غير أن الأحداث التي وقعت في رحلة الغزوة لم تقف عند هذا الحدِّ.

(١) رواه البخاري ومسلم.

إنَّ المشركين كانوا قد علموا بعد الأحزاب أنهم لن ينالوا من رسول الله ﷺ، ولن يستطيعوا استئصال شأفة المسلمين، بل قد انتشر بينهم الفزع والرعب من جند الإسلام العظيم.

فانحسر الخطر العسكري علىٰ المدينة انحسارًا عظيمًا؛ غير أنه لم ينتهِ بعدُ، ولكنَّ خطرًا عظيمًا قد بدأ في الظهور؛ وهو ما كان من فعل المنافقين في المدينة؛ إذ يبثُّون الشبهات والشائعات في نفوس المسلمين ليردُّوهم عن دينهم، وليُحدثوا القلاقل في أوساط المسلمين.

ومن ذلك ما وقع في هذه الغزوة من بثِّ روح العصبية الجاهلية بين نفوس المسلمين؛ فعن جابرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: غزونا مع النَّبيِّ ﷺ وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتَّىٰ كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعَّاب، فكسع أنصاريًّا، فغضب الأنصاريُّ غضبًا شديدًا، حتَّىٰ تداعوا، وقال الأنصاريُّ: يا للأنصار. وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين. فخرج النَّبيُّ ﷺ فقال: «**ما بال دعوىٰ أهل الجاهليَّة!**». ثمَّ قال: «**ما شأنهم؟!**». فأخبر بكسعة المهاجريِّ الأنصاريَّ، قال: فقال النَّبيُّ ﷺ: «**دعوها؛ فإنَّها خبيثة**». وقال عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول: أقد تداعوا علينا! لئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ. فقال عمر: ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث؟! لعبد الله. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لا يتحدَّث النَّاس أنَّه كان يقتل أصحابه**»[1].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

فها هو رأس المنافقين وكبيرهم لمَّا سمع ما وقع بين أصحاب رسول الله ﷺ أراد ألا ينتهي الأمر عند قول رسول الله ﷺ: «**دعوها؛ فإنَّها خبيثة**» - وفي رواية مسلم: «**دعوها؛ فإنَّها منتنة**»، بل سعىٰ لتكون حربًا أهلية في المدينة بين السكان الأصليين من الأنصار وبين المهاجرين الذين هاجروا إلىٰ الله ورسوله ﷺ في المدينة، ولم يقف عند الإرادة، بل تعدَّىٰ إلىٰ وصف المهاجرين بالذلة، ووصف الأنصار بالعزَّة؛ بحثًا عن تهييج العصبية الجاهلية بين المسلمين.

وأما عبد الله بن عبد الله ابن أبي ابن سلول؛ فتبرأ من أبيه المنافق لمَّا نزل قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿**هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨**﴾ [المنافقون: ٧، ٨].

فوقف علىٰ باب المدينة لمَّا رجع جند الإسلام من الغزوة، ورفع سيفه وقال: والله لا تمر حتىٰ يأذن بذلك رسول الله ﷺ. فلما جاء النبي ﷺ أذن له، فخلي سبيله، وكان قد قال عبد الله بن عبد الله بن أُبيٍّ: يا رسول الله، إن أردت قتله فمرني بذلك، فأنا والله أحمل إليك رأسه.

غير أن النبي ﷺ رفض ضرب عنقه قبلُ؛ حتىٰ لا يتحدَّث المشركون بأن النبيَّ ﷺ يقتل أصحابه؛ إذ كان الوقت وقت شائعات وشبهات وصدٍّ عن دين الإسلام العظيم.

وفي هذه الغزوة كانت حادثة الإفك.



حادثة الإفك

وقد جاء ذكر حادثة الإفك في القرآن الكريم، كما روىٰ الحديث مطولًا البخاريُّ ومسلم، وخلاصة الحادثة: أنَّ عائشة - رضوان الله عليها - كانت قد خرجت مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق، وأثناء عودة الجيش كان الجيش قد نزل بمكان يستريح فيه، وذهبت أُمُّنا عائشة - رضوان الله عليها - تقضي حاجتها، ثم رجعت فتحسست عقدها فلم تجده، فذهبت تبحث عنه، فلمَّا ذهبت انصرف الجيش ولم يشعر بها أحد، فلمَّا رجعت لم تجد من المسلمين أحدًا، فجلست تنتظر؛ ظنًّا منها أنهم إذا ما تفقَّدوا الهودج ووجدوه فارغًا فسيرجعون بحثًا عنها.

فجلست تنتظر النبيَّ ﷺ وجنده حتىٰ نامت، وكان صفوان بن المعطل السُّلمي - رضوان الله عليه - وهو من خيرة أصحاب الرسول ﷺ؛ كان قد تأخَّر عن الجيش، فلما رأىٰ سوادها استرجع - أي: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون - فقامت، تقول: «فخمرت وجهي بجلبابي»، وصعدت علىٰ راحلته، فمضىٰ بها يقودها ماشيًا حتىٰ دخل المدينة.

ثم مرضت أمُّنا عائشة شهرًا، وكان المنافق ابن سلول قد تولىٰ كِبر الإفك، ونشر بين الناس ما نشر، يتهمها في عرضها، ويتهم فيها صفوان بن المعطل، والنبي ﷺ يسأل الناس ممن حوله عن عائشة فيثنون عليها خيرًا كما يثنون علىٰ

صفوان – رضوان الله عليه –، غير أن المنافقين ينشرون بين الناس الإفك والبهتان.

وكان النبي ﷺ يراعي الحالة التي فيها المدينة من انتساب عبد الله بن أبي ابن سلول إلىٰ الخزرج.

فخرج النبي ﷺ إلىٰ مسجده وقال: «**من يعذرني في رجل بلغ أذاه إلىٰ أهل بيتي**».

فعن عائشة – رضوان الله عليها – أنها قالت: «فقام رسول الله ﷺ علىٰ المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول – قالت: – فقال رسول الله ﷺ وهو علىٰ المنبر: «**يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجلٍ قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت علىٰ أهلي إلَّا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلَّا خيرًا، وما كان يدخل علىٰ أهلي إلَّا معي**». فقام سعد بن معاذٍ الأنصاريُّ فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. – قالت: – فقام سعد بن عبادة وهو سيِّد الخزرج – وكان رجلًا صالحًا ولكن اجتهلته الحميَّة – فقال لسعد بن معاذٍ: كذبت! لعمر الله لا تقتله ولا تقدر علىٰ قتله. فقام أسيد بن حضيرٍ وهو ابن عمِّ سعد بن معاذٍ فقال لسعد بن عبادة: كذبت! لعمر الله لنقتلنَّه، فإنَّك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيَّان الأوس والخزرج حتَّىٰ همُّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم علىٰ المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفِّضهم حتَّىٰ سكتوا وسكت»[1].

وأما أم المؤمنين عائشة – رضوان الله عليها – فكانت قد نزل بها الغم

(١) رواه البخاري ومسلم.

والحزن، فكانت في بكاءٍ متواصل وانقطاع عن النوم والطعام؛ إذ يتهمها المنافقون الكافرون بما يتهمونها به، وأما رسول الله ﷺ فلم ينزل عليه الوحي بشيء، ولم يصله إلا الأذىٰ في أهل بيته.

قالت أم المؤمنين عائشة - رضوان الله عليها -: «فبينا نحن علىٰ ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلَّم ثمَّ جلس - قالت: - ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهرًا لا يوحىٰ إليه في شأني بشيءٍ — قالت: - فتشهَّد رسول الله ﷺ حين جلس، ثمَّ قال: «**أمَّا بعد، يا عائشة فإنَّه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئةً فسيبرِّئك الله، وإن كنت ألممت بذنبٍ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنَّ العبد إذا اعترف بذنبٍ ثمَّ تاب؛ تاب الله عليه**». قالت: فلمَّا قضىٰ رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتَّىٰ ما أحسُّ منه قطرةً، فقلت لأبي: أجب عنِّي رسول الله ﷺ فيما قال.

فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت لأمِّي: أجيبي عنِّي رسول الله ﷺ.

فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت وأنا جارية حديثة السِّنِّ لا أقرأ كثيرًا من القرآن: إنِّي والله لقد عرفت أنَّكم قد سمعتم بهذا حتَّىٰ استقرَّ في نفوسكم وصدَّقتم به، فإن قلت لكم: إنِّي بريئة - والله يعلم أنِّي بريئة - لا تصدِّقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ - والله يعلم أنِّي بريئة - لتصدِّقونني، وإنِّي والله ما أجد لي ولكم مثلًا إلَّا كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: ثمَّ تحوَّلتُ فاضطجعت علىٰ فراشي – قالت: – وأنا والله حينئذٍ أعلم أنِّي بريئة، وأنَّ الله مُبَرِّئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظنُّ أن ينزل في شأني وَحْيٌ يُتلىٰ، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلَّم الله عَزَّوَجَلَّ فِيَّ بأمرٍ يُتلىٰ، ولكنِّي كنت أرجو أن يرىٰ رسول الله ﷺ في النَّوم رؤيا يُبَرِّئني الله بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتَّىٰ أنزل الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نبيِّه ﷺ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي، حتَّىٰ إنَّه ليتحدَّر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشَّات من ثقل القول الَّذي أنزل عليه، – قالت: – فلمَّا سرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أوَّل كلمةٍ تكلَّم بها أن قال: «**أبشري يا عائشة، أمَّا الله فقد برَّأك**». فقالت لي أمِّي: قومي إليه. فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلَّا الله، هو الَّذي أنزل براءتي.

قالت: فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ**﴾ [النور: ١١] عشر آياتٍ، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء الآيات براءتي».

عمرة الحديبية

بعدما هاجر المهاجرون من مكَّة إلىٰ المدينة محرومين من حرم الله وبيته العتيق، واستمرُّوا محرومين من الطواف به جهارًا والصلاة فيه منذ أن علم الناس بإسلامهم إلىٰ أن هاجروا، إلىٰ أن رأىٰ النبيُّ ﷺ رؤيا في العام السادس من الهجرة، أي بعد مبعثه - صلوات الله عليه - بقرابة التسعة عشر عامًا، رأىٰ في منامه أنه قد دخل البيت الحرام وأصحابُه، وأخذ مفاتيح الكعبة، وطوَّف بالبيت هو وأصحابه، وأتموا العمرة، ففرح بذلك وأخبر أصحابه ففرحوا، وازداد شوقهم إلىٰ بيت الله الحرام، ثمَّ خرج النبي ﷺ في ألف وخمسمائة من أصحابه يريدون العمرة، وكان ذلك في ذي القعدة من العام السادس من الهجرة، ولم يخرج ﷺ والمسلمون معه بسلاح الحرب، وإنَّما خرجوا بسلاح المسافر.

وسار المسلمون حتىٰ نزلوا بذي الحليفة، فقلَّد النبي ﷺ الهدي لتعلم قريشٌ أنه ما جاء إلا ليعتمر، ولم يأتِ لقتال، غير أنهم مع علمهم بذلك جمعوا للمسلمين الأوباش.

فتجاهل النبي ﷺ ذلك، ولم يتحرَّك لقتال بعدما شاور أصحابه، فكانت نتيجة المشاورة أنهم لا يسعون لقتال أحد، وإنما يقاتلون من يمنعهم من دخول البيت، فاتخذ النبيُّ ﷺ طريقًا وعرًا بعيدًا عن طريق الأوباش؛ ليتحاشىٰ قتال هؤلاء الأوباش.

حتىٰ نزل بالحديبية بعدما بركت راحلته، حتىٰ قال بعض أصحابه: خلأت القصواء - والقصواء هي ناقة رسول الله ﷺ -. فدافع النبي ﷺ عنها وفاءً لها، ولم يرضَ لها بالظلم؛ فقال: «**ما خلأت القصواء، وما كان ذلك لها بخُلُق، وإنما حبسها حابس الفيل**».

ثم قال: «**والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**»، ثم زجرها فوثبت به، فعدل حتىٰ نزل بأقصىٰ الحديبية.

ثم أرسلت قريشٌ رسلًا إلىٰ رسول الله ﷺ يسمعون منه، يريدون بذلك صدَّه عن البيت، والنبي ﷺ يقول لكل من جاءه: أنه ما جاء لقتال، وإنَّما جاء للعمرة، وإن أرادت قريشٌ القتال؛ فإنَّه سيقاتلهم.

ثم أرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقريش، بعدما تعددت رسل قريش ولم يأخذ منهم قولًا بدخول البيت؛ أرسله ﷺ ليخبر قادة قريش أنه ما جاء لقتال، وإنَّما جاء ليعتمر فقط.

غير أن قريشًا احتبست عثمان بن عفان - رضوان الله عليه - حتىٰ يتشاوروا في الأمر، ثم خرجت إشاعة وصلت إلىٰ معسكر المسلمين في الحديبية تقول: إن عثمان قد قتله المشركون في مكَّة.

❁❁❁



البيعة الثالثة
بيعة الرضوان

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

قال الإمام السعدي:

«يخبر تعالىٰ بفضله ورحمته، برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك المبايعة التي بيَّضت وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة، وكان سبب هذه البيعة - التي يقال لها: «بيعة الرضوان»؛ لرضا الله عن المؤمنين فيها، ويقال لها: «بيعة أهل الشجرة» -: أن رسول الله ﷺ لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجئ لقتال أَحَدٍ، وإنَّما جاء زائرًا هذا البيت، معظِّمًا له، فبعث رسول الله ﷺ عثمان بن عفان لمكة في ذلك، فجاء خبر غير صادق؛ أن عثمان قتله المشركون، فجمع رسول الله ﷺ من معه من المؤمنين، وكانوا نحوًا من ألف وخمسمائة، فبايعوه تحت شجرة علىٰ قتال المشركين، وأن لا يفرُّوا حتىٰ يموتوا، فأخبر تعالىٰ أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال، التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات، ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان، ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾؛ شكرًا لهم علىٰ ما في قلوبهم، زادهم هدًىٰ، وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون علىٰ

رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبِّتهم، وتطمئن بها قلوبهم، ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ وهو: فتح خيبر، لم يحضره سوىٰ أهل الحديبية، فاختصوا بخيبر وغنائمها، جزاءً لهم، وشكرًا علىٰ ما فعلوه من طاعة الله تعالىٰ والقيام بمرضاته».

وإذن فهي ثلاث بيعات:

البيعة الأولىٰ: في العام الثاني عشر من البعثة؛ حيث بايع النبيَّ اثنىٰ عشر رجلًا من الأنصار علىٰ الإيمان به.

البيعة الثانية: في السنة الثالثة عشرة من البعثة؛ حيث بايع النبيَّ بضعة وسبعون رجلًا علىٰ الإيمان به، وأن يمنعوه ﷺ مما يمنعون منه أبناءهم وأزواجهم.

البيعة الثالثة: كانت في الحديبية، في السنة السادسة من الهجرة.

❀❀❀

صلح الحديبية

علمت قريشٌ الحالة التي وصل لها معسكر المسلمين، وما كان في بيعة الرضوان، وأنَّهم قد بايعوا رسول الله ﷺ علىٰ الموت؛ فأسرعوا بالإفراج عن عثمان، فرجع عثمان وبايع رسول الله ﷺ، غير أن قريشًا قد تداركت الموقف بإرسال أسهل رجالها وأسمحهم في المعاهدات؛ أرسلوا سهيل بن عمرو، فلمَّا رآه النبيُّ ﷺ وقد كانت الأجواء قد هدأت شيئًا ما، بعدما رجع عثمان - رضوان الله عليه -، فلما رأىٰ النبي ﷺ سهيلًا قال: «**سَهُلَ أمركم**».

قال ابن هشام في «سيرته»: قال ابن إسحاق: قال الزّهريّ: ثمّ بعثَتْ قريشٌ سهيل بن عمرٍو، أخا بني عامر بن لؤيّ، إلىٰ رسول الله ﷺ وقالوا له: ائتِ محمَّدًا فصالحه، ولا يكن في صلحه إلَّا أن يرجع عنَّا عامه هذا، فوالله لا تَحَدَّثُ العرب عنّا أنّه دخلها علينا عنوةً أبدًا.

فأتاه سهيل بن عمرٍو، فلمّا رآه رسول الله ﷺ مقبلًا، قال: «**قد أراد القوم الصُّلح حين بعثوا هذا الرّجل**». فلمّا انتهىٰ سهيل بن عمرٍو إلىٰ رسول الله ﷺ تكلّم فأطال الكلام وتراجعا، ثمّ جرىٰ بينهما الصّلح.

فلمّا التأم الأمر ولم يبقَ إلّا الكتاب وثب عمر بن الخطّاب، فأتىٰ أبا بكرٍ فقال: يا أبا بكرٍ، أليس برسول الله؟ قال: بلىٰ، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلىٰ. قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلىٰ. قال: فعلام نعطي الدّنيّة في ديننا؟ قال

أبو بكرٍ: يا عمر الزم غرزه، فإنّي أشهد أنّه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنّه رسول الله. ثمّ أتىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ألست برسول الله؟ قال: بلىٰ. قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: «**بلىٰ**». قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلىٰ. قال: فعلام نعطي الدّنيّة في ديننا؟ قال: «**أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيّعني**».

قال: فكان عمر يقول: ما زلت أتصدّق وأصوم وأصلّي وأعتق من الَّذي صنعت يومئذٍ؛ مخافة كلامي الَّذي تكلَّمت به، حتّىٰ رجوت أن يكون خيرًا.

قال: ثمّ دعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ - رضوان الله عليه — فقال: «**اكتب: بسم الله الرّحمن الرّحيم**». قال: فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللّهمّ. فقال رسول الله ﷺ: «**اكتب: باسمك اللّهمّ**» فكتبها؛ ثمّ قال: «**اكتب: هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله سهيل بن عمرٍو**». قال: فقال سهيل: لو شهدت أنّك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**اكتب: هذا ما صالح عليه محمّدُ بن عبد الله سهيلَ بن عمرٍو؛ اصطلحا علىٰ وضع الحرب عن النّاس عشر سنين يأمن فيهنّ النّاس ويكفّ بعضهم عن بعضٍ، علىٰ أنّه من أتىٰ محمّدًا - ﷺ - من قريشٍ بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشًا ممّن مع محمّدٍ - ﷺ - لم يردّوه عليه، وإنّ بيننا عيبةً مكفوفةً، وأنّه لا إسلال ولا إغلال، وأنّه من أحبّ أن يدخل في عقد محمّدٍ وعهده دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريشٍ وعهدهم دخل فيه**».

وبينما يكتب النبي ﷺ الكتاب مع سهيل مبعوث قريش؛ إذ جاءه مسلمًا أبو

جندل بن سهيل بن عمرو، فلما رآه أبوه قال: هذا أول ما أعاهدك عليه. فقال رسول الله ﷺ: «**لم نقض الكتاب بعد**»، فقال سهيل: والله لا أقاضيك علىٰ شيء أبدًا. فقال النبي ﷺ: «**إذن أجزه لي**»، فقال سهيل: لا أفعل.

فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أأُردُّ إلىٰ المشركين ليفتنوني في ديني؟!

فقال له رسول الله ﷺ: «**يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم علىٰ ذلك، وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم**».

ثم أمر النبيُّ ﷺ أصحابه أن ينحروا الهدايا، وأن يحلقوا رؤوسهم؛ لأنهم لن يدخلوا البيت هذا العام، وإنَّما سيرجعون، عملًا ببنود الصلح الذي أبرمه مع قريش، فلم يقم أحد من أصحاب رسول الله ﷺ للنحر ولا للحلاقة؛ حزنًا علىٰ رجوعهم بلا عمرة ولا زيارة للبيت.

عن المسور بن مخرمة قال قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا فانحروا، ثمَّ احلقوا**». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتَّىٰ قال ذلك ثلاث مرَّاتٍ، فلمَّا لم يقم منهم أحد دخل علىٰ أمِّ سلمة، فذكر لها ما لقي من النَّاس. فقالت أمُّ سلمة: يا نبيَّ الله، أتحبُّ ذلك؟! اخرج ثمَّ لا تكلِّم أحدًا منهم كلمةً حتَّىٰ تنحر بُدْنَكَ، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلِّم أحدًا منهم، حتَّىٰ فعل ذلك؛ نحر بُدْنَهُ، ودعا حالقه فحلقه. فلمَّا رأوا ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتَّىٰ كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا[(١)].

(١) رواه البخاري.

ثم جاءت نسوة قد أسلمن فلم يردهنَّ رسول الله ﷺ إلىٰ المشركين؛ لأن الله قد أنزل عليه قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾، حتىٰ بلغ: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]؛ فكان رسول الله ﷺ يمتحنهن، فمن أقرَّت بهذه الشروط قال لها: «**قد بايعتك**»، ثم لم يكن يردهن.

«ثمَّ رجع النَّبيُّ ﷺ إلىٰ المدينة، فجاءه أبو بصيرٍ - رجل من قريشٍ - وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الَّذي جعلت لنا. فدفعه إلىٰ الرَّجلين، فخرجا به حتَّىٰ بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمرٍ لهم، فقال أبو بصيرٍ لأحد الرَّجلين: والله إنِّي لأرىٰ سيفك هذا يا فلان جيِّدًا. فاستلَّه الآخر فقال: أجل، والله إنَّه لجيِّد، لقد جرَّبت به ثمَّ جرَّبت. فقال أبو بصيرٍ: أرني أنظر إليه. فأمكنه منه، فضربه حتَّىٰ برد، وفرَّ الآخر، حتَّىٰ أتىٰ المدينة، فدخل المسجد يعدو. فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «**لقد رأىٰ هذا ذعرًا**». فلمَّا انتهىٰ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ قال: قتل والله صاحبي وإنِّي لمقتول. فجاء أبو بصيرٍ فقال: يا نبيَّ الله، قد والله أوفىٰ الله ذمَّتك، قد رددتني إليهم ثمَّ أنجاني الله منهم. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**ويل أمِّه، مِسْعَرَ حربٍ، لو كان له أحد**». فلمَّا سمع ذلك عرف أنَّه سيردُّه إليهم، فخرج حتَّىٰ أتىٰ سيف البحر.

قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيلٍ، فلحق بأبي بصيرٍ، فجعل لا يخرج من قريشٍ رجل قد أسلم إلَّا لحق بأبي بصيرٍ، حتَّىٰ اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بِعِيرٍ خرجت لقريشٍ إلىٰ الشَّأم إلَّا اعترضوا لها، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلىٰ النَّبيِّ ﷺ تناشده بالله والرَّحم لمَّا أرسل، فمن أتاه

فهو آمن، فأرسل النَّبيُّ ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤] حتَّىٰ بلغ ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، وكانت حميَّتهم أنَّهم لم يقرُّوا أنَّه نبيُّ الله، ولم يقرُّوا بـ«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم»، وحالوا بينهم وبين البيت»(١).

ثم كان صلح الحديبية والمعاهدة التي كانت بين المسلمين وقريش سببًا في إقبال الناس علىٰ دين الله أفواجًا، فأسلم عدد غفير من المشركين بعد الصلح وقبل الفتح.

ومن ذلك: ما كان في السنة السابعة من الهجرة؛ إذ أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة، ولما حضروا عند النبي ﷺ قال: «**إن مكة قد ألقت إلينا أفلاذ كبدها**»؛ أسلموا لما سالم رسول الله ﷺ قريشًا وعاهدهم.

وقد صُنِّفت الكتب والرسائل وكُتبت المقالات في فوائد صلح الحديبية، علىٰ ما فيه من ظاهر قد يظنُّه الناس أذًىٰ للإسلام وأهله، ولكن رسول الله ﷺ لا يخالف أمر الله جَلَّ وَعَلَا، والله لا يأمر بشرٍّ أبدًا، بل في التزام أمره كل خير وكل بركة.

حتىٰ قال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العلماء: والمصلحة المترتِّبة علىٰ إتمام هذا الصلح ما ظهر من ثمراته الباهرة وفوائده المتظاهرة، التي كانت عاقبتها فتح مكَّة وإسلام أهلها كلها، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين، ولا تتظاهر عندهم أمور النبي ﷺ كما

(١) رواه البخاري.

هي، ولا يحلّون بمن يُعلِمُهم بها مفصَّلةً.

فلمّا حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين وجاءوا إلىٰ المدينة، وذهب المسلمون إلىٰ مكة، وحلّوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه، وسمعوا منهم أحوال النبي ﷺ مفصّلة بجزئياتها، ومعجزاته الظاهرة، وأعلام نبوته المتظاهرة، وحسن سيرته وجميل طريقته، وعاينوا بأنفسهم كثيرًا من ذلك، فمالت نفوسهم إلىٰ الإيمان، حتىٰ بادر خلق منهم إلىٰ الإسلام قبل فتح مكَّة؛ فأسلموا بين صلح الحديبية وفتح مكة، وازداد الآخرون ميلًا إلىٰ الإسلام، فلما كان يوم الفتح أسلموا كلهم لما كان قد تمهَّد لهم من الميل.

وكانت العرب من غير قريش في البوادي ينتظرون إسلامهم إسلام قريش، فلما أسلمت قريش أسلمت العرب في البوادي، قال تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ [النصر: ١، ٢]»[1] اهـ.

وسترىٰ فيما يلي من سيرته ﷺ كيف تحوَّل الوضع إلىٰ أن راسل رسول الله ﷺ الملوك والحكَّام الذين يحكمون الإمبراطوريات والدول؛ كسرىٰ وقيصر والنجاشي والمقوقس، وكيف كانوا يستقبلون رسائله، ومن عاند منهم كيف بدَّد الله ملكه وأذلَّهُ.

❁❁❁

(١) «شرح صحيح مسلم» (١٢/ ١٤٠).

مكاتبة الملوك

لمَّا استقرَّت الأمور في المدينة بمعاهدة قريش، وإسلام أعظم فرسانها ممن كان يحارب رسول الله ﷺ، وانضمام كتيبة أبي بصير إلىٰ جند الإسلام العظيم، فكان المسلمون في هدنة، لا سيما بعدما أراح الله المسلمين من خطر اليهود في المدينة.

فأرسل النبي ﷺ رسائل ومكاتبات لملوك الأرض يدعوهم إلىٰ الإسلام العظيم، علىٰ أن يحفظ الله عليهم ملكهم في الدنيا، ويربحوا في آخرتهم جنات النعيم.

ومن الملوك الذين كاتبهم النبي ﷺ:

١- أَصْحَمَةُ، وهو النجاشي ملك الحبشة، وقد وصله كتاب رسول الله ﷺ فأسلم وأرسل المهاجرين الأُوَلَ في سفينتين إلىٰ رسول الله ﷺ في المدينة.

٢- فلما مات أصحمة أرسل النبي ﷺ رسالة لمن ولي المُلْك بعده في الحبشة، ولا يُعلم أَقَبِلَ الكتاب أم لا؟

٣- المقوقس ملك مصر، وقد وصله كتاب رسول الله ﷺ؛ فأرسل إليه كتابًا وهدايا، ولكنه لم يُسلم، ونصُّ كتابه:

(بسم الله الرحمن الرحيم: لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد:

فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك).

٤- وأرسل إلىٰ كسرىٰ ملك فارس - وهي إيران اليوم، وكانت مملكة مجوسيَّة -، فلما قُرئ الكتاب علىٰ كسرىٰ مزقه، وقال في غطرسة: عبد حقير من رعيتي يكتب اسمه قبلي! ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «**مزَّق الله ملكه**»، وقد كان كما قال؛ فقد كتب كسرىٰ إلىٰ بَاذَان عامله علىٰ اليمن: ابعث إلىٰ هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به.

وبالفعل أرسل باذان رجلين إلىٰ رسول الله ﷺ ليُحضراه إلىٰ كسرىٰ!! فأمرهما رسول الله ﷺ أن يلقياه غدًا، وكانت دعوة رسول الله دعوة مستجابة؛ فمزَّق الله ملك كسرىٰ، وخرج عليه أحد أبنائه فقتله، فجاء الرجلان إلىٰ رسول الله ﷺ في اليوم التالي فأخبرهما بما وقع لكسرىٰ من القتل، فلم يُصدقا، فقالا: نكتب ذلك عنك لباذان؟ فقال: «**اكتبوا**».

فلما رجعا إلىٰ باذان وأخبراه بالخبر لم يصدِّق حتىٰ جاءه خبر مقتل كسرىٰ، فكان ذلك سببًا في إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن.

٥- وأرسل إلىٰ قيصر ملك الروم، فلما وصل الكتاب إلىٰ قيصر سأل من حوله: هل يوجد من العرب أحدٌ في المملكة؟ وبالفعل كان أبو سفيان - ولم يكن قد أسلم بعد - في مملكته لتجارة يتاجرها، فأحضره وأحضر من معه، وأمره أن يجيبه بالصدق إذا سأله، وأحضر ترجمانًا ليترجم له ما يقوله أبو سفيان.

قال أبو سفيان: أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ فقلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدُّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدَّة لا ندري ما هو فاعل فيها - قال: ولم تمكنني كلمة أُدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة -، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال؛ ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: «**اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم**»، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال قيصر لأبي سفيان: فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه أنه منكم، فلو أني أعلم أني أَخْلُصُ إليه لتجشَّمْت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط، وأمر بنا فأُخرجنا، قال: فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كَبْشَةَ؛ إنه ليخافه ملك بني الأصفر! فما زلت موقنًا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتىٰ أدخل الله عليَّ الإسلام.

ثم أرسل هدايا مع من جاءه من المسلمين بالرسالة، ولكن منعه ملكه من

الإسلام والانقياد لرسول الله ﷺ.

٦- وأرسل إلىٰ المنذر بن ساوي ملك البحرين فأسلم؛ فجعله الرسول ﷺ حاكمًا علىٰ البحرين كما كان ولم يعزله، بل أخبره أنه مهما أصلح واتقىٰ الله فإنه لن يعزله.

٧- وأرسل إلىٰ هوذة بن علي صاحب اليمامة، ولكنه لم يُسلم، وافتخر بملكه ومكانته بين العرب، وأرسل مع رسول رسول الله ﷺ هدايا، فقال رسول الله: «**باد، وباد ما في يديه**»، فمات ولم يُسلم.

٨- وأرسل إلىٰ الحارث بن أبي شمر صاحب دمشق فلم يُسلم، وكان عاملًا من عمال قيصر، فاستأذن قيصر بأن يخرج بجيش إلىٰ رسول الله ﷺ، فلم يأذن له، فردَّ رسول رسول الله ﷺ بالحسنىٰ.

٩- وأرسل إلىٰ ملك عُمان وأخيه، فأسلما، وحكَّمَا عمرو بن العاص رسول رسول الله ﷺ فيهم.

غزوة خيبر

لم يبقَ في الجزيرة يهدِّد أمن المسلمين إلَّا مدينة خيبر، وكانت شمال المدينة ، وكانت مدينة يسكنها اليهود، وقد شاركوا قبلُ في تحزيب الأحزاب والتآمر مع المشركين علىٰ رسول الله ﷺ، فلم يبقَ من خطر يهدد أمن دولة الإسلام بعدما عاهد رسول الله ﷺ قريشًا إلَّا هم.

وقد وعد الله المؤمنين بمغانم كثيرة يأخذونها وهم في صلح الحديبية، قال تعالىٰ: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح: ١٨ - ٢٠].

فكانت الغنائم المُشار إليها في الآيات هي غنائم خيبر.

فخرج النبي ﷺ إلىٰ خيبر حتىٰ وصلها من جهة الشام؛ لكي يقطع عليهم طريق الفرار إلىٰ الشام، ونزل النبي ﷺ بالقرب من خيبر ولم يشعروا به ليلًا، فمكث الجيش حتىٰ صلوا الفجر، ثم صبَّحهم النبي ﷺ، وكانوا قد خرجوا إلىٰ أراضيهم وأعمالهم اليومية، فلما رأوا جيش الإسلام قد أغار عليهم فروا إلىٰ حصونهم يصرخون يقولون: «محمد والخميس، محمدٌ والخميس»، والخميس هو الجيش.

فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، خربت خيبر، الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا

بساحة قوم فساء صباح المنذَرِين».

واختبأ اليهود في حصونهم يتربَّصون ينتظرون بداية المعركة، وعسكر جيش الإسلام أمام حصونهم، وقال النبي ﷺ: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله ﷺ**»، فبات أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يتمنَّىٰ أن يعطيه الرسول ﷺ الراية، حتىٰ قال عمر: ما تمنيت الإمارة إلا حينها. وكان علي بن أبي طالب هو الفارس المختار الذي أعطاه الرسول ﷺ الراية، وقال له: «**انفذ علىٰ رسلك، حتىٰ تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلىٰ الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله، لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم**».

فبدأت المناوشات والمبارزات، وكان من ذلك أن خرج علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالمسلمين إلىٰ أحد حصونهم ، ودعا اليهود إلىٰ الإسلام، فرفضوا هذه الدعوة، وبرزوا إلىٰ المسلمين ومعهم ملكهم مرحب، وقيل - كما عند ابن إسحاق عن سلمة بن عمرو بن الأكوع، قال -: بعث رسول الله ﷺ أبا بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ برايته - وكانت بيضاء؛ فيما قال ابن هشامٍ -، إلىٰ بعض حصون خيبر، فقاتل فرجع ولم يَكُ فتح، وقد جهد، ثمّ بعث الغد عمر بن الخطَّاب، فقاتل ثمّ رجع ولم يك فتح وقد جهد، فقال رسول الله ﷺ: «**لأعطين الرّاية غدًا رجلًا يحبُّ الله ورسوله، يفتح الله علىٰ يديه، ليس بفرّارٍ**»، قال: يقول سلمة: فدعا رسول الله ﷺ عليًّا - رضوان الله عليه - وهو أرمد، فتفل في عينه ثمّ قال: «**خذ هذه الرّاية فامضِ بها حتّىٰ يفتح الله عليك**»، قال: يقول سلمة:

فخرج والله بها يأْنِح يهرول هرولةً، وإنّا لخلفه نتّبع أثره حتّىٰ ركز رايته في رَضْمٍ من حجارةٍ تحت الحصن، فاطّلع إليه يهوديّ من رأس الحصن فقال: من أنت؟ قال: أنا عليّ بن أبي طالبٍ. قال: يقول اليهوديّ: علوتم وما أنزل علىٰ موسىٰ. أو كما قال. قال: فما رجع حتّىٰ فتح الله علىٰ يديه.

فكانت خيبر بها ثمانية حصون، وكانت المعركة ما أن تبدأ حول حصن حتىٰ يفتحه الله للمسلمين، فينتقلون إلىٰ الحصن الذي يليه، واستخدم المسلمون في هذه المعركة المنجنيق ليدكُّوا به الحصون التي تقع فوق الجبال، وكان سلاحًا فعَّالًا بفضل الله جَلَّ وَعَلَا.

وفي هذه المعركة نهىٰ النبي ﷺ عن أكل لحوم الحمر الأهلية؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جاءَهُ جَاءٍ فَقَالَ: أُكِلَتِ الْحُمُرُ. فَسَكَتَ، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَقَالَ: أُكِلَتِ الْحُمُرُ. فَسَكَتَ، ثُمَّ الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: أُفْنِيَتِ الْحُمُرُ. فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَىٰ فِي النَّاسِ: «**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ**». فَأُكْفِئَتِ الْقُدُورُ، وَإِنَّهَا لَتَفُورُ بِاللَّحْمِ[1].

كما حرم النبي ﷺ في خيبر أيضًا نكاح المتعة: فعن الزهري، عن الحسن وعبد الله ابني محمد بن علي، عن أبيهما، عن علي: أن النبي ﷺ نهىٰ عن نكاح المتعة يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الأهلية[2].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

فلما كانت الغلبة للمسلمين أرسل اليهود رسولًا إلىٰ النبيِّ ﷺ يطلب منه المفاوضة، فعرض علىٰ رسول الله ﷺ أن يتركوا ديارهم وأموالهم وكل شيء علىٰ أن يخرجوا من ديارهم دون قتال، وليس مع أحدهم شيء غير ثوبه الذي يستر به جسده، فصالحوه علىٰ ذلك، وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلىٰ المسلمين، وبذلك تمَّ فتحُ خيبر.

وبعد أن استتبَّ الأمر للإسلام وجنده في خيبر جاءت امرأة يقال لها: زينب بنت الحارث، وكانت من يهود خيبر، فعلمت أن النبي ﷺ يحب من الشاة الذراع، فذبحت شاة لها وأنضجتها ووضعت فيها سُمًّا، ثم قدمتها لرسول الله ﷺ ليأكل هو وأصحابه.

فَقَبِلَ النبيُّ ﷺ منها الشاة وبدأ يأكل هو وبعض أصحابه، فأكل النبي ﷺ شيئًا منها، فتكلَّمت ذراع الشاة - وكانت من معجزاته صلوات الله عليه - وأخبرت النبيَّ ﷺ أنها مسمومة، فاستدعىٰ النبيُّ ﷺ زينب بنت الحارث وسألها ما حملك علىٰ ذلك؟!

فقالت: أردت لأقتلك. قال: «**ما كان الله ليُسَلِّطَكِ علىٰ ذاك**»، قالوا: ألا نقتلها؟ قال: «**لا**»، قال - أي: أنس راوي الحديث -: فما زلت أعرفها في لَهَوَات رسول الله ﷺ»[1].

ولهوات: جمع لَهَاة، وهي اللحمة المعلقة داخل الحَلْق، فكان أنس يرىٰ

(١) رواه البخاري ومسلم.

علىٰ لهاة رسول الله ﷺ التغيُّر منذ أن أكل من هذه الشاة.

فعفا النبي ﷺ عن زينت بنت الحارث، وقيل: أسلمت، وقيل: أن أحد الصحابة - وهو بشر بن البراء - لما أكل مع رسول الله ﷺ مات بعدها، فقتلها النبيُّ ﷺ قصاصًا له.

ثم قسم النبي ﷺ الغنائم علىٰ المسلمين، وطلب بعض اليهود أن يبقوا في خيبر يعملوا في أرضها مزارعين، فأبقاهم النبي ﷺ علىٰ أن يأخذوا نصف ما يخرج من الأرض، وللمسلمين النصف الآخر، وكانت غنائم خيبر كثيرة، حتىٰ كان المسلمون يقولون: ما شبعنا من التمر حتىٰ فتح الله علينا خيبر. ورد المهاجرون ما منحه لهم الأنصار من عطايا ومنح بعدما صار لهم في خيبر أموال ونخيل.

وفي هذه الغزوة رجع من كان مهاجرًا الهجرة الأولىٰ إلىٰ الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ، والتحقوا بدولة الإسلام العظيمة.

وأما أهل فَدَك وتيماء فكانوا يهودًا، فلما علموا ما وقع بخيبر قذف الله في قلوبهم الرعب، فأرسلوا إلىٰ النبي ﷺ يطلبون الصلح والمعاهدة، فعاهدهم النبي ﷺ.

وأما وادي القرىٰ فكانوا يهودًا، وانضمَّ إليهم من العرب، فنزل النبي ﷺ وأصحابه عليهم ودعاهم إلىٰ الإسلام فأبوا، فوقع بين المسلمين وبينهم مبارزات، حتىٰ قُتل منهم ما يزيد عن العشرة، فلما لم يجدوا سبيلًا أعطوا ما بأيديهم، وغنم المسلمون منهم، وتركهم النبي ﷺ في ديارهم يعملون بها كما ترك أهل خيبر.

❊❊❊

غزوة ذات الرقاع

اختلف أهل المغازي والسير في تاريخها علىٰ أقوال؛ فمنهم من قال: إنها بعد غزوة بني النضير، ومنهم من قال: بعد الخندق سنة أربع، ومنهم من قال: في سنة خمس. وقد ذهب البخاري إلىٰ أن ذلك كان بعد خيبر، واستدلَّ علىٰ ذلك بأنَّ أبا موسىٰ الأشعري شهدها، وقدومه إنما كان ليالي خيبر صُحبةَ جعفر وأصحابه، وكذلك أبو هريرة، فالأغلب أنها وقعت في شهر ربيع الأول سنة ٧هـ، والله أعلم.

فكانت الغزوة ضد بني ثعلبة وبني مُحَارِب من غطفان، إذ علم النبي ﷺ أنهم جيَّشوا جيشًا لمحاربته ﷺ؛ فخرج إليهم في سبعمائة من جند الإسلام العظيم.

وسُمِّيت بـ«غزوة ذات الرقاع» لما جاء عند البخاري عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع النَّبيِّ ﷺ في غزاةٍ ونحن ستَّة نفرٍ بيننا بعير نعتقبه، فنُقِبَتْ أقدامنا ونُقِبَتْ قدماي وسقطت أظفاري، وكنَّا نلفُّ علىٰ أرجلنا الخرق، فسمِّيت «غزوة ذات الرِّقاع»، لما كنَّا نعصب من الخرق علىٰ أرجلنا[1].

وكانت بها صلاة الخوف، فصلَّىٰ النبي ﷺ ركعتين بنصف الجيش، ثم سلَّموا ودخل في الصلاة النصف الآخر، والنبي ﷺ قائم يصلي بهم جميعًا.

وفيها الحادثة الشهيرة التي رواها جابر - رضوان الله عليه - قال: قاتل

(١) رواه البخاري.

رسول الله ﷺ محارب بن خصفة بنخل، فرأوا من المسلمين غرة، فجاء رجل منهم يقال له: غورث بن الحرث حتىٰ قام علىٰ رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ قال: «**الله عَزَّوَجَلَّ**». فسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «**من يمنعك مني؟**»، قال: كن كخير آخذ. قال: «**أتشهد أن لا إله إلا الله؟**»، قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلَّىٰ سبيله؛ قال: فذهب إلىٰ أصحابه، قال: قد جئتكم من عند خير الناس[(١)].

ونصر الله جنده علىٰ قبائل غطفان، ولم تُرفع لهم رأس بعدها.

وأرسل النبيُّ ﷺ السرايا - هي جمع سرية، وهي جزء من الجيش - يحاربون في سبيل الله إلىٰ أماكن متفرِّقة، حتىٰ جاء موعد عمرة القضاء من بعد عمرة الحديبية.

قال الحاكم: تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هَلَّ ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، وألا يتخلَّف منهم أحد شهد الحديبية، فخرجوا إلا من استُشهد، وخرج معه آخرون معتمرين، فكانت عدتهم ألفين سوىٰ النساء والصبيان. اهـ.

وسمِّيت هذه العمرة بـ«عمرة القضاء»؛ إما لأنها كانت قضاءً عن عمرة الحُدَيْبِيَة، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة - أي المصالحة - التي وقعت في الحديبية، والوجه الثاني رجحه المحققون، وهذه العمرة تسمىٰ بأربعة أسماء:

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، واللفظ عند أحمد.

القضاء، والقَضِيَّة، والقصاص، والصُّلح.

واستمرت السرايا يرسلها رسول الله ﷺ تدعو الناس إلىٰ الله، وتجاهد في سبيله؛ حتىٰ دخل الإسلام أكثر جزيرة العرب، كما كان قد بدأ في الظهور خارجها من خلال المكاتبات والرسائل التي أرسلها الرسول ﷺ إلىٰ ملوك العالم القديم.

❁❁❁



غزوة مؤتة

وكانت خارج جزيرة العرب، إذ كانت في بلاد الشام، وسببها: أن النبي ﷺ أرسل الحارث بن عمير الأسدي إلىٰ عظيم بُصْرَىٰ، فلقيه شُرَحْبِيل بن عمرو الغساني وكان عاملًا علىٰ البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر، فضرب عنقه.

فأخرج له النبيُّ ﷺ ثلاثة آلاف مقاتل، وأمَّر عليهم ثلاثة أمراء، وكان ذلك في جمادىٰ الأولىٰ من العام الثامن من الهجرة.

فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** أمَّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «**إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة**»(١).

ثم خرج الجند، وخرج رسول الله ﷺ مشيعًا لهم حتىٰ بلغ ثنية الوداع، فوقف وودَّعهم.

قال عبد الله: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلىٰ، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية(٢).

وكان النبي ﷺ في المدينة يخبره ربُّه بما يقع في الغزوة وكأنَّه يراها رأي العين.

فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ نعىٰ زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل

(١، ٢) رواه البخاري.

أن يأتيهم خبرهم، فقال: «**أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب** -. وعيناه تذرفان - **حتىٰ أخذ الراية سيف من سيوف الله حتىٰ فتح الله عليهم**»[1].

وكانت تفاصيل المعركة كما يلي:

لما نزل المسلمون بالقرب من مكان المعركة علموا أن هرقل قد نزل بجند يزداد عددهم عن مائة ألف جندي ثم انضم إليهم مائة ألف آخرون، والمسلمون ثلاثة آلاف جندي!

فكان المجلس الاستشاري لقادة الجيش: قالوا: نُرسل لرسول الله ﷺ نخبره بعدد جند العدو أو نقاتل؟ فقال عبد الله بن رواحة أحد القادة الثلاثة: «يا قوم، والله إن التي تكرهون لَلَّتِي خرجتم تطلبون؛ الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدِّين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدىٰ الحُسنيين؛ إما ظهور وإما شهادة»؛ فكان القتال.

وتحرَّك الجيش حتىٰ التقىٰ المشركين في مؤتة، وبدأ القتال المرير؛ ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتي ألف مقاتل. فأخذ الراية زيد بن حارثة وجعل يقاتل بضراوة بالغة، فلم يزل يقاتل حتىٰ شاط في رماح القوم، وخر صريعًا. وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبي طالب، وطفق يقاتل قتالًا منقطع النظير، حتىٰ إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثم قاتل حتىٰ

---

(١) رواه البخاري.

قُطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتىٰ قطعت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعًا إياها حتىٰ قُتل.

وأخذ الراية عبد الله بن رواحة، وأقبل بنفسه علىٰ القتال يقول:

أقسمتُ يا نفس لتنزلِنَّهْ إن أجلب الناس وشدوا الرنه

كارهة أو لتطاوعِنَّهْ ما لي أراكِ تكرهين الجنه

وظل يقاتل حتىٰ قُتل شهيدًا حميدًا - رضوان الله عليه -، فتولىٰ زمام المعركة خالد - رضوان الله عليه -، وكان كما سمَّاه الرسول ﷺ سيفًا من سيوف الله، فعن قيس قال: سمعت خالد بن الوليد يقول: «لقد دُقَّ في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت في يدي صفيحة لي يمانية»[(١)]. [يعني: تكسرت السيوف في يده علىٰ رؤوس المشركين، ولم يبقَ معه إلَّا هذه الصفيحة اليمانية يحارب بها].

واستمر القتال طوال اليوم حتىٰ انقضىٰ النهار، وبات الجيشان ينتظران الصباح لاستكمال المعركة.

غير أن خالدًا كان يبحث عن خدعة حربية تقضي علىٰ الفارق العددي بينه وبين جند المشركين.

فأصبح جند الإسلام علىٰ أمر خالدٍ بأن يغيِّروا أماكنهم، فلما رأىٰ جيش الروم وجوهَ المقاتلين المسلمين قد تغيَّرت كليًّا؛ ظنوا أن المسلمين قد وصلهم

---

(١) رواه البخاري.

مدد من المدينة؛ فامتلأت قلوبهم رعبًا؛ لأنهم لم يكونوا يستطيعون صدَّ المقاتلين في جيش قوامه ثلاثة آلاف فقط، حتىٰ إن الواحد من المسلمين كانت تتكسَّر في يده السيوف ولا يلين، فكيف إذا ما جاءهم المدد؟!

ثم أمر خالدٌ الجيشَ بأن يتقهقر شيئًا فشيئًا، حتىٰ ظنَّ العدو أن المسلمين يصنعون لهم فخًّا؛ فلم يطاردوا المسلمين، ورجع جيش الإسلام ولم يُقتل منه إلا اثنا عشر رجلًا، منهم القادة الثلاثة الذين عيَّنهم النبي ﷺ، وفيه دلالة علىٰ أن الجيش كله كان يقاتل قتالًا شديدًا، فلا فرق بين جندي وقائد، وإنما كانت القيادة هي من تتحمل صدمة القتال الأولىٰ ومواجهة المقدمة.

فرجع الجيش إلىٰ المدينة، وتسامعت العرب بما وقع، وكانت الأخبار كالصاعقة علىٰ من لم يؤمن منهم، فلم يكونوا يتوقعون يومًا أن جيوش الروم الجرارة لا تستطيع النيل من جيش الإسلام.

فلما وقع ذلك ازداد الرعب في نفوس المشركين من جند الإسلام العظيم.

❊❊❊

سرية ذات السلاسل

ثم أرسل النبي ﷺ سرية ذات السلاسل إلىٰ القبائل علىٰ مشارف بلاد الشام، ليفرق جمعهم؛ لأنهم أعانوا الروم في مؤتة، فنصر الله جنده، وكان قائد السرية عمرو بن العاص ومعه أبو عبيدة بن الجراح، وفي الجيش أبو بكر وعمر.

❀❀❀

غزوة فتح مكة

بينما كانت المعاهدة سارية والهدنة قائمة بين المسلمين والمشركين في قريش، وكانت المعاهدة تنصُّ علىٰ أن من والىٰ طرفًا من أطراف المعاهدة التزم بما يلتزم به؛ فمن والىٰ النبي ﷺ من القبائل فيلتزم بما التزم به النبيُّ تجاه قريش، وكذا من والىٰ قريشًا فإنه يلتزم بما تلتزم به قريش تجاه النبيِّ ﷺ والمسلمين، وقريشٌ ملتزمة بأن تُلزم من والاها بما ألزمت به نفسها.

فدخلت خُزَاعَة في عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وصارت كل من القبيلتين في أمن من الأخرىٰ.

ولكنْ بنو بكر نقضوا عهد قريشٍ وخانوا العهد، وقتلوا من خزاعة رجلًا؛ أرادوا بذلك أخذ ثأر قديم كان لهم عند خزاعة قبل الإسلام، وحدثت مقتلة، وزودت قريشٌ بني بكر بالسلاح، وكان ذلك نقضًا لبنود الصلح من قريش وممن والاهم.

قال ابن إسحاق: فلما تظاهرت بنو بكر وقريش علىٰ خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق بما استحلُّوا من خزاعة وكانوا في عقده وعهده؛ خرج عمرو بن سالم الخزاعي ثم أحد بني كعب حتىٰ قدم علىٰ رسول الله ﷺ المدينة - وكان ذلك مما هاج فتح مكة - فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس، فقال:

يـــا رب إني ناشـــد محمـــدًا حلــف أبينــا وأبيــه الأتلــدا

قــد كنــتم ولــدًا وكنــا والــدًا ثمــت أسـلمنا فلــم ننــزع يــدا

فانــصر هــداك الله نــصرًا أعتــدا وادعُ عبـــاد الله يـــأتوا مـــددا

فـــيهم رســـول الله قـــد تجـــردا إن سـيم خـسفًا وجهـه تربـدا

في فيلــق كــالبحر يجــري مزبــدًا إن قريــشًا أخلفــوك الموعــدا

ونقـــضوا ميثاقـــك الموكـــدا وجعلــوا لــي في كــداء رصــدا

وزعمــوا أن لــست أدعــو أحــدًا وهـــم أذل وأقـــل عـــددا

هـــم بيتونـــا بـــالوتير هجـــدًا وقتلونـــا ركعًـــا وســـجدا

يقول: قُتلنا وقد أسلمنا.

فقال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم».

خروج أبي سفيان إلى المدينة لتجديد الصلح!

خرج أبو سفيان بعدما علم أن النبي ﷺ لن يضيِّع حقَّ من دخل في حلفه، وأنه سيقتص لهم القصاص العادل، وأنهم - أي المشركون - قد نقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، وصنعوا ما سيُعاقبون عليه بالحرب التي لا هوادة فيها.

فدخل المدينة يبحث عن أحد من المسلمين ليأخذ منه عهدًا وأمانًا؛ لأنه قد علم أن المؤمنين يسعىٰ بذمتهم أدناهم، وأن النبي ﷺ لا يُجهز علىٰ من أمنه أحدٌ من المسلمين.

فأول ما دخل دخل علىٰ ابنته أم حبيبة وهي زوج نبينا ﷺ، فلما أراد أن يجلس علىٰ فراش رسول الله ﷺ رفضت، وقالت له: إنه فراش رسول الله ﷺ، وإنك رجل كافر نجس. فخرج من عندها ولم يتحصل علىٰ شيء.

ثم خرج حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ فكلَّمه، فلم يرد عليه شيئًا، ثم ذهب إلىٰ أبي بكر فكلَّمه أن يكلِّم رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتىٰ عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلىٰ رسول الله ﷺ؟! فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به. ثم جاء فدخل علىٰ علي بن أبي طالب، وعنده فاطمة، وحسن غلام يدب بين يديهما، فقال: يا علي، إنك أَمَسُّ القوم بي رحمًا، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائبًا، اشفع لي إلىٰ محمد. فقال: ويحك يا أبا سفيان! لقد عزم رسول الله ﷺ علىٰ أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه.

فالتفت إلىٰ فاطمة، فقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلىٰ آخر الدهر؟ قالت: والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد علىٰ رسول الله ﷺ.

وحينئذ أظلمت الدنيا أمام عيني أبي سفيان، فقال لعلي بن أبي طالب في هلع وانزعاج ويأس وقنوط: يا أبا الحسن، إني أرىٰ الأمور قد اشتدت عليَّ، فانصحني. قال: والله ما أعلم لك شيئًا يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الْحَقْ بأرضك. قال: أو ترىٰ ذلك مغنيًا عني شيئًا؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني لم أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره، وانطلق.

ولما قدم علىٰ قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدًا فكلمته، فوالله ما رد علي شيئًا، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أدنىٰ العدو، ثم جئت عليًّا فوجدته ألين القوم، قد أشار عليَّ بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني عني شيئًا أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت. قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويلك! إن زاد الرجل علىٰ أن لعب بك. قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

❁❁❁

الخروج إلى مكة

وأمر رسول الله ﷺ نساءه أن يُجهزن سلاحه، وأمر الناس أن يتجهزوا للخروج، وأخبرهم أنه خارج إلىٰ مكة، وقال: «**اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتىٰ نبغتها في بلادها**». فتجهَّز الناس.

ولما همَّ النبيُّ ﷺ بالخروج؛ كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا وأعطاه لامرأة لتذهب به إلىٰ مكة، فيه أن النبيَّ ﷺ قد خرج إليهم، ونزل الوحي وعلم النبيُّ ﷺ ذلك؛ فأرسل علي بن أبي طالب والمقداد والزبير - رضوان الله عليهم -، وأخبرهم بأنهم سيجدون امرأة في مكان كذا وكذا معها كتاب؛ ائتوني به قبل أن ترسله إلىٰ قريش، وبالفعل وجدوها في المكان المحدد، وأمرها علي - رضوان الله عليه - أن تُخرج الكتاب، فقالت: ليس معي شيء، فقال لها: والله ما كذب رسول الله ﷺ، لتُخرِجِنَّ الكتاب أو لنجرِدَنَّكِ. فأخرجت الكتاب.

ورجعوا به إلىٰ رسول الله ﷺ، وأحضر النبيُّ حاطب بن أبي بلتعة، فقال: لا تعجل علي يا رسول الله، والله إني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدلت، ولكني كنت امرأً مُلْصَقًا في قريش؛ لست من أَنْفَسِهم، ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان مَنْ معك له قرابات يحمونهم، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي. فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنقه؛ فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق.

فقال رسول الله ﷺ: «**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك يا عمر لعلَّ الله قد اطلع علىٰ أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»، فذَرَفَتْ عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم.

فخرج النبي ﷺ بجيشه المكوَّن من عشرة آلاف من المقاتلين الأبطال، وكان ذلك لعشرة أيام بقين من رمضان في العام الثامن من الهجرة.

ولقي النبيُّ ﷺ عمه العباس وأولاده في الطريق، وكان قد أسلم قبل الفتح وذهب مهاجرًا إلىٰ الله ورسوله ﷺ.

ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية، فأعرض عنهما؛ لما كان يلقاه منهما من شدة الأذىٰ والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقىٰ الناس بك. وقال علي لأبي سفيان بن الحارث: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١]، فإنه لا يرضىٰ أن يكون أحد أحسن منه قولًا. ففعل ذلك أبو سفيان؛ فقال له رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وأمر النبي ﷺ العباس أن يُبقي أبا سفيان حتىٰ يرىٰ الكتائب وهي تتحرك، فلما رآها قال للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا. فقال: ويحك أبا سفيان، إنها النبوة. فقال أبو سفيان: نعم إذن. فدخل الإسلام في قلبه وأسلم، ثم حَسُن إسلامه.

وبينما يسير أبو سفيان بجوار جند الإسلام، إذ سمع سعد بن عبادة يقول: اليوم يوم الملحمة، اليوم أحل الله الحرمة، اليوم أذلَّ الله قريشًا.

فذهب بها أبو سفيان إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره، فقال النبي ﷺ: «**بل اليوم تعظم فيه الكعبة، اليوم أعز الله قريشًا**». ثم نزع الراية من سعد بن عبادة وأعطاها ولده قيسًا حتىٰ لا يرىٰ أن الراية قد خرجت عنه، رضوان الله عليهم أجمعين.

وذهب أبو سفيان إلىٰ مكة مسرعًا، وأخبرهم أن النبي ﷺ قد أتاهم بما لا طاقة لهم به، وأنه «**من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن**» - كما أخبره بذلك رسول الله ﷺ إكرامًا له أن كان يحب الفخر - فلما قالوا: وما تغني عنا دارك؛ قال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل بيته فهو آمن.

وأما عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو فقد جهَّزوا أوباشًا ليقاتلوا المسلمين، ولم يقنعوا بما قاله أبو سفيان.

وبدأت كتائب الجيش تدخل خلف قادتها إلىٰ مكة، فأما كتيبة خالد فما وقف أمامها أحد من المشركين إلا أناموه، وأما سفهاء قريش فلقيهم خالد وأصحابه بالخَنْدَمَة فناوشوهم شيئًا من قتال، فأصابوا من المشركين اثني عشر رجلًا؛ فانهزم المشركون، وانهزم حِمَاس بن قيس - الذي كان يعد السلاح لقتال المسلمين - حتىٰ دخل بيته، فقال لامرأته: أغلقي علي بابي.

وأما الزبير فدخل حتىٰ نصب لرسول الله ﷺ رايته، ولم يتركها حتىٰ جاءه الرسول ﷺ عندها.

ثم اتجه رسول الله ﷺ - والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله -

إلىٰ الكعبة، فأقبل إلىٰ الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفي يده قوس، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]، والأصنام تتساقط علىٰ وجوهها.

وكان طوافه علىٰ راحلته، ولم يكن مُحرِمًا يومئذ، فاقتصر علىٰ الطواف، فلما أكمله دعا عثمانَ بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت فدخلها، فرأىٰ فيها الصور فأمر بها فمُحيت.

ثم دخل الكعبة فصلَّىٰ بها ركعتين وكبَّر في أركانها ووحَّد الله، ثم خرج لقريش وقد اصطفوا صفوفًا ينتظرون ما يصنع بهم.

فخرج ﷺ وقال لهم:

«**لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأْثُرَة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين**»، ثم قال: «**يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: «**فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾** [يوسف: ٩٢] **اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

وأهدر النبيُّ ﷺ دم تسعة نفر من المشركين؛ سبعة رجال وقينتين، كانوا يؤذون الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، فقال: «**اقتلوهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة**».

فقتل منهم خمسة ونجا منهم أربعة، أسلموا وأمَّنهم النبي ﷺ وحسُن إسلامهم، منهم: عكرمة بن أبي جهل؛ أسلم وجاهد في سبيل الله حتىٰ قُتل شهيدًا.

وعبد الله بن أبي السرح أسلم أيضًا وجاء به عثمان ملحًّا علىٰ النبي أن يبايعه علىٰ الإسلام فبايعه وأمنه.

وأما هبار بن الأسود فهرب يوم الفتح وأسلم وحسن إسلامه.

وإحدىٰ الجاريتين أسلمت والأخرىٰ قُتلت.

ثم أمر خالدًا بهدم العزىٰ، وكانت بيتًا لأحد أصنامهم يعظمونه، فذهب إليها وهدمها، ثم عاد إلىٰ النبي ﷺ.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة.

وأقبل أهل مكة يُسلمون ويبايعون رسول الله ﷺ علىٰ الإسلام، فجلس يبايعهم ﷺ، فبايع الرجال ثم النساء.

وجاءت هند بنت عتبة متنكرةً؛ خشية أن يعرفها النبي ﷺ؛ إذ هي مَنْ حرَّض علىٰ قتل حمزة - رضوان الله عليه -، وعمر يبلغ النساء ما يقوله رسول الله ﷺ من أمر البيعة، فبايعهن علىٰ ألا يشركن بالله شيئًا، ثم قال رسول الله ﷺ: «**ولا تسرقن**»؛ فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، فإن أنا أصبت من ماله هنات؟ فقال أبو سفيان: وما أصبت فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال: «**وإنك لهند؟**» قالت: نعم، فاعفُ عمَّا سلف يا نبي الله، عفا الله عنك.

فقال: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ [الممتحنة: ١٢]. فقالت: أو تزني الحرة؟!

فقال: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢]. فقالت: ربيناهم صغارًا، وقتلتموهم كبارًا، فأنتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قتل يوم بدر -.

فضحك عمر حتىٰ استلقىٰ فتبسَّم رسول الله ﷺ.

قال: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق.

فقال: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك.

ولمَّا رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول: كُنَّا منك في غُرور.

إخبار النبي ﷺ الأنصار بأنه سيرجع إلى المدينة

وخشي الأنصار أن يقيم النبي ﷺ في مكة بلده القديم، فقال النبي ﷺ بعدما سمع منهم ذلك: «**المحيا محياكم، والممات مماتكم**».

لكنه ﷺ ما خرج من مكة إلىٰ المدينة مباشرة، ولكنه خرج إلىٰ غزوة حنين.

❁❁❁



غزوة حنين

لما فتح الله علىٰ المسلمين مكة؛ ازداد حنق وحقد بعض القبائل المجاورة لمكَّة علىٰ الإسلام والمسلمين، وتجهَّزوا لقتال النبي ﷺ، وهي من بطون هوازن وثقيف، واجتمعت إليها نَصْرٌ وجُشَمٌ وسعد بن بكر وناس من بني هلال، وتجهزوا للحرب، وعلم بذلك رسول الله ﷺ، وكان ذلك في شهر شوال من السنة الثامنة من الهجرة؛ أي بعد الفتح مباشرة، وحنينٌ وادٍ يبعد عن مكة بمسيرة ثلاث ليالٍ؛ فخرج النبي ﷺ إلىٰ حنين من مكة.

وهي الغزوة التي نزل فيها قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

قال العلامة السعدي في تفسير الآية:

«يمتنُّ تعالىٰ علىٰ عباده المؤمنين، بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواضع الحروب والهيجاء، حتىٰ في يوم «حنين» الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار ما ضاقت عليهم به الأرض علىٰ رحبها وسعتها.

وذلك أن النبيَّ ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار

إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، وممن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفًا، والمشركون أربعة آلاف، فأُعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلَّةٍ.

فلما التقوا هم وهوازن حملوا علىٰ المسلمين حملة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد علىٰ أحد، ولم يبقَ مع رسول الله ﷺ إلا نحو مائة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يُرْكِضُ بغلته نحو المشركين ويقول: «**أنا النبيُّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**».

ولما رأىٰ من المسلمين ما رأىٰ، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة.

فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا علىٰ معسكرهم ونسائهم وأموالهم.

وذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ [التوبة: ٢٥]، وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف» اهـ.

وفرَّت فلول المشركين إلىٰ أماكن شتىٰ، فأرسل النبي خلفهم من أرسل؛ وتوجَّه هو ﷺ خلف من فر إلىٰ الطائف، وقضىٰ الله علىٰ جيش المشركين، وكان حصار دام لأيام كثيرة، وسُمِّي فيه أبو بكرة بهذا الاسم؛ لأنه نزل من حصن المشركين ولم يكن قد أسلم بعد ونادىٰ منادي الرسول ﷺ فيهم: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا؛ فهو حُرٌّ.

فتدلىٰ أبو بكرة ببكرة مستديرة ونزل من الحصن، فسمَّاه النبيُّ ﷺ بأبي بكرة، ورفع النبي ﷺ الحصار عنهم، ثم دعا لثقيف بالهداية ومضىٰ - ﷺ -.

وقسَّم النبي ﷺ الغنائم علىٰ المسلمين في الجعرانة، فأعطىٰ المؤلفة قلوبهم ومسلمي الفتح، وظلَّ يعطيهم ويعطيهم، حتىٰ إنه أعطىٰ أبا سفيان وأبناءه - رضوان الله عليهم - عشرين ومائة أوقية وثلاثمائة من الإبل، ثم أعطىٰ المجاهدين من المهاجرين والأنصار كل واحد أربعة من الإبل أو أربعين من الشاة.

فقال من قال من الأنصار: إن النبي ﷺ يعطي قومه!

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فجمعهم وقال: «**يا معشر الأنصار، ما قَالَةٌ بلغتني عنكم، وَجِدَةٌ وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلالًا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟**» قالوا: بلىٰ، الله ورسوله أَمَنُّ وأَفْضَلُ.

ثم قال: «**ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟**» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المنُّ والفضل. قال: «**أما والله لو شئتم لقلتم، فصَدَقْتُمْ ولصُدِّقْتُمْ: أتيتنا مُكَذَّبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسَيْنَاك**».

«**أوَجَدْتُمْ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لَعَاعَةٍ من الدنيا تَأَلَّفتُ بها قومًا ليُسْلِمُوا، ووَكَلْتُكم إلىٰ إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلىٰ رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبًا، وسَلكتِ الأنصار شعبًا لسلكتُ شعب الأنصار، اللَّهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار**».

فبكىٰ القوم حتىٰ أَخْضَلُوا لِحَاهُم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسْمًا

وحظًّا. ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرَّقوا.

ثم أهلَّ النبي ﷺ بعمرة في ذي القعدة، ثم رجع إلىٰ المدينة.

وأرسل النبي ﷺ في العام التاسع من الهجرة عُمَّاله لجمع الزكاة من القبائل والبلدان المسلمة.

كما أرسل سراياه للدعوة إلىٰ الإسلام تارة، ولتأديب بعض القبائل المتمردة تارة، ولهدم الأصنام المتبقية في جزيرة العرب تارة أخرىٰ.

❀❀❀

غزوة تبوك آخر غزوات النبي ﷺ

هي آخر غزوة غزاها النبي ﷺ بنفسه، وكانت ضد الروم، وسببها أن ملك الروم لما وقع ما وقع في غزوة مؤتة، والتقىٰ جيش المسلمين المكون من ثلاثة آلاف مع جيش الرومان المكون من مائتي ألف ولم يستطيعوا هزيمة المسلمين، وانتشر ذلك في العرب والعجم؛ كان ذلك دافعًا لملك الروم أن يُعد جيشًا لكي يثأر لسمعته التي تأثرت بشكل أو بآخر بعد غزوة مؤتة.

وكانت الأخبار قد وصلت المدينة أن هذا الغساني ملك الروم قد أعدَّ جيشًا من أربعين ألفًا وسيهجم به علىٰ مدينة الرسول ﷺ ليفتك بالمسلمين، حتىٰ إنهم كانوا إذا سمعوا جلبة ظنُّوا أن ذلك جيش الروم قد دخل المدينة، وعاش المسلمون في ترقُّب، حتىٰ أمر النبي ﷺ جندَ الإسلام أن تستعد ليُباغِتَ هذا الغساني المتعجرف في داره قبل أن يتحرك بجيشه ويبدأ في الاستيلاء علىٰ المدن والقبائل التي أصبح ولاؤها للإسلام وأهله، أو صارت تحت إدارة المسلمين؛ يدفعون الجزية ويوالون أولياءه ويعادون أعداءه.

فأرسل النبي ﷺ إلىٰ مكة وإلىٰ المدن المسلمة أن ترسل فرسانها، والعدة المطلوبة لحرب الروم.

وكان جيش غزوة تبوك هو جيش العُسْرة؛ لأنه قد وصل عدد جنده ثلاثين ألفًا، وكانت العدة والعتاد لا تكفي كل هذا العدد الكبير من الجنود، حتىٰ كان

البضعة عشر من الجند يتعاقبون علىٰ بعير واحد.

وكانت الصدقة العظيمة من عثمان بن عفان – رضوان الله عليه –؛ إذ ردَّ قافلة تجارية كان قد أرسلها لتتاجر في الشام وتصدَّق بها لتجهيز جيش العسرة جيش المعركة، ثم تصدق وتصدق وتصدق حتىٰ بلغت صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس، هذا غير النقود التي بذلها لله جَلَّوَعَلَا لتجهيز الجيش، حتىٰ قال رسول الله ﷺ: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم»[(١)].

وتصدق عبد الرحمن بن عوف، وتصدق أبو بكر، وتصدق عمر، وتصدَّق الصحابة، وكانت الغزوة في وقت شديد الحرارة.

وخرج النبي ﷺ في ثلاثين ألفًا، وكان ذلك في رجب من السنة التاسعة من الهجرة.

عن معاذ بن جبلٍ قال: «إنَّهم خرجوا مع رسول الله ﷺ عام تبوك، فكان رسول الله ﷺ يجمع بين الظُّهر والعصر، والمغرب والعشاء؛ قال: فأخَّر الصَّلاة يومًا ثمَّ خرج فصلَّىٰ الظُّهر والعصر جميعًا، ثمَّ دخل، ثمَّ خرج فصلَّىٰ المغرب والعشاء جميعًا، ثمَّ قال: «**إنَّكم ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنَّكم لن تأتوا حتَّىٰ يضحي النَّهار، فمن جاءها فلا يمسَّ من مائها شيئًا حتَّىٰ آتي**»، قال: فجئناها وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الشِّراك تبضُّ بشيءٍ من ماءٍ، فسألهما رسول الله ﷺ: «**هل مسستما من مائها شيئًا؟**»، فقالا: نعم. فسبَّهما، وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثمَّ غرفوا من العين بأيديهم قليلًا قليلًا حتَّىٰ

(١) رواه الترمذي.

اجتمع في شَنٍّ، ثمَّ غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه، ثمَّ أعاده فيها؛ فجرت العين بماءٍ كثيرٍ، فاستقىٰ النَّاس، ثمَّ قال رسول الله ﷺ: «**يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترىٰ ما هنا قد مُلئ جنانًا**»[1].

ثم نزل النبي ﷺ وجند الإسلام العظيم تبوك، وعسكروا بها، وخطبهم النبي ﷺ خطبة وعظهم فيها وحفَّزهم.

وكانت الأخبار قد بدأت تصل إلىٰ جيش الرومان أن النبيَّ ﷺ قد خرج بنفسه في جيش كبير واتجه تجاههم، فدبَّ الرعب في نفوسهم وتفرَّقوا في البلاد، ولم يبقَ أحد منهم في معسكره.

فلما وقع ذلك وعلمت به القبائل والمدن الموالية للروم علىٰ حدود دولتهم، والواقعة بين المدن التابعة للمسلمين في الجزيرة وحدود دولة الرومان في الشام؛ ذهبت رسل بعض هذه القبائل والمدن إلىٰ النبي ﷺ تعطيه ولاءها علىٰ دفع الجزية، وأن تدخل في ولايته؛ توالي من والىٰ وتُعادي من عادىٰ.

واتسعت دولة الإسلام حتىٰ بلغت حدود دولة الرومان.

وعاد النبي ﷺ بالجيش، وكفاهم الله القتال، وانتشر بين العجم والعرب ما كان من هروب جيش الرومان، وأصبح العالم كله يخاف جيش الإسلام العظيم.

وكانت هذه الغزوة هي الغزوة التي تخلَّف فيها الثلاثة نفر من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا من المؤمنين الصادقين، وتخلف أيضًا مَن تخلَّف من المنافقين.

---

(١) رواه مسلم.

ذكر قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا

قال كعب بن مالكٍ: لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها قطُّ إلَّا في غزوة تبوك، غير أنِّي قد تخلَّفت في غزوة بدرٍ ولم يعاتب أحدًا تخلَّف عنه، إنَّما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريشٍ حتَّىٰ جمع الله بينهم وبين عدوِّهم علىٰ غير ميعادٍ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا علىٰ الإسلام، وما أحبُّ أنَّ لي بها مشهد بدرٍ وإن كانت بدر أذكر في النَّاس منها.

وكان من خبري حين تخلَّفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك: أنِّي لم أكن قطُّ أقوىٰ ولا أيسر منِّي حين تخلَّفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قطُّ حتَّىٰ جمعتهما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ، واستقبل سفرًا بعيدًا، ومفازًا، واستقبل عدوًّا كثيرًا، فجلَّىٰ للمسلمين أمرهم ليتأهَّبوا أهبة غزوهم؛ فأخبرهم بوجههم الَّذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظٍ - يريد بذلك الدِّيوان -.

قال كعب: فقلَّ رجل يريد أن يتغيَّب يظنُّ أنَّ ذلك سيخفىٰ له ما لم ينزل فيه وحي من الله عَزَّوَجَلَّ وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثِّمار والظِّلال فأنا إليها أَصْعَر، فتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معهم فأرجع ولم أقضِ شيئًا، وأقول في نفسي: أنا قادر علىٰ ذلك إذا أردت. فلم يزل ذلك يتمادىٰ بي حتَّىٰ استمرَّ بالنَّاس الجدُّ فأصبح رسول الله ﷺ

غاديًا والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئًا، ثمَّ غدوت فرجعت ولم أقضِ شيئًا، فلم يزل ذلك يتمادىٰ بي حتَّىٰ أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فأدركهم فيا ليتني فعلت، ثمَّ لم يقدَّر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في النَّاس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أنِّي لا أرىٰ لي أسوةً إلَّا رجلًا مغموصًا عليه في النِّفاق، أو رجلًا ممَّن عذر الله من الضُّعفاء. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتَّىٰ بلغ تبوكًا فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «**ما فعل كعب بن مالكٍ؟**». قال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه والنَّظر في عطفيه! فقال له معاذ بن جبلٍ: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلَّا خيرًا. فسكت رسول الله ﷺ.

فبينما هو علىٰ ذلك رأىٰ رجلًا مبيِّضًا يزول به السَّراب، فقال رسول الله ﷺ: «**كن أبا خيثمة**». فإذا هو أبو خيثمة الأنصاريُّ، وهو الَّذي تصدَّق بصاع التَّمر حين لمزه المنافقون.

فقال كعب بن مالكٍ: فلمَّا بلغني أنَّ رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلًا من تبوك حضرني بثِّي، فطفقت أتذكَّر الكذب وأقول: بم أخرج من سخطه غدًا؟! وأستعين علىٰ ذلك كلَّ ذي رأيٍ من أهلي، فلمَّا قيل لي: إنَّ رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادمًا؛ زاح عنِّي الباطل حتَّىٰ عرفت أنِّي لن أنجو منه بشيءٍ أبدًا؛ فأجمعت صدقه، وصبَّح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفرٍ بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثمَّ جلس للنَّاس، فلمَّا فعل ذلك جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلًا؛ فقبل منهم رسول الله ﷺ

علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكَّل سرائرهم إلىٰ الله، حتَّىٰ جئت فلمَّا سلَّمت تبسَّم تبسُّم المغضب، ثمَّ قال: «**تعالَ**». فجئت أمشي حتَّىٰ جلست بين يديه فقال لي: «**ما خلَّفك؟! ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟!**». قال: قلت: يا رسول الله، إنِّي والله لو جلست عند غيرك من أهل الدُّنيا لرأيت أنِّي سأخرج من سخطه بعذرٍ، ولقد أُعطيت جدلًا، ولكنِّي والله لقد علمت لئن حدَّثتك اليوم حديث كذبٍ ترضىٰ به عنِّي ليوشكنَّ الله أن يُسخطك عليَّ، ولئن حدَّثتك حديث صدقٍ تجد عليَّ فيه إنِّي لأرجو فيه عقبىٰ الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قطُّ أقوىٰ ولا أيسر منِّي حين تخلَّفت عنك. قال رسول الله ﷺ: «**أمَّا هذا فقد صدق، فقم حتَّىٰ يقضي الله فيك**». فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتَّبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلىٰ رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلَّفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤنِّبونني حتَّىٰ أردت أن أرجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأكذِّب نفسي. – قال: – ثمَّ قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحدٍ؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك – قال: – قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن ربيعة العامريُّ وهلال بن أميَّة الواقفيُّ – قال: – فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فيهما أسوة، – قال: – فمضيت حين ذكروهما لي.

قال: ونهىٰ رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيُّها الثَّلاثة من بين من تخلَّف عنه، – قال: – فاجتنبنا النَّاس– وقال: – تغيَّروا لنا حتَّىٰ تنكَّرت لي في

نفسي الأرض فما هي بالأرض الَّتي أعرف، فلبثنا علىٰ ذلك خمسين ليلةً؛ فأمَّا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأمَّا أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصَّلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلِّمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصَّلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السَّلام أم لا؟ ثمَّ أصلِّي قريبًا منه وأسارقه النَّظر، فإذا أقبلت علىٰ صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنِّي، حتَّىٰ إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين مشيت حتَّىٰ تسوَّرت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمِّي وأحبُّ النَّاس إليَّ، فسلَّمت عليه فوالله ما ردَّ عليَّ السَّلام؛ فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمنَّ أنِّي أحبُّ الله ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي وتولَّيت حتَّىٰ تسوَّرت الجدار.

فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطيّ من نبط أهل الشَّام ممَّن قدم بالطَّعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلُّ علىٰ كعب بن مالكٍ؟ - قال: - فطفق النَّاس يشيرون له إليَّ حتَّىٰ جاءني فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسَّان، وكنت كاتبًا؛ فقرأته فإذا فيه: أمَّا بعد؛ فإنَّه قد بلغنا أنَّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مضيعةٍ فالحق بنا نواسك. قال: فقلت حين قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء. فتيمَّمت بها التَّنُّور فسجرتها بها.

حتَّىٰ إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث الوحي إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال:

فقلت: أطلِّقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنَّها. – قال: – فأرسل إلىٰ صاحبيَّ بمثل ذلك، – قال: – فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتَّىٰ يقضي الله في هذا الأمر. – قال: – فجاءت امرأةُ هلال بن أميَّة رسولَ الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إنَّ هلال بن أميَّة شيخ ضائع ليس له خادم؛ فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «**لا، ولكن لا يقربنَّك**». فقالت: إنَّه والله ما به حركة إلىٰ شيءٍ، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلىٰ يومه هذا.

قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أميَّة أن تخدمه! – قال: – فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شابٌّ. – قال: – فلبثت بذلك عشر ليالٍ فكمل لنا خمسون ليلةً من حين نهىٰ عن كلامنا، – قال: – ثمَّ صلَّيت صلاة الفجر صباح خمسين ليلةً علىٰ ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالس علىٰ الحال الَّتي ذكر الله عَزَّوَجَلَّ منَّا؛ قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخٍ أوفىٰ علىٰ سَلْعٍ يقول بأعلىٰ صوته: يا كعب بن مالكٍ أبشر! – قال: – فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج.

– **قال**: – فآذن رسول الله ﷺ النَّاس بتوبة الله علينا حين صلَّىٰ صلاة الفجر؛ فذهب النَّاس يبشِّروننا، فذهب قبل صاحبيَّ مبشِّرون، وركض رجل إليَّ فرسًا؛ وسعىٰ ساعٍ من أسلم قبلي وأوفىٰ الجبل؛ فكان الصَّوت أسرع من الفرس، فلمَّا جاءني الَّذي سمعت صوته يبشِّرني فنزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إيَّاه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذٍ، واستعرت ثوبين فلبستهما، فانطلقت

أتأمَّم رسول الله ﷺ يتلقَّاني النَّاس فوجًا فوجًا يهنِّئوني بالتَّوبة، ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك.

حتَّىٰ دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله النَّاس، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتَّىٰ صافحني وهنَّأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلمَّا سلَّمت علىٰ رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السُّرور ويقول: «**أبشر بخير يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك**». قال: فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ فقال: «**لا، بل من عند الله**». وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنَّ وجهه قطعة قمرٍ، - قال: - وكنَّا نعرف ذلك، - قال: - فلمَّا جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقةً إلىٰ الله وإلىٰ رسوله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «**أَمسك بعض مالك فهو خير لك**». قال: فقلت: فإنِّي أمسك سهمي الَّذي بخيبر، - قال: - وقلت: يا رسول الله، إنَّ الله إنَّما أنجاني بالصِّدق، وإنَّ من توبتي أن لا أحدِّث إلَّا صدقًا ما بقيت، - قال: - فوالله ما علمت أنَّ أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلىٰ يومي هذا أحسن ممَّا أبلاني الله به، والله ما تعمَّدت كذبةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلىٰ يومي هذا، وإنِّي لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ

ﭐلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾، حتَّىٰ بلغ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٧- ١١٩]، قال كعب: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمةٍ قطُّ بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الَّذين كذبوا إنَّ الله قال للَّذين كذبوا، حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحدٍ، وقال الله: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦].

قال كعب: كنَّا خُلِّفنا أيُّها الثَّلاثة عن أمر أولئك الَّذين قَبِلَ منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتَّىٰ قضىٰ الله فيه، فبذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ [التوبة: ١١٨]، وليس الَّذي ذكر الله ممَّا خلِّفنا تخلُّفنا عن الغزو، وإنَّما هو تخليفه إيَّانا وإرجاؤه أمرنا عمَّن حلف له واعتذر إليه، فقَبِلَ منه(١).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

إمارة أبي بكر الصديق على الحج في السنة التاسعة

وكانت أول سنة يكون الحج فيها تحت راية الإسلام والمسلمين، فبعد فتح مكة لم يَعُدْ بالبيت أصنام، ولم يحجَّ بالبيت مشرك ولا عريان، وأرسل النبي ﷺ أميرًا علىٰ الحج أبا بكر الصديق - رضوان الله عليه -، ثم نزلت أوائل سورة «براءة» بنقض المواثيق ونبذها علىٰ سواء، فبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ليؤدي عنه ذلك، وذلك تمشياً منه علىٰ عادة العرب في عهود الدماء والأموال، فالتقي عليٌّ بأبي بكر بالعَرْج أو بضَجْنَان، فقال أبو بكر: أمير أو مأمور؟ قال علي : لا، بل مأمور. ثم مضيا، وأقام أبو بكر للناس حجهم.

❁❁❁

دخول الناس في دين الله أفواجًا

فلما استتبت الجزيرة العربية للنبي ﷺ ولجند الإسلام العظيم، وانتشرت دعوة الإسلام دون تشويه أو تزييف من المشركين؛ علم الناس حقيقة الرسالة وعظمة الإسلام، وجاءت الوفود إلىٰ رسول الله ﷺ في المدينة تبايعه علىٰ الإسلام.

فجاء وفد بلي في ربيع الأول سنة ٩ من الهجرة، وبايعوا النبي ﷺ علىٰ الإسلام، وجاء وفد ثقيف في رمضان من نفس العام، وكانوا قد دعاهم إلىٰ الإسلام كبيرهم عروة بن مسعود الثقفي فقتلوه، فلما قتلوه تشاوروا وأرسلوا وفدًا إلىٰ رسول الله ﷺ، فمكثوا عند النبي ﷺ يسمعون منه الإسلام وتعاليمه، وأسلم الوفد، ولمَّا رجع خشي الوفد أن يُظهر إسلامه لثقيف فيُقتل كما قُتل عروة بن مسعود الثقفي، فأخبروهم بما سمعوا من رسول الله ﷺ وتركوا لهم الأمر، فأسلموا وأظهر الوفد إسلامه، وحسن إسلامهم جميعًا.

كذا أسلم ملوك اليمن ملوك حمير، وأرسلوا رسولهم لرسول الله ﷺ يخبره بإسلامهم، فأرسل النبي ﷺ لهم رسالة فيها بيان ما يجب عليهم، وأرسل إليهم معاذ بن جبل ليكون قاضيًا وإمامًا يصلِّي بهم الصلاة، ويعلمهم أمور دينهم.

وكذلك أرسلت همدان رسولها لتستفسر عن الإسلام؛ فأرسل النبي ﷺ لهم خالد بن الوليد ثم علي بن أبي طالب، فأسلموا علىٰ يد علي - رضوان الله عليه -.

ووفد بني فزارة جاءوا إلىٰ النبي ﷺ وأعلنوا إسلامهم، ودعا لهم النبي ﷺ بنزول المطر.

ثم جاء وفد نجران، وكانت مدينة كبيرة تتكوَّن من ثلاث وسبعين قرية، وجيشها قوامه مائة ألف مقاتل، وكانت تجاه اليمن، فأرسلوا وفدهم إلىٰ رسول الله ﷺ، وكانوا نصارىٰ، فسمعوا من رسول الله ﷺ قوله في عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وصالحوا النبي ﷺ علىٰ الجزية، وطلبوا من النبي ﷺ إرسال رجل أمين لهم ليحصِّل منهم الجزية، فكان أبو عبيدة بن الجراح، وبدأ الإسلام يدخل في بلادهم حتىٰ قيل: إن العاقب والسيد زعيمي نجران قد أسلما بعد رجوعهما من المدينة.

وجاء وفد بني حنيفة ، وكان فيهم مسيلمة الكذاب وكان متكبرًا.

عن ابن عبَّاسٍ، قال: قدم مسيلمة الكذَّاب علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ المدينة، فجعل يقول: إنْ جعل لي محمَّد الأمر من بعده تبعته. فقدمها في بشرٍ كثيرٍ من قومه، فأقبل إليه النَّبيُّ ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شمَّاسٍ، وفي يد النَّبيِّ ﷺ قطعة جريدةٍ حتَّىٰ وقف علىٰ مسيلمة في أصحابه قال: «**لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن أتعدَّىٰ أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنَّك الله، وإنِّي لأراك الَّذي أريت فيك ما أريت، وهذا ثابت يجيبك عنِّي**». ثمَّ انصرف عنه[1].

وكذلك جاء وفد تُجيب، وساق معه صدقات قومه، وكان الوفد حريصًا علىٰ تعلُّم القرآن والسنة، وكان فيهم غلامٌ سأل النبي أن يدعو له بأن يغفر له ويرحمه وأن يجعل غناه في قلبه، فدعا له النبي ﷺ فكان أقنع الناس في قومه، وكان سببًا في ثبات قومه علىٰ الإسلام عندما ارتد من ارتد بعد موت النبي ﷺ.

(١) رواه البخاري ومسلم.

حجة الوداع

استعدَّ النبي ﷺ للحجِّ في ذي القعدة من العام العاشر من الهجرة، فأحرم النبي ﷺ ونوىٰ عمرةً وحجَّةً معًا.

وقضىٰ النبي ﷺ ثمانية أيَّام في الطريق حتىٰ دخل مكة، وهي الحجَّة التي كان يقول فيها ﷺ: «**خذوا عني مناسككم**».

فحجَّ النبي ﷺ بأصحابه وقد اجتمع له عددٌ عظيم؛ إذ بلغ عدد الصحابة الذين حجوا مع رسول الله ﷺ مائة ألف وأربعين ألفًا – رضوان الله عليهم أجمعين –.

فخطب النبي ﷺ فيهم جميعًا، وأسمعهم الله جَلَّوَعَلَا، وكان من الصحابة من يصرخ في الناس يبلِّغهم قول رسول الله ﷺ.

وكان مما قاله رسول الله ﷺ في خطبته[1]:

«**أيها الناس، اسمعوا قولي؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا**»[2].

«**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم؛ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. أَلَا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ربيعة بن الحارث** – وكان مسترضعًا في

(١) جمعها صاحب «الرحيق» انظره بحواشيه.

(٢) ابن هشام (٢/ ٦٠٣).

بني سعد فقتلته هُذَيْل -، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربًا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله».

«فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يُوطِئْنَ فُرُشَكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به؛ كتاب الله»(١).

«اتقوا الله ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم »(٢).

«وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلىٰ السماء، وينكتها إلىٰ الناس: «اللهم اشهد» ثلاث مرات(٣).

وبعد أن فرغ النبي ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ولما نزلت بكىٰ عمر، فقال له النبي ﷺ: «ما يبكيك؟»، قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص. فقال: «صدقت».

ثم أكمل النبي ﷺ مناسك الحج.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي في سننه وصححه الألباني.

(٣) رواه مسلم.

وللاستزادة من فوائد حجة الوداع فارجع إلىٰ كتاب العلَّامة المحدِّث الألباني – رحمة الله عليه –: «حجة النبي ﷺ كما رواها عنه جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»، ونزلت عليه أثناء أداء المناسك سورة النصر، والتي فيها نعيه – صلوات الله عليه –.

وبدأ النبي ﷺ في الإكثار من قوله: «**سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**».

عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت: «**سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**». قالت: قلت: يا رسول الله، ما هذه الكلمات الَّتي أراك أحدثتها تقولها؟ قال: «**جُعلت لي علامة في أمَّتي إذا رأيتها قلتها**: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١]» إلىٰ آخر السُّورة[(١)].

فأتمَّ النبي ﷺ مناسكه، ورجع إلىٰ المدينة ليستكمل رسالته، وما أمره الله به من أمور الدعوة.

❁❁❁

---

(١) رواه مسلم.



آخر بعث جهزه النبي ﷺ

وصل الإسلام إلىٰ حدود دولة الرومان، بل تعدَّىٰ الحدود حتىٰ دخل دولة الرومان بشكل فردي، فكان من الرومان من يسمع عن دعوة التوحيد وما جاء به النبي ﷺ؛ فيُسلم لله ربِّ العالمين.

ولأن دولة الرومان قد أحرجت نفسها مرَّة بعد مرة مع جيش الإسلام العظيم، وضاعت هيبتهم أمام العرب والعجم لما فكروا في مواجهة جيش الإسلام العظيم، فمرة في مؤتة لم يستطيعوا فعل شيء مع ثلاثة آلاف جندي، ومرة هربوا دون مواجهة ولا نزال؛ فاشتد حقدهم وحنقهم علىٰ الإسلام وأهله، بل كانت الأوامر تَصدر بقتل من يُسلم من الروم.

فلما بلغ النبي ﷺ ذلك بعد عودته من الحجِّ جهَّز جيشًا عظيمًا، وأمَّر عليه أسامة بن زيد – رضوان الله عليه –، وكان شابًّا صغيرًا، فكان الناس يتعجَّبون من إمارته مع صِغَرِ سِنِّه، حتىٰ قال النبي ﷺ: «**إن تطعنوا في إمارته** – يريد أسامة بن زيدٍ – **فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وايم الله إن كان لخليقًا لها، وايم الله إن كان لأحبَّ النَّاس إليَّ، وايم الله إنَّ هذا لها لخليق** – يريد أسامة بن زيدٍ –، **وايم الله إن كان لأحبَّهم إليَّ من بعده، فأوصيكم به؛ فإنَّه من صالحيكم**»[1].

(١) رواه البخاري ومسلم.

وجعل النبي ﷺ في الجيش أبا بكر وعمر - رضوان الله عليهما -، وكان ذلك في صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة.

وأمر النبي ﷺ أسامة - رضوان الله عليه - أن يوطئ الخيل تُخُوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين؛ يبغي بذلك إرهاب الروم، وإعادة الثقة إلىٰ قلوب العرب الضاربين علىٰ الحدود، وليَردع بذلك كل من يتعدىٰ علىٰ المسلمين.

وخرج الجيش بالفعل في شهر صفر، ثم نزلوا الجُرْف، علىٰ فَرْسَخ من المدينة، فجاءتهم الأنباء بمرض رسول الله ﷺ؛ فتوقَّف الجيش هنالك ينتظرون ما يقضي الله به.

❁❁❁

ذكر مرض رسول الله ﷺ

عن عائشة زوج النَّبيِّ ﷺ، قالت: رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعًا في رأسي، وأنا أقول: وارأساه! فقال: «**بل أنا والله يا عائشة وارأساه!**». قالت: ثمّ قال: «**وما ضرّك لو متِّ قبلي، فقمتُ عليك وكفَّنتك، وصلَّيتُ عليك ودفنتك؟**»، قالت: قلت: والله لكأنِّي بك، لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلىٰ بيتي، فأعرست فيه ببعض نسائك! قالت: فتبسَّم رسول الله ﷺ، وتتامَّ به وجعه وهو يدور علىٰ نسائه، حتَّىٰ استعزَّ به وهو في بيت ميمونة؛ فدعا نساءه فاستأذنهنّ في أن يمرّض في بيتي، فَأَذِنَّ له[(١)].

وصلىٰ النبيُّ ﷺ بالناس في المسجد أحد عشر يومًا وهو مريض يشعر بالصداع والحمىٰ، وجميع أيام المرض كانت ٣١، أو ٤١ يومًا؛ كما قال صاحب «الرحيق».

وبدأ المرض يشتدُّ علىٰ رسول الله ﷺ، وكان يُمرَّض في بيت عائشة - رضوان الله عليها -.

قالت عائشة: لددناه في مرضه، فجعل يشير إلينا: أن لا تلدُّوني؛ فقلنا: كراهية المريض للدَّواء. فلمَّا أفاق قال: «**ألم أنهكم أن تلدُّوني؟!**». قلنا: كراهية المريض

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه»، والدارمي في «سننه».

للدَّواء. فقال: «**لا يبقىٰ أحد في البيت إلَّا لدَّ وأنا أنظر، إلَّا العبَّاس؛ فإنَّه لم يشهدكم**»[(١)].

ومعنىٰ «**لددناه**»: أي وضعنا الدواء في فمه نحنِّكُه به.

فأشار النبي ﷺ إليهن، أي لا تلُدُّوني. فلما خالفن أمره ﷺ لما أفاق أمرهن جميعًا أن يُلْدَدْنَ وهو ينظر إليهن؛ عقوبةً لهن.

ثم اشتدَّ المرض علىٰ رسول الله - صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم -، حتىٰ قال: «**هريقوا** [أي: صبوا] **عليّ سبع قربٍ من آبارٍ شتَّىٰ، حتّىٰ أخرج إلىٰ النّاس فأعهد إليهم**». قالت: فأقعدناه في مخضبٍ [مكان يصب فيه الماء] لحفصة بنت عمر، ثمّ صببنا عليه الماء حتَّىٰ طفق يقول: «**حسبكم حسبكم**».

وعند ذلك أحسَّ بخفَّة، فدخل المسجد متعطفًا ملحفة علىٰ منكبيه، قد عصب رأسه بعصابة دسمة حتىٰ جلس علىٰ المنبر، وكان آخر مجلس جلسه، فحمد الله وأثنىٰ عليه، فقال فيما قال: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[(٢)] - وفي رواية: «**قاتل الله اليهود والنصارىٰ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وقال: «**لا تتخذوا قبري وثنًا يُعبد**»[(٣)].

ثم أوصى بالأنصار قائلاً:

«**أوصيكم بالأنصار؛ فإنهم كِرْشِي وعَيْبَتِي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من مُحْسِنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم**»[(٤)]، وفي رواية أنه قال:

(١، ٢) رواه البخاري.

(٣) رواه الإمام مالك في «موطئه».

(٤) رواه البخاري.

«**إنَّ الناس يَكثُرون، وتَقِلُّ الأنصار حتىٰ يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمرًا يضر فيه أحدًا أو ينفعه؛ فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم**»[١].

ثمَّ قال: «**إنَّ عبدًا خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدُّنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده**». فبكىٰ أبو بكرٍ وقال: فديناك بآبائنا وأمَّهاتنا. فعجبنا له، وقال النَّاس: انظروا إلىٰ هذا الشَّيخ، يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدُّنيا وبين ما عنده وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمَّهاتنا! فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكرٍ هو أعلمنا به. وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ من أمنِّ النَّاس عليَّ في صحبته وماله أبا بكرٍ، ولو كنت متَّخذًا خليلًا من أمَّتي لاتَّخذت أبا بكرٍ، إلَّا خلَّة الإسلام، لا يبقينَّ في المسجد خوخة إلَّا خوخة أبي بكرٍ**»[٢].

ثم رجع النبي ﷺ إلىٰ بيته، ثم ازداد عليه مرضه وازدادت الحمىٰ، حتىٰ إنه لم يقدر علىٰ الخروج للصلاة بالناس، عن عائشة - رضوان الله عليها - أنها قالت: ثقل النَّبيُّ ﷺ فقال: «**أصلَّىٰ النَّاس؟**». قلنا: لا، هم ينتظرونك. قال: «**ضعوا لي ماءً في المخضب**». قالت: ففعلنا فاغتسل فذهب لينوء فأغمي عليه، ثمَّ أفاق فقال ﷺ: «**أصلَّىٰ النَّاس؟**». قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. قال: «**ضعوا لي ماءً في المخضب**». قالت: فقعد فاغتسل، ثمَّ ذهب لينوء فأغمي عليه، ثمَّ أفاق فقال: «**أصلَّىٰ النَّاس؟**». قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. فقال: «**ضعوا لي ماءً في المخضب**»، فقعد فاغتسل، ثمَّ ذهب لينوء فأغمي عليه، ثمَّ

(١، ٢) رواه البخاري.

أفاق فقال: «**أصلَّىٰ النَّاس**». فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. والنَّاس عكوف في المسجد ينتظرون النَّبيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لصلاة العشاء الآخرة، فأرسل النَّبيُّ ﷺ إلىٰ أبي بكرٍ بأن يصلِّي بالنَّاس، فأتاه الرَّسول فقال: إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلِّي بالنَّاس. فقال أبو بكرٍ - وكان رجلًا رقيقًا -: يا عمر، صلِّ بالنَّاس. فقال له عمر: أنت أحقُّ بذلك. فصلَّىٰ أبو بكرٍ تلك الأيَّام، ثمَّ إنَّ النَّبيَّ ﷺ وجد من نفسه خفَّةً فخرج بين رجلين أحدهما العبَّاس لصلاة الظُّهر، وأبو بكرٍ يصلِّي بالنَّاس، فلمَّا رآه أبو بكرٍ ذهب ليتأخَّر فأومأ إليه النَّبيُّ ﷺ بأن لا يتأخَّر. قال: «**أجلساني إلىٰ جنبه**». فأجلساه إلىٰ جنب أبي بكرٍ. قال: فجعل أبو بكرٍ يصلِّي وهو يأتمُّ بصلاة النَّبيِّ ﷺ، والنَّاس بصلاة أبي بكرٍ، والنَّبيُّ ﷺ قاعد[1].

وقبيل وفاته ﷺ اجتمع عنده بعض أصحابه يزورونه، فقال لهم: «**هلموا أكتب لكم كتابًا لا تضلُّوا بعده أبدًا**»، فعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لمَّا حُضِرَ رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**هلمُّوا أكتب لكم كتابًا لا تضلُّوا بعده**». فقال بعضهم: إنَّ رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قرِّبوا يكتب لكم كتابًا لا تضلُّوا بعده. ومنهم من يقول غير ذلك، فلمَّا أكثروا اللَّغو والاختلاف قال رسول الله ﷺ: «**قوموا**».

قال عبيد الله: فكان يقول ابن عبَّاسٍ: إنَّ الرَّزيَّة كلَّ الرَّزيَّة ما حال بين

(١) رواه البخاري.

رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب؛ لاختلافهم ولغطهم[١].

وفي يوم الأحد تصدَّق النبي ﷺ بصدقةٍ، وكان ذلك قبل وفاته بيوم واحد.

وفي فجر يوم الاثنين : عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ المسلمين بينما هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين وأبو بكرٍ يصلِّي لهم، لم يَفْجَأْهُمْ إلَّا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصَّلاة، ثمَّ تبسَّم يضحك، فنكص أبو بكرٍ علىٰ عقبيه ليصل الصَّفَّ، وظنَّ أنَّ رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلىٰ الصَّلاة، فقال أنس: وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحًا برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ: أن أتمُّوا صلاتكم، ثمَّ دخل الحجرة وأرخىٰ السِّتر[٢].

وكانت آخر صلاة لرسول الله ﷺ في هذه الحياة، فلم يُدرك صلاة الظهر حيًّا، صلوات الله عليه.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قالت:** دعا النَّبيُّ ﷺ فاطمة - عليها السَّلام - في شكواه الَّذي قبض فيه، فسارَّها بشيءٍ، فبكت، ثمَّ دعاها فسارَّها بشيءٍ فضحكت.

فلما سئلت عن ذلك بعد قالت: سارَّني النَّبيُّ ﷺ أنَّه يُقبض في وجعه الَّذي توفِّي فيه؛ فبكيت، ثمَّ سارَّني فأخبرني أنِّي أوَّل أهله يتبعه؛ فضحكت[٣].

❁❁❁

(١-٣) رواه البخاري.

النبي ﷺ يُخيَّر بين الحياة والموت

عن عائشة قالت: كنت أسمع أنَّه لا يموت نبيٌّ حتَّىٰ يخيَّر بين الدُّنيا والآخرة، فسمعت النَّبيَّ ﷺ يقول في مرضه الَّذي مات فيه، وأخذته بحَّة، يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ [النساء: ٦٩] الآية، فظننت أنَّه خُيِّر [١].

وفي رواية أخرىٰ؛ أنه ﷺ جعل يقول: «**في الرَّفيق الأعلىٰ**».

(١) رواه البخاري.

أثر السم الذي تناوله النبي ﷺ في خيبر

كان النَّبيُّ ﷺ يقول في مرضه الَّذي مات فيه: «**يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطَّعام الَّذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أَبْهَرِي من ذلك السَّمِّ**»(١).

وفي رواية عند أبي نعيم: «**ما زالت أَكْلَةُ خَيْبَرٍ تعاودني في كل عام، حتىٰ كان هذا أوان قطع أَبْهَرِي**»(٢).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أبو نعيم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع».

ذكر وفاة رسول الله ﷺ

وعن عائشة: دخل عبد الرَّحمن بن أبي بكرٍ علىٰ النَّبيِّ ﷺ وأنا مسندته إلىٰ صدري، ومع عبد الرَّحمن سواك رطب يستنُّ به، فأبدَّه رسول الله ﷺ بصره، فأخذت السِّواك فقصمته ونفضته وطيَّبته، ثمَّ دفعته إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فاستنَّ به، فما رأيت رسول الله ﷺ استنَّ استنانًا قطُّ أحسن منه، فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه، ثمَّ قال: «**في الرَّفيق الأعلىٰ**». ثلاثًا، ثمَّ قَضَىٰ، وكانت تقول: «مات بين حاقنتي وذاقنتي»[1].

وفي رواية أخرىٰ عند البخاري أيضًا: أن عائشة كانت تقول: إنَّ من نعم الله عليَّ: أنَّ رسول الله ﷺ توفِّي في بيتي وفي يومي، وبين سحري ونحري، وأنَّ الله جمع بين ريقي وريقه عند موته، دخل عليَّ عبد الرَّحمن وبيده السِّواك وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنَّه يحبُّ السِّواك؛ فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه: أن نعم، فتناولته فاشتدَّ عليه، وقُلت: أليِّنه لك؟ فأشار برأسه: أن نعم، فليَّنته، وبين يديه ركوة – أو: علبة؛ يشكُّ عمر – فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه، يقول: «**لا إله إلَّا الله، إنَّ للموت سكراتٍ**». ثمَّ نصب يده فجعل يقول: «**في الرَّفيق الأعلىٰ**». حتَّىٰ قُبض ومالت يده.

---

(١) رواه البخاري.

وتوفي النبي ﷺ بعد اشتداد الضحىٰ من يوم الاثنين الموافق الثاني عشر من ربيع الأول من العام الحادي عشر من الهجرة، وكان عمره ﷺ ثلاثًا وستين سنة.

بعدما قضىٰ حياته كلها لله، يتحمَّل فيها الأذىٰ من المشركين في مكة؛ يسخرون منه ومن دعوته، ويؤذونه بأيديهم وألسنتهم وبصدِّ الناس عن دعوته الشريفة، حتىٰ حاصروه في شعب أبي طالب ثلاث سنوات يأكل هو وأصحابه أوراق الشجر، ويربطون علىٰ بطونهم الحجارة، ثم خرجوا من الحصار ليتحملوا مزيدًا من الاضطهاد والأذىٰ، حتىٰ هاجر هو وأصحابه - صلوات الله عليه -، وترك بيته ووطنه المحبَّب إلىٰ قلبه، ثم بدأ حياة الجهاد في المدينة يقاتل من أجل رفع كلمة الله، حتىٰ أعزه الله، وأذلَّ أعداءه، ونصر دينه، وانتشرت ملَّتُه، فلما أتم رسالته اختار الرفيق الأعلىٰ ليموت حميدًا شهيدًا نبيًّا عظيمًا، بل خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، صلوات الله عليه.

ذكر ما تركه النبي ﷺ من بعده من متاع الدنيا

عن عمرو بن الحارث قال: «ما ترك رسول الله ﷺ دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمةً، إلَّا بغلته البيضاء الَّتي كان يركبها، وسلاحه، وأرضًا جعلها لابن السَّبيل صدقةً»[1].

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قالت:** «توفِّي النَّبيُّ ﷺ ودرعه مرهونة عند يهوديٍّ بثلاثين [يعني: صاعًا من شعير]»[2].

(١، ٢) رواه البخاري.

استقبال الصحابة لخبر وفاة الرسول ﷺ

فاطمة بنت رسول الله ﷺ:

قالت فاطمة لما تيقَّنت موت رسول الله ﷺ:

«يا أبتاه، أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه، من جنَّة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلىٰ جبريل ننعاه»(١).

أنس بن مالك - رضوان الله عليه - خادم رسول الله ﷺ:

ذكر النَّبيَّ ﷺ وقال: شهدته يوم دخل المدينة، فما رأيت يومًا قطُّ كان أحسن ولا أضوأ من يومٍ دخل علينا فيه رسول الله ﷺ، وشهدته يوم موته، فما رأيت يومًا كان أقبح ولا أظلم من يومٍ مات فيه رسول الله ﷺ(٢).

شدَّة الصدمة على عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه -:

قال ابن إسحاق: قال الزهري: وحدثني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب فقال: إن رجالًا من المنافقين يزعمون أنَّ رسول الله ﷺ قد توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات، ولكنه ذهب إلىٰ ربِّه كما ذهب موسىٰ بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الدارمي في «سننه».

إليهم بعد أن قيل: قد مات، ووالله ليرجعنَّ رسول الله ﷺ كما رجع موسىٰ، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات.

أبو بكر الصديق – رضوان الله عليه – وموقفه الذي ثبَّت الله به الأمة:

وأقبل أبو بكر حتىٰ نزل علىٰ باب المسجد حين بلغه الخبر، وعمر يُكلِّم الناس، فلم يلتفت إلىٰ شيء حتىٰ دخل علىٰ رسول الله ﷺ في بيت عائشة، ورسول الله ﷺ مسجًّىٰ في ناحية البيت عليه بُرْدُ حَبِرَة، فأقبل حتىٰ كشف عن وجه رسول الله ﷺ، قال: ثم أقبل عليه فقبَّله، ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا. قال: ثم رد البُرد علىٰ رسول الله ﷺ، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: علىٰ رسلك يا عمر، أنصت. فأبىٰ إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل علىٰ الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال:

«أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت». قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال أبو هريرة: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتىٰ تلاها أبو بكر يومئذ، قال: وأخذها الناس عن أبي بكر، فإنَّما هي في أفواههم.

قال أبو هريرة: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقِرْتُ حتىٰ وقعت إلىٰ الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات.

وأخذ الناس يرددون قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

بدء خلافة أبي بكر - رضوان الله عليه - لرسول الله ﷺ

ولما جاء الإسلام ليبدد الجاهلية، ويجمع قلوب الرعية علىٰ قلب رجل واحد، يسمعون ويُطيعون لكبير يطاع في غير معصية؛ كان لزامًا أن يتم تنصيب خليفة لرسول الله ﷺ يقضي بين الناس إذا اختلفوا؛ لأنه قد انقطع اتصال الأرض بالسماء بموت رسول الله ﷺ، وما عاد هنالك من وحي يفصل بين الناس، ولم يبقَ لهم رسول من عند الله يضيء لهم الطريق؛ فكان لزامًا عليهم أن يولوا عليهم أميرًا يخلف رسول الله ﷺ فيهم ويحكم فيهم، بحكم الله ما استطاع.

فاجتمع بعض الأنصار في سقيفة بني ساعدة، فلما علم بذلك عمر بن الخطاب أخذ معه أبا بكر الصديق وأبا عبيدة بن الجراح، واتفق المهاجرون والأنصار علىٰ تولية أبي بكر الصديق خليفة لرسول الله ﷺ.

ثم اجتمع الناس لتجهيز رسول الله ﷺ لغسله ثم دفنه.

ذكر جهاز رسول الله ﷺ وغسله

فتولىٰ أمر غسله ﷺ علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس وقثم بن العباس وأسامة بن زيد وشقران مولىٰ رسول الله ﷺ.

فغسلوه في ثيابه ولم ينزعوها عنه - صلوات الله عليه -.

فعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه فقالوا: والله ما نرىٰ كيف نصنع؛ أنجرد رسول الله ﷺ كما نجرد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا أرسل الله عليهم السِّنة [أي: النوم] حتىٰ والله ما من القوم من رجل إلا ذقنه في صدره نائمًا، قالت: ثم كلَّمهم من ناحية البيت لا يدرون من هو، فقال: اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه. قالت: فثاروا إليه فغسلوا رسول الله ﷺ وهو في قميصه يفاض عليه الماء والسدر، ويدلكه الرجال بالقميص، وكانت تقول: لو استقبلت من الأمر ما استدبرت ما غسل رسول الله ﷺ إلا نساؤه(١).

وعن عائشة: أن النبي ﷺ كُفن في ثلاثة أثواب بيض يمانية، ليس فيها قميص ولا عمامة(٢)، أدرجوه فيها إدراجًا.

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند»، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ».

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه، وصحَّحه الألباني.

ذكر صلاة الصحابة على رسول الله ﷺ

ودخل الناس الحجرة أرسالًا، عشرة عشرة، يصلون علىٰ رسول الله ﷺ فرادىٰ، لا يؤمهم أحد، وصلَّىٰ عليه أوَّلًا أهل عشيرته، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الصبيان، ثم النساء، أو النساء ثم الصبيان.

فقضىٰ الناس الثلاثاء وصباح الأربعاء حتىٰ انتهوا من الصلاة عليه ﷺ في ليل الأربعاء.

❁❁❁

ذكر دفن رسول الله ﷺ في حجرة عائشة

اختلف الصحابة في موضع دفنه؛ فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما قبض نبي إلا دفن حيث يقبض**»، فرفع أبو طلحة فراشه الذي توفي عليه، فحفر تحته، وجعل القبر لحدًا.

ونزل قبره من الصحابة علي بن أبي طالب والفضل وأسامة بن زيد، وأدخلوا معهم عبد الرحمن بن عوف، فلما فرغ علي قال: إنما يلي الرجل أهله[1].

❀❀❀

(١) أخرجه أبو داود في «سننه»، وصحَّحه الألباني.



الباب الثالث

الدلائل العقليَّة على صدقه ﷺ

فصل في أن ما وصل إلينا من أخبار أخلاقه يدل على أنه صادق

إن الأخلاق النبوية الشريفة التي ظهرت علىٰ النبي ﷺ، قبل بعثته وبعد بعثته؛ سواءً حينما كانت دعوته مضطهدة في أول البعثة، أو بعد أن مكَّن الله لنبيه وللمؤمنين في جزيرة العرب، حتىٰ دان له العرب جميعًا انقيادًا لله ولرسوله ﷺ.

فما تغيَّرت أخلاقه الشريفة؛ فكان أمينًا وهو في وسط قومه، وظل كذلك معهم بعدما حاربوه، وظل كذلك معهم بعدما فتح الله له مكة منتصرًا ممكنًا.

ومما رُصد من أخلاقه الشريفة:

الأمانة: فكان النبي ﷺ مشهورًا في مكة بأمانته حتىٰ كان ذلك سببًا لزواجه من خديجة رضوان الله عليها؛ كما جاء عن ابن إسحاق في «سيرته»؛ إذ كانت خديجة رضوان الله عليها ذات مال تستعمل عليه من يتاجر لها فيه، فلما سمعت عن أمانة النبي ﷺ أرسلت إليه ليعمل في مالها، فكان أفضلَ مَن تاجرَ في مالها، ثم لما رأت عظيم أمانته وعظيم خلقه بعينها؛ عرضت عليه نفسها إذ كانت امرأة لبيبة وشريفة تبحث عن رجلٍ أمين خلوق ليكون لها زوجًا، فتزوَّجها النبي ﷺ.

وكانت أمانات المشركين عنده في بيته في مكة، لا أقول: قبل بعثته. ولكن بعد البعثة بثلاثة عشر عامًا عندما خرج مهاجرًا إلىٰ الله إلىٰ يثرب - أي بعدما دام الصراع بينهم وبين الحق الذي معه طيلة هذه المدة، ومع ذلك لم ينكروا أمانته، بل كانوا يحفظون أماناتهم عنده وهم يُعادونه؛ لأنهم يعلمون أنه لا يخون ﷺ،

فكلف علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه - أن ينام في فراشه، ثم ليرد الأمانات إلىٰ أهلها؛ كما جاء في «تاريخ الطبري» وفي «الكامل» لابن الأثير؛ أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**نَمْ علىٰ فراشي، واتَّشح ببردي الأخضر، فنم فيه؛ فإنَّه لا يخلص إليك شيء تكرهه**»، وأمَرَه أن يؤدِّي ما عنده مِن وديعة وأمانة(١).

فكانت الأمانة صفته، وما أخذ أعداؤه عليه ﷺ شيئًا من خيانة قط، وإلا لصدوا الناس عنه بذلك.

ومن ذلك ما كان منه - ﷺ - من التعامل مع مال الصدقة؛ إذ حرم الله عليه وعلىٰ آله مال الصدقة.

فعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: مرَّ النَّبيُّ ﷺ بتمرةٍ في الطَّريق، قال: «**لولا أنِّي أخاف أن تكون من الصَّدقة لأكلتها**»(٢).

والآن قل لي بربك: لو كان مدعيًا للنبوة وليس بنبيٍّ؛ أكانت هذه تكون أخلاقه؟! إن من يدعي النبوة وهو كاذب في دعواه؛ إنما يحمله علىٰ ذلك أحد أمور:

إما أنه يبحث عن ملك أو مال أو جاه أو نفوذ، وقد مر وسيأتي أن النبي ﷺ عُرض عليه الملك فرفضه، وأنه ﷺ مات يوم مات ودرعه مرهونة عند رجلٍ يهودي، وما ترك لأهله دينارًا ولا درهمًا.

عن عمرو بن الحارث، قال: «ما ترك رسول الله ﷺ دينارًا ولا درهمًا ولا

---

(١) رواه الطبري في «تاريخه» (٢/ ٣٧٢)، وابن الأثير في «الكامل» (٢/ ٧٣).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

عبدًا ولا أمةً، إلَّا بغلته البيضاء الَّتي كان يركبها، وسلاحه، وأرضًا جعلها لابن السَّبيل صدقةً»(١).

وأما النفوذ فلم يكن لأحد في زمانه من ملوك الأرض نفوذ مثله؛ إذ كان موصلًا بالسماء، وقد نزل إليه ملك الجبال يستأذنه في هدم الجبلين علىٰ المشركين المكذبين، فلم يأذن له.

عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته: أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتىٰ عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلىٰ ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله** عَزَّوَجَلَّ **قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين.** فقال له رسول الله ﷺ: **بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**»(٢).

وعندما فتح الله عليه مكة ما انتقم ممن صدوه عن الدعوة، وإنما عفا عنهم

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

صلوات الله عليه، إذ قال لهم حين اجتمعوا في المسجد: «**ما ترون أني صانع بكم؟**» قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم؛ قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»، ولم يجعل منها – أي: من مكة – فيئًا قليلًا ولا كثيرًا، لا دارًا ولا أرضًا ولا مالًا، ولم يسب من أهلها أحدًا – يعني لم يسب منهم ولم يغنم –.

بل لم يرجع إلىٰ مكة فاتحًا مقيمًا، وإنما فتحها ليدخل فيها التوحيد ويزهق منها الشرك، ثم رجع إلىٰ المدينة؛ لأنه ما كان ليبطل هجرةً هاجرها إلىٰ الله ربِّ العالمين.

وأما عن حلمه ﷺ: فحدِّث ولا حرج، فقد كان النبي ﷺ حليمًا؛ يحلم علىٰ الجهلاء، ويصبر علىٰ المشركين والمنافقين والمؤلفة قلوبهم رجاءَ أن يدخل الإيمان في قلوبهم.

عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنت أمشي مع النَّبيِّ ﷺ وعليه برد نجرانيّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيّ فجذبه جذبةً شديدةً، حتَّىٰ نظرت إلىٰ صفحة عاتق النَّبيِّ ﷺ، قد أثَّرت به حاشية الرِّداء من شدَّة جذبته، ثمَّ قال: مر لي من مال الله الَّذي عندك. فالتفت إليه، فضحك ثمَّ أمر له بعطاءٍ[1].

فانظر كيف استقبل جهل هذا الأعرابي بالحلم الذي لا نظير له؛ إذ يلحق به الأعرابي ويجذبه إليه حتىٰ تؤثر جذبته في عاتق رسول الله ﷺ بسبب خشونة ثوب الرسول ﷺ، فلم يكن يرتدي الحرير ولا غالي الثياب ﷺ، وهو قادر علىٰ

---

(١) رواه البخاري.

صد عدوان هذا الأعرابي لا أقول: بيده ﷺ، إذ كان قوي البنيان مشدود العضلات سواء الصدر والبطن ﷺ، ولكن كان يستطيع صد هذا العدوان بنظرة ينظرها لأحد أصحابه، فيأتي ليقتص منه بل ليضرب عنقه، ولكن حاشاه ﷺ أن تكون هذه أخلاقه.

وكانت هذه الواقعة - كما يظهر من الحديث - بعد الهجرة، إذ يطلب من النبي ﷺ المال فيعطيه، وما كان ذلك متوفرًا بمكة؛ إذ كان المسلمون فيها فقراء مضطهدين لا مال لهم فضلًا عن بيت مال يُخرج منه العطاءات، وإذن فهذا الموقف وقع في زمن التمكين لا الاستضعاف، ومع ذلك يبتسم النبي ﷺ بل يضحك، ويأمر لهذا الأعرابي بالمال فيأخذه وينصرف راشدًا.

والآن قل لي بربك لو كان محمد ﷺ مدعيًا للنبوة وليس بنبي؛ أكان يتحمَّل مثل هذا الموقف بعدما مكَّنه الله جَلَّ وَعَلَا من تأسيس دولة قوية لها جند وبيت مال وأنصار ينصرونه علىٰ كل من عاداه؟!

لا والله، لا يكون ذلك إلا من نبيٍّ صادق، بل من خاتم الأنبياء وسيِّد المرسلين ﷺ.

وأما عن صدقه ﷺ: فحدِّث ولا حرج، قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس صدرًا، وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة [أي: ألين الناس طبيعة؛ أي سهل الطباع]، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة [أي: مفاجأةً] هابه، ومن خالطه معرفة أحبه»[(١)].

(١) رواه الترمذي وابن شيبة في «المصنف»، والبيهقي في «شعب الإيمان».

ويعلِّق ابن القيم علىٰ كلام عليٍّ قائلًا: «وقوله: أصدق الناس لهجة. هذا مما أقر له به أعداؤه المحاربون له، ولم يجرب عليه أحد من أعدائه كذبة واحدة قط، دع شهادة أوليائه كلهم له به، فقد حاربه أهل الأرض بأنواع المحاربات مشركوهم وأهل الكتاب منهم، وليس أحد منهم يومًا من الدهر طعن فيه بكذبة واحدة صغيرة ولا كبيرة.

قال المسور بن مخرمة: قلت لأبي جهل - وكان خالي -: يا خال، هل كنتم تتهمون محمدًا بالكذب قبل أن يقول مقالته؟ فقال: والله يا ابن أختي، لقد كان محمد وهو شاب يُدعىٰ فينا الأمين، فلما وَخَطَه الشيب [أي: صار رجلًا وخالطه الشيب] لم يكن ليكذب. قلت: يا خال، فلم لا تتبعونه؟ فقال: يا ابن أختي، تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف، فأطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا، فلما تجاثينا علىٰ الركب، وكنا كفرسي رهان [أي: متساويين في السباق]، قالوا: منا نبي. فمتىٰ نأتيهم بهذه؟! أو كما قال»[(١)].

وأما عن تعليمه وتأديبه لأصحابه؛ فهو القدوة والأسوة لكل معلم بعده:

عن معاوية بن الحكم، قال: صلَّيت خلف رسول الله ﷺ، فعطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، أو: يرحمكم الله. فنظر إليَّ القوم، فقلت: وا ثكل أمِّي. ثمَّ حدَّقوني فجعلوا يضربون بأيديهم علىٰ أفخاذهم، فعرفت أنَّ القوم لا يُدَرِّقوني بأبصارهم، فلمَّا قضىٰ رسول الله ﷺ الصَّلاة، فبأبي وأمِّي ما رأيت

(١) انظر «جلاء الأفهام» لابن القيم، صفحة (١٨٣).

معلِّمًا قبل ولا بعد هو أرفق منه تعليمًا، فما نهرني، ولا كَهَرَني، ولا شتمني، فقال: «**إنَّ هذه الصَّلاة لا يصلح فيها شيء من كلام النَّاس، إنَّما هو تسبيح، وتكبير، وقراءة القرآن**»(١).

فانظر كيف كان يعلِّم أصحابه، حتىٰ من تكلم منهم في الصلاة وهو لا يعرف حكم ذلك؛ فإنه لم ينهره ولم يشتمه، وإنما أقبل عليه يعلمه برفق ولين، يقول الصحابي: فلمَّا قضىٰ رسول الله ﷺ الصَّلاة، فبأبي وأمِّي ما رأيت معلِّمًا قبل ولا بعد هو أرفق منه تعليمًا، فما نهرني، ولا كهرني، ولا شتمني، فقال: «**إنَّ هذه الصَّلاة لا يصلح فيها شيء من كلام النَّاس، إنَّما هو تسبيح، وتكبير، وقراءة القرآن**».

وعن أنس بن مالكٍ، قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابيّ فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه. قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزرموه دعوه**». فتركوه حتَّىٰ بال. ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «**إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيءٍ من هذا البول ولا القذر، إنَّما هي لذكر الله عَزَّوَجَلَّ والصَّلاة وقراءة القرآن**». أو كما قال رسول الله ﷺ.

قال: فأمر رجلًا من القوم فجاء بدلوٍ من ماءٍ فشنَّه عليه [أي: صبه عليه](٢).

فانظر كيف نهىٰ النبيُّ ﷺ أصحابه أن يقطعوا عليه بوله، فقال لهم: «**لا تزرموه**»؛ لأن البول قد أصاب المسجد بالفعل، وإزرام الرجل - أي قطع بوله - قد يصيبه بالأذىٰ في جسده، ثم أقبل عليه برفق يعلمه ويُفهمه، فخرج الرجل من عند

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٩٤٨).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

رسول الله ﷺ ولم ير أو يسمع سوءًا، بل سمع ورأىٰ كل خير من خير البشر ﷺ.

فهذا التعليم بالرفق واللين؛ كان لمن وقع في الخطأ عن جهل ولم يكن يعرف حُكمه قبلُ، وأعظم من ذلك من سعىٰ لأخذ رخصة فيما حرمه الله عليه، فانظر كيف تعامل معه رسول الله ﷺ:

عن أبي أمامة قال: «**إن فتًىٰ شابًّا أتىٰ النَّبي ﷺ فقال:** يا رسول الله، ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: **ادْنُه،** فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: **أتحبُّه لأمِّك؟** قال: لا والله، جعلني الله فداءك؛ قال: **ولا النَّاس يحبونه لأمهاتهم،** قال: **أفتحبه لابنتك؟** قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك؛ قال: **ولا النَّاس يحبونه لبناتهم،** قال: **أفتحبه لأختك؟** قال: لا والله، جعلني الله فداءك؛ قال: **ولا النَّاس يحبونه لأخواتهم؟** قال: **أفتحبه لعمتك؟** قال: لا والله، جعلني الله فداءك؛ قال: **ولا النَّاس يحبونه لعماتهم،** قال: **أفتحبه لخالتك؟** قال: لا والله، جعلني الله فداءك؛ قال: **ولا النَّاس يحبونه لخالاتهم.** قال: فوضع يده عليه، وقال: **اللهم اغفر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحصِّن فرجه.** فلم يكن بَعْدُ ذلك الفتىٰ يلتفت إلىٰ شيء»[1].

فانظر كيف رفق به أولًا، ثم أنزله مما كان فيه من اجتياح للشهوة تجتاح مشاعره، إلىٰ أن وضع قدمه علىٰ أرض الواقع؛ أترضاه لأمك؟ أترضاه لأختك؟ أترضاه لعمتك؟ أترضاه لخالتك؟ فما النساء إلا أم فلان أو أخت فلان أو عمة فلان أو خالة فلان، وكذلك الناس لا يرضونه لنسائهم، فلم يخبره بما يعلم من

(١) رواه أحمد في «المسند»، والبيهقي في «الشعب»، وصححه الألباني.

أن الزنا حرام حرَّمه الله؛ لأنه كان يعلم ذلك ولم يستطع صبرًا حتىٰ جاء لرسول الله ﷺ يطلب منه الرخصة فيه.

ولكن نقله من حالته الفردية الشخصية والتي تتحكَّم فيها الشهوة، إلىٰ المسئولية المجتمعية والتي أخبره فيها أنك إن فعلت؛ فقد اعتديت علىٰ فلان إذ المرأة له خالة، وفلان إذ المرأة له عمة، وفلان إذ المرأة له أخت، وفلان إذ المرأة له أم.

ولم يكتف بذلك وإنما وضع يده علىٰ هذا الشاب، وقال: «**اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه**». فكانت دعوة مستجابة، فانظر كيف زَجَره الناس لما علموا أنه ما جاء لرسول الله ﷺ إلا ليطلب منه الرخصة في الزنا، وانظر كيف استقبله النبي ﷺ استقبالًا رفيقًا رحيمًا بشخص تهزه الشهوة، بل تزلزله بل تجتاح أركانه، حتىٰ إنه لم يخش من الفضيحة أو نظر الناس إليه فذهب معلنًا ذلك أمام رسول الله ﷺ وكأنه قد يئس من تهدئة نفسه وكفها عن أزِّه للزنا، فلم يجد إلا رسول الله ﷺ وكان ما كان من رفقه ورحمته ومحبته للخير له، فحمَّله مسئولية نفسه ومجتمعه، ودعا له؛ فتقبَّلَ الله منه - ﷺ - وانصلح حاله، وكان سببًا أن يُروىٰ مثل هذا عن رسول الله ﷺ؛ لنتعلَّم عن أخلاقه ورفقه ﷺ، ولتكتمل أمامنا الصورة بكيفية تعامله ﷺ مع من وقع في الخطأ وهو لا يعلم، ومن أراد أن يقع في الخطأ وهو يعلم، وأنه ﷺ ما كان ليأذن بوقوع معصية لله جَلَّ وَعَلَا قط مع رفقه بالناس وحسن تعامله معهم ﷺ.

وأما عن عدله ﷺ: فهو القائل: «**والذي نفسي بيده لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**».

فعن عائشة رضوان الله عليها، قالت: «أنَّ قريشًا أهمَّهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلِّم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ. فأتي بها رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ، فقال: **أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟!** فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب، فأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهله، ثم قال: **أما بعد: فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني - والذي نفسي بيده - لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[1]. ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقُطعت يدها.

وأما عن رحمته ﷺ: فهو من قال فيه ربُّ العزة جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

قال الإمام السعدي في تفسيره للآية:

«يمتنُّ تعالىٰ علىٰ عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكَّنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ فيحب لكم الخير، ويسعىٰ جهده في إيصاله إليكم، ويحرص علىٰ هدايتكم إلىٰ الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعىٰ جهده في تنفيركم عنه. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم» اهـ.

وأما عن حرصه علىٰ إيمان المشركين بأن يدخلوا في دين الله جَلَّ وَعَلَا فيُنجيهم الله بذلك من النار؛ فحدِّث ولا حرج، إذ بذل حياته كلها دعوة لهم ليُنجيهم الله من العذاب.

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

قال العلامة السعدي في تفسير آية سورة الكهف:

«ولما كان النبيُّ ﷺ حريصًا علىٰ هداية الخلق، ساعيًا في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف علىٰ المكذبين الضالين؛ شفقة منه ﷺ عليهم، ورحمة بهم؛ أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف علىٰ هؤلاء، الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣]، وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾ [فاطر: ٨]، وهنا قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦]؛ أي: مهلكها غمًّا وأسفًا عليهم، وذلك أن أجرك قد وجب علىٰ الله، وهؤلاء لو علم الله فيهم

خيرًا لهداهم، ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار، فلذلك خذلهم، فلم يهتدوا، فإشغال نفسك غمًّا وأسفًا عليهم؛ ليس فيه فائدة لك» اهـ.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّما مثلي ومثل أمَّتي كمثل رجلٍ استوقد نارًا، فجعلت الدَّوابُّ والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحَّمون فيه**»[1].

فدلالة أخلاقه علىٰ صدقه في دعواه؛ من أقوىٰ الدلالات؛ إذ لا يكون بهذه الأخلاق كذاب، وكيف يُوصف بالكذب من صفته الصدق والأمانة والوفاء والحلم والرحمة والرفق؟! لا يوصف به إلا في عقول المفترين المعاندين.

❃❃❃

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

فصل في إخباره ﷺ عن بعض الغيبيات

من دلائل نبوَّته ﷺ وعلامات صدقه في دعوته ﷺ؛ إخباره بأمور من الغيب وقعت في حياته بعد ذلك أو بعد مماته ﷺ؛ ومن ذلك:

ما أخبر به قبل وقوعه ووقع كما أخبر به في حياته ﷺ

إخباره عن مصارع القوم في غزوة بدر

عن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه؛ أنه قال: «إنَّ رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول: «**هذا مصرع فلانٍ غدًا إن شاء الله**». قال: فقال عمر: فوالَّذي بعثه بالحقِّ، ما أخطئوا الحدود الَّتي حدَّ رسول الله ﷺ»[(١)].

في الليلة التي سبقت غزوة بدر كان معسكر المؤمنين قد عسكر عند ماء بدر، فكان النبي ﷺ يتفقَّد المكان، وقد أوحىٰ الله له أماكن مصرع صناديد الكفر في مكة، فجعل النبي ﷺ يبلغ ما أوحاه الله له من أماكن مصارع القوم، يقول: هنا مصرع فلان، وهنا مصرع فلان؛ يقول عمر: فوالَّذي بعثه بالحقِّ ما أخطئوا الحدود الَّتي حدَّ رسول الله ﷺ؛ يعني: لم يمت أحدهم بعيدًا عن المكان الذي حدَّده رسولُ الله ﷺ، وكان ذلك من الغيب، أوحاه الله له؛ تثبيتًا للمؤمنين وإكرامًا لهم، ولا يكون مثل هذا إلا من نبي؛ إذ لا يعلم آجال الناس إلا الله

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

جَلَّ وَعَلَا، وكذلك أماكن موتهم؛ فكون النبي ﷺ يخبر بذلك ويقع كما أخبر؛ فإن ذلك يعد دليلًا واضحًا على أنه يأتيه الوحي من السماء.

إخباره ﷺ بانتصار الروم على فارس في قوله تعالى:
﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ [الروم: ٣]

عن نيار بن مكرمٍ الأسلميِّ، قال: «لمَّا نزلت: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ١-٤]، فكانت [مملكة] فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للرُّوم، وكان المسلمون يحبُّون ظهور الرُّوم عليهم؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهل كتابٍ، وفي ذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم: ٤، ٥]، فكانت قريش تحبُّ ظهور فارس؛ لأنَّهم وإيَّاهم ليسوا بأهل كتابٍ ولا إيمانٍ ببعثٍ، فلمَّا أنزل الله تعالىٰ هذه الآية خرج أبو بكرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ يصيح في نواحي مكَّة: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾، قال ناس من قريشٍ لأبي بكرٍ: فذلك بيننا وبينكم، زعم صاحبكم أنَّ الرُّوم ستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نراهنك علىٰ ذلك؟ قال: بلىٰ. وذلك قبل تحريم الرِّهان، فارتهن أبو بكرٍ والمشركون، وتواضعوا الرِّهان وقالوا لأبي بكرٍ: كم تجعل البضع ثلاث سنين إلىٰ تسع سنين؟ فسمِّ بيننا وبينك وسطًا تنتهي إليه. قال: فسمَّوا بينهم ستَّ سنين، قال: فمضت السِّتُّ سنين قبل أن يظهروا؛ فأخذ المشركون رهن أبي بكرٍ، فلمَّا دخلت السَّنة السَّابعة ظهرت الرُّوم علىٰ فارس، فعاب المسلمون

علىٰ أبي بكرٍ تسمية ستٍّ سنين؛ لأنَّ الله تعالىٰ قال: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤]، قال: وأسلم عند ذلك ناس كثير»(١).

ففي الحديث أن مملكة الفرس المجوسية لما غلبت مملكة الروم النصرانية فرح لذلك مشركو قريش؛ لأن الوثنيين غلبوا أهل الكتاب، وهم - أي: المشركون - أقرب للوثنيين بينما الروم أقرب للمسلمين؛ لأن كليهما أهل كتاب.

وحزن المسلمون لذلك، فنزل قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم: ١ - ٥].

ففرح لذلك المسلمون وخرج أبو بكر يقرأ الآية علىٰ مشركي مكة يُبشرهم بهزيمة المشركين وغلبة أهل الكتاب عليهم، فتراهن المشركون مع أبي بكر علىٰ ذلك، ولكنهم طلبوا منه أن يحدِّد معنىٰ البضع المتراهن عليه أهو من ثلاثة إلىٰ تسعة أم أقل؟ فكانت حماسة أبي بكر رضوان الله عليه، ومحبته لسرعة انتصار الروم علىٰ الفرس؛ هي المتحكِّمة فيه آنذاك، فقال لهم: من ثلاثة إلىٰ ستة؛ يرجو أن يمكنهم الله من الفرس قبل انقضاء ست سنوات، ولكن الأمر لم يكن كما أراد وإنما كان كما قال الله جَلَّوَعَلَا، إذ مرت الست سنوات ولم ينتصر الروم، فأخذ المشركون من أبي بكر الرهن، ولكن كلام الله لا يأتيه الباطل من

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

بين يديه ولا من خلفه؛ فكان انتصار الروم علىٰ الفرس بعد سبع سنوات من نزول الآيات، وقيل: كان ذلك في يوم بدر؛ فتحقَّق موعود الله، وأكرم اللهُ المسلمين بأن نصرهم علىٰ مشركي مكة، فأسلم بسبب آية الروم خلق كثير من المشركين؛ إذ لا يعلم الغيب إلا الله، وفي ذلك أكبر دلالة علىٰ صدق النبي ﷺ.



إخباره ﷺ بما كان من أمر حاطب بن أبي بلتعة

عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزُّبير والمقداد بن الأسود، قال: «**انطلقوا حتَّىٰ تأتوا روضة خاخٍ؛ فإنَّ بها ظعينةً ومعها كتاب، فخذوه منها**». فانطلقنا تعادىٰ بنا خيلنا حتَّىٰ انتهينا إلىٰ الرَّوضة، فإذا نحن بالظَّعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتابٍ. فقلنا: لَتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لنلقينَّ الثِّياب. فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلىٰ أناسٍ من المشركين من أهل مكَّة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**يا حاطب، ما هذا؟**». قال: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ، إنِّي كنت امرأً ملصقًا في قريشٍ، ولم أكن من أَنْفُسِها، وكان مَن معك مِن المهاجرين لهم قرابات بمكَّة، يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النَّسب فيهم أن أتَّخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرًا ولا ارتدادًا ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «**لقد صدقكم**». قال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق. قال: «**إنَّه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعلَّ الله أن يكون قد اطَّلع علىٰ أهل بدرٍ، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم**»[1].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وفي الحديث أن النبي ﷺ أخبر عليًّا ومن خرج معه أنه سيجد المرأة في مكان محدد في الطريق بين المدينة ومكة، ومعها كتاب؛ قال: «**انطلقوا حتَّىٰ تأتوا روضة خاخٍ؛ فإنَّ بها ظعينةً ومعها كتاب، فخذوه منها**»، وبالفعل كان ذلك مطابقًا لما وقع، ولا يكون ذلك إلا بوحي؛ إذ كيف يعلم رسول الله ﷺ أن واحدًا من المسلمين قد أرسل سرًّا امرأة بكتاب لمشركي مكة يحذِّرهم من جيش المسلمين؟! إلا من خلال الوحي يأتيه من ربِّ العالمين.

فإن قيل: ربما أخبره أحد الناس بذلك؛ قلنا: وكيف علم أن المرأة ستكون في الموضع الذي أخبر به؟!

قلنا إن ذلك لا يكون إلا بحساب سرعة المرأة في سفرها، وهذا لا يعلمه إلا من يراقبها في سفرها، وكذلك حساب سرعة عليٍّ ومن معه، وفي المنتهىٰ ستجد أن الأمر لا يمكن معرفته إلا من خلال الوحي المعصوم.



إخباره ﷺ بأنه سيموت في مرضه الذي قُبض فيه، وأن فاطمة ابنته - رضوان الله عليها - هي أول من سيلحق به من آل بيته

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: دعا النَّبيُّ ﷺ فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في شكواه الَّذي قبض فيه، فسارَّها بشيءٍ، فبكت، ثمَّ دعاها فسارَّها بشيءٍ فضحكت.

فلما سُئلت عن ذلك بعدُ قالت: سارَّني النَّبيُّ ﷺ أنَّه يقبض في وجعه الَّذي توفِّي فيه، فبكيت، ثمَّ سارَّني فأخبرني أنِّي أوَّل أهله يتبعه فضحكت[١].

وفي ذلك معجزتان؛ أولهما إخباره ﷺ بأنه سيموت في مرضه الذي قُبض فيه، ولا يكون ذلك إلا بوحي، وكذلك إخباره فاطمةَ أنها أول آل بيته لحوقًا به، وبالفعل تُوفِّيَتْ - رضوان الله عليها - بعد وفاته بستة أشهر، وكانت أول آل بيته لحوقًا به صلوات الله عليه.



إخباره ﷺ بأن حصون خيبر سيفتحها الله على يد علي بن أبي طالب

وكانت حصونًا منيعة، بلغ عددها ثمانية حصون، وكانت حرب شديدة حتىٰ فُتحت الحصون، وبالفعل فتح الله علىٰ علي بن أبي طالب خيبر؛ فكان حاملًا للراية ولم يُصب بسوء، وفتح الله خيبر علىٰ يديه.

عن سلمة، قال: «كان عليّ قد تخلَّف عن النَّبيِّ ﷺ في خيبر، وكان به رمد، فقال: أنا أتخلَّف عن رسول الله ﷺ! فخرج عليّ فلحق بالنَّبيِّ ﷺ، فلمَّا كان مساء اللَّيلة الَّتي فتحها الله في صباحها قال رسول الله ﷺ: «**لأعطينَّ الرَّاية** – أو: **ليأخذنَّ الرَّاية – غدًا رجلًا يحبُّه الله ورسوله** – أو قال: **يحبُّ الله ورسوله** –، **يفتح الله عليه**». فإذا نحن بعليٍّ وما نرجوه، فقالوا: هذا عليّ. فأعطاه رسول الله ﷺ، ففتح الله عليه»[1].

❦❦❦

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

إخباره ﷺ عن بعض ما يدور في نفوس بعض الناس، وما وقع بينهم سرًّا

إخباره ﷺ عن بعض ما يدور في نفوس بعضهم، مما لا يعلمه إلا الله، أطلعه الله عليه بالوحي المعصوم فأخبر به.

كما أخبر عمير بن وهب الجمحي بما قال في مكة، وكان عمير قد اتفق مع صفوان بن أمية في مكة علىٰ قتل رسول الله ﷺ، فلما دخل المسجد النبوي بالمدينة أخبره النبي بما كان بينه وبين صفوان بن أمية، فما رجع مكة إلا مسلمًا.

وكذلك إخباره ﷺ يوم الفتح - كما جاء في كتب السير - عندما أمر بلالًا أن يصعد علىٰ الكعبة فيؤذّن - وأبو سفيان بن حربٍ، وعتّاب بن أسيدٍ، والحارث بن هشامٍ، وأشراف قريشٍ؛ جلوس بفناء الكعبة -، فقال عتّاب: لقد أكرم الله أسيدًا أن لا يكون سمع هذا، فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنّه محقّ لاتّبعته. فقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا، لو تكلّمت لأخبرت عنّي هذه الحصباء. فخرج عليهم النّبيُّ ﷺ، فقال: «**قد علمت الّذي قلتم**»، ثمّ ذكر ذلك لهم. فقال الحارث وعتّاب: نشهد أنّك رسول الله، والله ما اطّلع علىٰ هذا أحد كان معنا، فنقول: أخبرك.

ولو أردنا حصر هذه الأخبار لما انتهينا.



إخباره ﷺ بغيبيات وقعت بعد مماته ﷺ

إخباره ﷺ بفتح مصر

عن أبي ذرٍّ، يقول: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّكم ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا؛ فإنَّ لهم ذمَّةً ورحمًا**»[1].

---

(١) رواه مسلم.

إخباره ﷺ بظهور شخصين من ثقيف أحدهما مدعٍ للنبوة، والآخر مُهلك ومبير

عن أسماء بنت أبي بكر رضوان الله عليها، قالت: حدثنا رسول الله ﷺ: «**أَنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابًا وَمُبِيرًا**»[١].

أما الكذاب فهو: « المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي، كان أبوه من أجلة الصحابة، وأما هو فليس له صحبة ولا رواية، وهو الذي قال في حقه عبد الله بن عصمة: هو الكذاب الذي قال رسول الله ﷺ: **في ثقيف كذاب،** كان أولًا مشهورًا بالفضل والعلم والخير، وكان ذلك منه بخلاف ما يبطنه، إلىٰ أن فارق عبد الله بن الزبير، فطلب الإمارة وأظهر ما كان يبطن من فساد الرأي والعقيدة والهوىٰ. ولم يزل كذلك إلىٰ أن قتل سنة سبع وستين».

وأما المبير: فهو الحجاج بن يوسف الثقفي، قال صاحب «المشكاة»: هو عامل عبد الملك بن مروان علىٰ العراق، وهو الأمير الظالم الذي يضرب به المثل في الظلم والقتل والسفك.

---

(١) رواه مسلم.

إخباره ﷺ بأن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان سيقتلان رضوان الله عليهما

عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ صعد أحدًا وأبو بكرٍ وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: «**اثبت أحد، فإنَّما عليك نبيّ وصدِّيق وشهيدان**»[1].

وبالفعل قُتل عمر بن الخطاب علىٰ يد أبي لؤلؤة المجوسي، وأما عثمان فقتله الخوارج عليهم لعنة الله.

❊❊❊

(١) رواه البخاري ومسلم، واللفظ للبخاري.

إخباره ﷺ بتسلُّط الحكام على المسلمين، وبظهور النساء الكاسيات العاريات

قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النَّار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها النَّاس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رءوسهنَّ كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنَّة ولا يجدن ريحها، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»(١).

---

(١) رواه مسلم.

إخباره ﷺ بفتح بلاد كسرى وقيصر (الشام والعراق)

قال رسول الله ﷺ: «**إذا هلك كسرىٰ فلا كِسرىٰ بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصرَ بعده، والذي نفس محمد بيده، لتُنفَقَنَّ كنوزُهما في سبيل الله**»[(١)].

وقد أخبر ﷺ عن كثير من أمور الغيب، أوحاها الله إليه، وأخبره بها ليخبر الأمة بها؛ لتكون من دلائل نبوته، أو ليبشر المسلمين بخير، أو يحذرهم من شر.

فأخبر ﷺ بأن أمة الإسلام ستختلف، وسيقع بينها القتال في أول أمرها وسيصلح الله بينها، وسيكون الحسن بن علي - رضوان الله عليه - هو من سيصلح الله به بين المسلمين؛ كما جاء عن أبي بكرة، يقول: رأيت رسول الله ﷺ علىٰ المنبر والحسن بن عليٍّ إلىٰ جنبه، وهو يقبل علىٰ النَّاس مرَّةً وعليه أخرىٰ، ويقول: «**إنَّ ابني هذا سيِّد، ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»[(٢)]. وكان ذلك كما قال ﷺ.

كما أخبر ﷺ عن اختلاف أمته وتفرُّقها إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة، وقد كان، حتىٰ عدها العلماء عدًّا، كما أخبر أن الأمة الإسلامية ستتداعىٰ عليها الأمم وسيسلط الله عليها الذل بسبب ابتعاد أبنائها عن دين ربها جَلَّ وَعَلَا، وقد كان؛

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

فنسأل الله سبحانه أن يرد الأمة إلىٰ الدين ردًّا جميلًا، آمين.

كما أخبر ﷺ عن علامات الساعة الصغرىٰ والكبرىٰ، وقد وقعت الصغرىٰ كلها، حتىٰ صُنفت لها المصنَّفات في بيانها، ونحن نؤمن بوقوع العلامات الكبرىٰ التي أخبر عنها ﷺ قبل القيامة.

إلىٰ غير ذلك مما أخبر به ووقع بعد موته صلوات الله عليه، ولا يكون ذلك إلا من نبي صادق، فما الذي يورط إنسانًا في أن يقول للناس: سيقع كذا وكذا، ليكون ذلك اختبارًا لصدقه، فإن وقع كان صادقًا وإلا اتهمه الناس بالكذب، إلا إذا كان يبلغ رسالة السماء إلىٰ أهل الأرض.

❁❁❁

فصل في استجابة الله لدعائه ﷺ

إن الله جَلَّوَعَلَا لا يحب الكاذبين ولا يؤيِّدهم ولا ينصرهم، فضلًا عن أنه جَلَّوَعَلَا يرد دعاءهم عليهم دون استجابة، بل لا تفتح لأدعيتهم أبواب السماء.

وأما الأنبياء والرسل فدعاؤهم مستجاب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومعلوم أن من عوّده الله إجابة دعائه؛ لا يكون إلا مع صلاحه ودينه، ومن ادَّعىٰ النبوة لا يكون إلا من أبرّ الناس إن كان صادقًا، أو من أفجرهم إن كان كاذبًا، وإذا عوّده الله إجابة دعائه، لم يكن فاجرًا، بل برًّا، وإذا لم يكن مع دعوىٰ النبوة إلا برًّا؛ تعيّن أن يكون نبيًّا صادقًا، فإن هذا يمتنع أن يتعمَّد الكذب، ويمتنع أن يكون ضالًّا يظن أنه نبي»[1].

❊❊❊

---

(١) «الجواب الصحيح» (٦/ ٢٩٧).

استجابة الله لدعاء نبيه ﷺ، وإنزاله المطر ثم توقف المطر بدعاء النبي ﷺ

عن أنس بن مالكٍ، قال: أصابت النَّاس سَنَةٌ [أي: مجاعة] علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ، فبينا النَّبيُّ ﷺ يخطب في يوم جمعةٍ قام أعرابيّ فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا. فرفع يديه، وما نرىٰ في السَّماء قزعةً [أي: قطعة سحاب]، فوالَّذي نفسي بيده ما وضعها حتَّىٰ ثار السَّحاب أمثال الجبال، ثمَّ لم ينزل عن منبره حتَّىٰ رأيت المطر يتحادر علىٰ لحيته ﷺ، فمطرنا يومنا ذلك، ومن الغد، وبعد الغد والَّذي يليه، حتَّىٰ الجمعة الأخرىٰ، وقام ذلك الأعرابيُّ - أو قال: غيره -، فقال: يا رسول الله، تهدَّم البناء وغرق المال، فادع الله لنا. فرفع يديه، فقال: «**اللَّهمَّ حوالينا، ولا علينا**». فما يشير بيده إلىٰ ناحيةٍ من السَّحاب إلَّا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجوبة [الحفرة المستديرة الواسعة من كثرة الماء]، وسال الوادي قناة شهرًا، ولم يجئ أحد من ناحيةٍ إلَّا حدَّث بالجود [أي: المطر الشديد][(١)].

❀❀❀

(١) رواه البخاري ومسلم.

استجابة الله دعاء نبيه ﷺ لأنس بن مالك رضوان الله عليه

عن أنسٍ، قال: دخل النَّبيُّ ﷺ علينا وما هو إلَّا أنا وأمِّي وأمُّ حرامٍ خالتي، فقال: «**قوموا فلأصلِّي بكم**». في غير وقت صلاةٍ، فصلَّىٰ بنا. فقال رجل لثابتٍ: أين جعل أنسًا منه؟ قال: جعله علىٰ يمينه. ثمَّ دعا لنا أهل البيت بكلِّ خيرٍ من خير الدُّنيا والآخرة، فقالت أمِّي: يا رسول الله، خويدمك ادع الله له. قال: فدعا لي بكلِّ خيرٍ، وكان في آخر ما دعا لي به أن قال: «**اللَّهمَّ أكثر ماله وولده وبارك له فيه**»[1].

ومرت الأيام حتىٰ قال أنس - بعد موت رسول الله ﷺ -: «فوالله إن مالي لكثير، وإن ولدي ووَلَدَ وَلَدي ليتَعادُّون علىٰ نحو المائة اليوم»[2].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

استجابة الله لدعاء نبيه ﷺ لأبي هريرة ألا ينسى حديثًا سمعه من رسول الله ﷺ

عن أبي هريرة، قال: قلت: يا رسول الله، إنِّي أسمع منك حديثًا كثيرًا أنساه. قال: «**ابسط رداءك**»، فبسطته. قال: فغرف بيديه ثمَّ قال: «**ضمَّه**»، فضممته فما نسيت شيئًا بعده[1].

قال ابن حجر: «وفي هذا الحديث فضيلة ظاهرة لأبي هريرة، ومعجزة واضحة من علامات النبوة؛ لأن النسيان من لوازم الإنسان، وقد اعترف أبو هريرة بأنه كان يَكثُر منه، ثم تخلف عنه [أي النسيان] ببركة النبي ﷺ»[2].

❀❀❀

---

(١) رواه البخاري.

(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٦٠).

استجابة الله لنبيه ﷺ في دعائه لعبد الله بن عباس رضوان الله عليه

عن ابن عبَّاسٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ دخل الخلاء، فوضعت له وضوءًا، قال: «**من وضع هذا؟**». فأُخبِر، فقال: «**اللَّهمَّ فقِّهه في الدِّين**»[١].

وفي رواية عند أحمد في «المسند»: «**اللهم فقِّهه في الدِّين، وعلِّمه التأويل**».

فكان بعدُ من أكثر الصحابة فقهًا، ومن أعلمهم بتفسير كتاب الله جَلَّ وَعَلَا.

وما من دعوة دعاها النبي ﷺ إلا وقد أجابها الله له، وجعلها واقعًا يُشاهده الناس؛ إكرامًا لنبيه ﷺ، ودلالة من دلائل نبوته ﷺ، إلا دعوةً واحدة أخبر النبي ﷺ بها، ولم يكن يعلم بها من أحد من أصحابه حتىٰ أخبر هو بها ﷺ، وأخبر أنها لن تُستجاب.

قال ﷺ: «**سألت ربِّي ثلاثًا، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدةً؛ سألت ربِّي أن لا يهلك أمَّتي بالسَّنة فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمَّتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها**»[٢].

وفي هذا الحديث دلالة أخرىٰ من دلائل نبوته ﷺ؛ إذ أخبر أن الأمة سيذوق أبناؤها بأس بعض، وسيقع بينهم من التشاحن والقتال ما سيقع.

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

فصل في دلالة مخالفته ﷺ لأهواء قومه على صدقه

لأنه ما من كذاب يريد أن يُصدقه الناس إلا ويأتي بما يريده الناس ويحبونه؛ ليصدِّقوه، وأما أن يأتي بما يخالف عقائدهم وتقاليدهم وعاداتهم، ويطالبهم بأن ينخلعوا من كل ذلك ليتبعوه؛ فهذا لا يفعله كذاب يريد أن يُصدقه الناس؛ لأنك لن تراود الرجال عن شيء أشد عليهم من دينهم ودين آبائهم.

وأما الأنبياء والمرسلون؛ فإنهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم، وليس لهم أن يبدلوا ما أمرهم الله به.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس: ١٥].

وإذن فالنبي ﷺ بلغ رسالة ربه ولم يركن لقومه في شيء، فسفَّه آلهتهم وحوَّل قبلتهم من الكعبة إلىٰ بيت المقدس لسنواتٍ طويلة - امتثالًا لأمر ربه جَلَّ وَعَلَا -، ونهاهم عن الفخر بالآباء والأجداد، ونهاهم عن العصبية الجاهلية صلوات الله عليه، وهذا من دلائل صدقه في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة.

ومما يثبت صدقه ﷺ: مخالفته لأهل الكتاب

فكان النبي ﷺ يخالف اليهود والنصارىٰ فيما يأتون به من الباطل، ويأمر أصحابه أن يُظهروا ذلك، حتىٰ قالت اليهود: ما يريد هذا الرجل إلا مخالفتنا.

ولو كان كاذبًا - وحاشاه صلوات الله عليه - لأمر أتباعه بمشابهة أهل الكتاب في كل شيء؛ ليكسب ودَّهم ولينصروه علىٰ المشركين الوثنيين، ولكنه ﷺ لم يفعل لأنه هو الصادق الأمين، فلا يتلاعب بشريعة ربه من أجل مصالح سياسية ولا أغراض دنيوية، بل يبلِّغ ما أرسله الله به، ويعتقد أن النصر يأتي من عند الله جَلَّ وَعَلَا لا من عند البشر.

حتىٰ إن اليهود كانوا يُشاركون في حروب المشركين الوثنيين ضد الإسلام والمسلمين، بل قد قال بعضهم كما مر في ذكر غزوة الأحزاب، قال بعض اليهود وقد ذهب ليتحالف مع قريش ضد النبي ﷺ، لما سأله أحد المشركين من قريش: «دين قريش أهدىٰ أم دين محمد؟».

فأجابه اليهودي بأن دين المشركين أهدىٰ من دين النبي ﷺ؛ فنزل فيه قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

ومن مخالفته لهم: ما جاء في صحيح السنة المطهَّرة:

قال رسول الله ﷺ: «**خالفوا اليهود؛ فإنهم لا يُصَلُّون في نعالهم ولا خفافهم**»(١).

وقال ﷺ: «**إنَّ اليهود والنَّصارىٰ لا يصبغون، فخالفوهم**»(٢).

وفي رواية: «**غيِّروا الشَّيب، ولا تشبَّهوا باليهود ولا بالنَّصارىٰ**»(٣).

وعن عبد الله بن عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال:** «حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه قالوا: يا رسول الله، إنَّه يوم تعظِّمه اليهود والنَّصارىٰ، فقال رسول الله ﷺ: «**فإذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التَّاسع** [يعني مع العاشر]»، قال: فلم يأت العام المقبل حتَّىٰ توفِّي رسول الله ﷺ»(٤).

❁❁❁

---

(١) رواه أبو داود في «سننه»، وصحَّحه الألباني.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه أحمد، وحسَّنه الألباني.

(٤) رواه مسلم.

فصل في عدم استغلاله ﷺ لما يحدث من الظواهر الكونية لإثبات صدقه ﷺ

عن أبي بكرة، قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ جلوسًا، فانكسفت الشَّمس، فقام رسول الله ﷺ فزعًا يجرُّ ثوبه حتَّىٰ دخل المسجد، فصلَّىٰ ركعتين، فلم يزل يصلِّيها حتَّىٰ انجلت، وكان ذلك عند موت إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، فقال النَّاس: إنَّما انكسفت الشَّمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أيُّها النَّاس، إنَّ الشَّمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحدٍ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا حتَّىٰ يكشف ما بكم**»[(١)].

وفي الحديث أن الشمس قد كَسَفَتْ في يوم وفاة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، فقال بعض الناس. لقد كَسَفَتْ الشمس لموت إبراهيم ابن الرسول ﷺ. فصلَّىٰ النبي بهم صلاة الكسوف ثم قال لهم: «**يا أيُّها النَّاس، إنَّ الشَّمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحدٍ، فإذا رأيتم ذلك فادعوا حتَّىٰ يكشف ما بكم**».

فلو كان كذابًا – وحاشاه – لاستغلَّ ذلك الموقف لصالحه، وترك الناس تقول ما تقول كدليل مادي ومعجزة شاهدها الناس بأعينهم تشهد بصدقه، ولكنه ﷺ هو الصادق الذي لا يخون، وإنما يؤدي أمانة ربه جَلَّ وَعَلَا بتبليغ دين قد جاء ليهدم الخرافات ويمنع الأساطير، وليقيم الحقيقة بين الناس؛ فلم

(١) رواه مسلم، وابن حبان في «صحيحه» واللفظ له.

يتركهم حتىٰ بيَّن لهم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله فلا يقع بهما كسوف أو خسوف لموت أحدٍ من البشر أو حياته. فصلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم.



فصل في عظيم شريعته ﷺ وكمالها

ما من مصلح اجتماعي جاء إلىٰ قوم عندهم من الفساد والتخلُّف والشرور ما عندهم، فجاء بأسس من عند نفسه ليُصلح بها مجتمعه، إلا وتجد فيما جاء به قصورًا إما فيما جاء به، أو فيما أهمله ولم يهتم به من الأمور، سواء الدينية أو التنظيمية للمجتمع.

فالمُصلح الاجتماعي ليس له أن ينظم أمور الدين؛ فالدين يكون لمن يُدان له ومن يُعبد سبحانه جَلَّ وَعَلَا، وأما وضع القوانين والأنظمة التي تنظم أمور الحياة؛ فلا يأتي بذلك كاملًا سالمًا من كل عيب وخلل إلا من جاء به من عند الله جَلَّ وَعَلَا، فمهما اجتهد مجتهد لوضع قانون وضعي من عند نفسه لضبط مجتمع ما؛ فإن ما سيأتي به من قوانين سيقع فيها من الخلل والتناقض ما يضرُّ باستقرار وضبط المجتمع، ولنا في القوانين الوضعية أكبر عبرة؛ إذ ترىٰ الثغرات القانونية التي ينفذ من خلالها من ينفذ من المجرمين منتشرة في أكثر مواد هذه القوانين.

وأما عن التقصير بالإهمال والنسيان وترك ما لا يحسن تركه؛ فحدِّث ولا حرج.

وأما ما جاء به محمد ﷺ؛ ففيه الكمال والعصمة، وانظر إلىٰ دولة الإسلام في مجدها عندما كانت تطبِّق دين ربها وشريعة نبيها ﷺ تطبيقًا كاملًا؛ فستجد انضباطًا رائعًا مع اهتمام شامل بجميع جوانب الحياة.

فمن من البشر لاقىٰ ما لاقاه النبيُّ ﷺ في حياته من محاربة المشركين من

أول يوم إلىٰ آخر يوم، حتىٰ مات وهو يَعُد جيشًا ليحارب به الروم، ثم يهتم بكل تفاصيل الشرائع التي تنظم المجتمع دون تقصير أو خلل.

وعلم المواريث وحده دليل علىٰ صدقه ﷺ؛ إذ أحصىٰ كل حالات الميراث التي وقعت والتي قد تقع في يومٍ من الأيام، ووضع لكل وارث في كل حالاته ما له من ميراث، ولا يكون هذا الكمال إلا من عند الله جَلَّ وَعَلَا وحده.

فمات رسول الله ﷺ يوم مات وقد أتم الله له الملَّة وأكمل له الدين، فما من بيان في مسألة من مسائل العقيدة أو العبادة أو المعاملة إلا وقد جاء به جليًّا واضحًا.

فعن سلمان رضوان الله عليه، قال: قيل له: قد علَّمكم نبيُّكم ﷺ كلَّ شيءٍ حتَّىٰ الخراءة. قال: فقال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائطٍ أو بولٍ، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقلَّ من ثلاثة أحجارٍ، أو أن نستنجي برجيعٍ أو بعظمٍ[(١)].

وعن أبي ذر، قال: تركنا رسول الله ﷺ، وما طائر يقلِّب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكِّرنا منه علمًا، قال: فقال ﷺ: «**ما بقي شيء يقرِّب من الجنَّة، ويباعد من النَّار، إلا وقد بيِّن لكم**»[(٢)].

❁❁❁

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البزار في «مسنده»، والطبراني في «المعجم الكبير».

فصل في عظيم أثره ﷺ في الناس، وتحولهم من جاهليتهم إلى منهج الإسلام العظيم

فمعلوم أنه من المحال أن يأتي شخص بشيء يدعو الناس إليه وهو يخالفه، ثم يتبعه الناس علىٰ ذلك، فيدعوهم للصدق وهو يكذب، ثم يتخذونه أسوة وقدوة؛ فيصدُقُونَ في أقوالهم وأسوتهم غير صادق.

وكذلك في أعمال البر والتقوىٰ والبعد عن سيئ الأخلاق، فيدعوهم للزهد في الدنيا وهو يبحث عن متاعها وشهواتها، ويرون منه كل ما يسوء من أخلاق سيئة، ثم يتَّبعون قوله ويقبلون علىٰ أعمال البر والتقوىٰ، ويبتعدون عن سيئ الأخلاق، ومع ذلك يجعلونه سيدهم وقائدهم وهم يرون منه ما يرون!

هذا من المحال العقلي.

فلو كان أتباعه لا يزيدون عن العشرة أو العشرين؛ لقيل: ربما كانوا من المجانين، ولكن أن يتبعه في حياته ما يزيد عن مائة ألف، كلهم رأوه وسمعوا منه؛ فهذا لا يكون أبدًا، إلا إذا صدق قوله فعله، وكان قائمًا علىٰ الأخلاق الحميدة والطباع الحسنة.

والعجيب في الأمر أن النبي ﷺ بُعث وكان الناس في جاهلية جهلاء، يدفنون بناتهم أحياءً، ويشربون الخمر حتىٰ يأكل الواحد منهم ما يتغوطه، ويعبدون الأصنام من العجوة فإذا جاعوا أكلوها، ويتبعون السحرة والمشعوذين، مجتمع

كامل علىٰ هذه الصفة إلا نفر قليل ممن سلم من ذلك في جاهليته وبعد إسلامه، ثم يتحوَّلون جميعًا إلىٰ ما رأيت عبر سيرته العطرة؛ فخالد بن الوليد الذي كان يحاربه في أُحُد ليرفع راية الأصنام والأوثان تحوَّل إلىٰ أسد الله يرفع راية التوحيد ويحارب ويجالد المشركين؛ لتكون كلمة الله هي العليا. وعمرو بن العاص الذي سافر ليرد المهاجرين إلىٰ الحبشة ليذوقوا العذاب مرة أخرىٰ في مكة؛ هو هو مَنْ يسافر من أجل نشر كلمة التوحيد، يحمل رسائل رسول الله ﷺ إلىٰ الملوك يدعوهم إلىٰ الإسلام. وأبو سفيان الذي أسلم بعد الفتح بعدما حارب النبي ﷺ لمدة تزيد عن عشرين عامًا؛ هو هو مَنْ يحمل سلاحه ليدافع عن الإسلام والمسلمين في غزوة حنين علىٰ كبر سنه وتأخُّر إسلامه، وأما زوجه هند بنت عتبة وهي التي حرضت علىٰ قتل حمزة بن عبد المطلب بالأمس؛ هي هي في أول يوم لها في الإسلام، بل عندما جاءت تبايع رسول الله ﷺ؛ كما جاء في الصحيحين، تسأله: هل يجوز لي أن آخذ من مال زوجي لأنفق علىٰ نفسي؛ فهو رجل شحيح؟ انظر كيف تحولت!

تخاف من درهمٍ حرام تأخذه من مال زوجها الذي قد يُقصر في النفقة عليها، فتأخذ من ماله لتنفق علىٰ نفسها وهي زوجه وفي بيته، وتخشىٰ أن يكون ذلك مغضبًا لله عليها فتهلك؛ فتسأل عنه رسول الله ﷺ في أول أيامها في دين الله جَلَّ وَعَلَا.

وأما عن البُعد عن المنكرات والفواحش وإراقة الخمر حتىٰ سالت الخمر في شوارع المدينة؛ فحدِّث عن ذلك ولا حرج.

وأما عن نبذ العصبية الجاهلية والتآلف والمحبة؛ فحدث ولا حرج، لقد كانت القبائل تتقاتل من أجل ناقة أو بعير، فيقع بينهم قتال ربما دام أربعين عامًا

كما وقع في حرب البسوس!

فجاء النبي ﷺ ليبدد ذلك كله، وليقيم بين الناس السلام والمحبة، ويأمرهم بنزع العصبيات الجاهلية، فقال في محضر مائة وأربعين ألفًا من الصحابة يحجُّون معه في حجة الوداع: «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي علىٰ أعجمي، ولا لعجمي علىٰ عربي، ولا لأحمر علىٰ أسود، ولا أسود علىٰ أحمر إلا بالتقوىٰ، أبلغت؟**

قالوا: بلغ رسول الله ﷺ.

إلىٰ أن قال: إن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، أبلغت؟

قالوا: بلغ رسول الله ﷺ، قال: **ليبلغ الشاهد الغائب**»[(١)].

فعظيمُ أثرِهِ في الناس دليل علىٰ صدقه ﷺ، فما جاء مُدعيًا للنبوة قط وكان له أثر عظيم في الناس أبدًا.

وإن كانت هذه المُثل والقيم قد تراجعت شيئًا فشيئًا في أمته من بعد عصر الخلفاء الراشدين، حتىٰ وصلنا إلىٰ هذا الدرك المنحط من الأخلاق؛ فإن ذلك ما وقع في أمة محمد ﷺ إلا بعدما انفتحت علىٰ غيرها من الأمم، فَتَقَمَّمَتْ أخلاقهم السيئة بحجة التحضُّر والمدنيَّة!

قال رسول الله ﷺ: «لتركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع،

(١) رواه البخاري، ومسلم، وأحمد في «مسنده» واللفظ له.

حتىٰ لو أن أحدهم دخل حجر ضب لدخلتم، وحتىٰ لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه»(١).

وهذا الحديث من أدلة صدقه ﷺ؛ إذ وقع ما حذَّر منه، وعادت الأمة القهقرىٰ وتخلَّفت حتىٰ تداعت عليها الأمم.

قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تداعىٰ عليكم الأمم من كل أفق كما تداعىٰ الآكلة علىٰ قصعتها، قال: قلنا: يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: **أنتم يومئذ كثير، ولكن تكونون غثاءً كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوِّكم ويجعل في قلوبكم الوهن،** قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: **حب الحياة وكراهية الموت»**(٢).

وهذا أيضًا من دلائل صدقه ﷺ؛ إذ أخبر بالغيب إذ ينزل بالمسلمين ما ينزل من ضعف ومذلَّة، ثم وضح سببه؛ لتسعىٰ الأمة بعدُ للبعد عن سبب ضعفها وذُلِّها والإقبال علىٰ أسباب قوتها وعزَّتها.

وإذن؛ فأثره في الناس لا يخفىٰ علىٰ أحد، وكما قيل: من الذي استطاع أن يمنع مليارات البشر من شرب الخمر قبل محمد ﷺ؟!

من الذي استطاع تنقية قلوب مليارات البشر من الشرك وعبادة المخلوقات من أشخاص وحيوانات وجمادات قبل محمد ﷺ؟!

لن تجد لذلك جوابًا؛ لأنه وحده ﷺ هو من قام بذلك فهو خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ﷺ.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك».

(٢) أخرجه أحمد في «المسند»، وصحَّحه الألباني.

فصل في معجزاته ﷺ المادية

ومنها ما يلي:

القرآن الكريم:

من أعظم معجزات النبي ﷺ؛ إذ هو كلام الله جَلَّوَعَلَا أنزله الله علىٰ نبيه ﷺ، كتاب الله الخاتم لأهل الأرض أجمعين، فيه بيان للعقائد والشرائع والمعاملات، وفيه قصص الأولين ومواعظ للآخرين، وهدًىٰ ونور وهداية للخلق أجمعين.

وقد تحدَّىٰ الله جَلَّوَعَلَا المشركين أن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فلم يستطيعوا، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم يستطيعوا، وعجز العرب عن أن يأتوا بمثل كلام الله جَلَّوَعَلَا وظل عجزهم ظاهرًا حتىٰ أسلمت جزيرة العرب كلها.

قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

وإعجاز القرآن ليس فقط في نظمه ولا في أسلوبه ولا فيما يحويه من علوم، وإنما إعجازه الأكبر أنه من عند الله جَلَّ وَعَلَا؛ إذ الله جَلَّ وَعَلَا هو من تكلم به، وهو سبحانه المهيمن على خلقه، فإذا قال الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود: ٤٤]. فإن ذلك لا يعد حكاية عما وقع فقط، وإنما كان هذا الكلام – حينما قيل – أمرًا ملزمًا للأرض وكذلك للسماء، فليس ككلام الشعراء ما هو إلا تخيلات ومبالغات، كلا وحاشا، وإنما هو كلام الله، فهو الحق الحقيق، والأمر الملزم الذي لا خيار فيه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وهذا هو الإعجاز الأعظم؛ أنه هو كلام الخالق جَلَّ وَعَلَا.

الإسراء والمعراج:

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقال جَلَّ وَعَلَا في سورة النجم: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ

رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ [النجم: ١-١٨].

وأول ما كان في رحلة الإسراء والمعراج؛ شق صدره ﷺ للمرة الثانية، وغسل قلبه الشريف ﷺ في إناء من ذهب، قد ملئ إيمانًا، ثم ركب البُراق وهو دابَّة كما قال رسول الله ﷺ، قال: «**أتيت بالبراق - وهو دابَّة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهىٰ طرفه -، قال: فركبته حتَّىٰ أتيت بيت المقدس، - قال - فربطته بالحلقة الَّتي يربط به الأنبياء - قال -، ثمَّ دخلت المسجد فصلَّيت فيه ركعتين...**» الحديث[1].

فأسري به ﷺ إلىٰ بيت المقدس، فصلَّىٰ بالأنبياء هنالك، ثم أُعرج به إلىٰ السماء، ومر علىٰ كل سماء يسلِّم علىٰ أنبياء الله فيها، حتىٰ وصل إلىٰ السماء السابعة، وسمع صريف الأقلام تكتب المقادير، وفي هذه الرحلة فُرضت الصلاة، ثم نزل إلىٰ حجرته ﷺ في مكة في ليلته التي أُسري به فيها وفراشه دافئ، والقصة كاملة مذكورة في كثير من كتب السنة بأسانيد صحيحة؛ فوردت في «البخاري» و«مسلم»، وعند ابن حبان في «صحيحه»، وعند أحمد في «مسنده»، وفي غير ذلك من كتب السنَّة، بل كما مر جاء ذكرها في القرآن الكريم.

تكثيره ﷺ للماء وللطعام في أكثر من مناسبة:

ومن ذلك ما كان في يوم الخندق:

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لمَّا حفر الخندق رأيت بالنَّبيِّ ﷺ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

خمصًا شديدًا [أي: جوعًا شديدًا]، فانكفأت إلىٰ امرأتي، فقلت: هل عندك شيء؟ فإنِّي رأيت برسول الله ﷺ خمصًا شديدًا. فأخرجت إليَّ جرابًا فيه صاع من شعيرٍ، ولنا بهيمة داجن فذبحتها، وطحنت الشَّعير فَفَرَغَتْ إلىٰ فَراغي، وقطَّعتها في برمتها [أي: في وعاء عميق]، ثمَّ ولَّيت إلىٰ رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه. فجئته فساررته، فقلت: يا رسول الله، ذبحنا بهيمةً لنا وطحنَّا صاعًا من شعيرٍ كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك. فصاح النَّبيُّ ﷺ فقال: «**يا أهل الخندق، إنَّ جابرًا قد صنع سُورًا فحيَّ هلًا بكم**». فقال رسول الله ﷺ: «**لا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُم، ولا تخبزنَّ عجينكم حتَّىٰ أجيء**». فجئت وجاء رسول الله ﷺ يقدم النَّاس، حتَّىٰ جئت امرأتي، فقالت: بك وبك. فقلت: قد فعلت الَّذي قلت. فأخرجت له عجينًا، فبصق فيه وبارك، ثمَّ عمد إلىٰ برمتنا فبصق وبارك، ثمَّ قال: «**ادع خابزةً، فلتخبز معي، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها**»، وهم ألف، فأقسم بالله: لقد أكلوا حتَّىٰ تركوه وانحرفوا، وإنَّ برمتنا لتغطُّ كما هي، وإنَّ عجيننا ليخبز كما هو[1].

ومن ذلك أيضًا ما كان في غزوة تبوك:

عن أبي سعيد قال: لمَّا كان غزوة تبوك أصاب النَّاس مجاعة، قالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادَّهنَّا. فقال رسول الله ﷺ: «**افعلوا**». قال: فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إن فعلت قلَّ الظَّهر، ولكن ادْعُهُمْ

(١) رواه البخاري ومسلم.

بفضل أزوادهم، ثمَّ ادعُ الله لهم عليها بالبركة؛ لعلَّ الله أن يجعل في ذلك.

فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**». قال: فدعا بِنِطعٍ فبسطه، ثمَّ دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرَّجل يجيء بكفِّ ذرةٍ، ويجيء الآخر بكفِّ تمرٍ، ويجيء الآخر بكسرةٍ، حتَّىٰ اجتمع علىٰ النِّطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة، ثمَّ قال: «**خذوا في أوعيتكم**». قال: فأخذوا في أوعيتهم حتَّىٰ ما تركوا في العسكر وعاءً إلَّا ملئوه، فأكلوا حتَّىٰ شبعوا وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنِّي رسول الله، لا يلقىٰ الله بهما عبد غير شاكٍّ فيحجب عن الجنَّة**»(١).

ووقع ذلك في أكثر من مناسبة، واكتفيت بما مرَّ اختصارًا.

وأما عن تكثيره ﷺ للشراب:

فكان من ذلك ما كان في الهجرة إلىٰ المدينة ، عندما أقبل هو وأبو بكر علىٰ أم معبد، فلما سئلت عن طعام أو شراب ليشتروه منها فلم تجد، نظر رسول الله ﷺ إلىٰ شاةٍ في كسر الخيمة، فقال: «**ما هذه الشَّاة يا أمَّ معبدٍ؟**»، قالت: خلَّفها الجهد عن الغنم. قال: «**فهل بها من لبنٍ؟**»، قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «**أتأذنين أن أحلبها؟**»، قالت: بلىٰ بأبي أنت وأمِّي، إن رأيت بها حلبًا فاحلبها، فدعا بها رسول الله ﷺ، فمسح بيده ضرعها وسمَّىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ودعا لها في شاتها، فتفاجَّت عليه ودرَّت واجترَّت، ودعا بإناءٍ يُرْبِضُ الرَّهط، فحلب فيها ثجًّا

(١) رواه مسلم.

حتَّىٰ علاه البهاء، ثمَّ سقاها حتَّىٰ رويت، وسقىٰ أصحابه حتَّىٰ رووا، وشرب آخرهم ﷺ، ثمَّ أراضوا [أي:شربوا مرة بعد مرة] ، ثمَّ حلب فيها ثانيًا بعد بدءٍ حتَّىٰ ملأ الإناء، ثمَّ غادره عندها ثمَّ بايعها وارتحلوا عنها[١].

❁❁❁

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير».

ومن معجزاته ﷺ حنين الجزع له

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان النَّبيُّ ﷺ يخطب إلىٰ جذعٍ، فلمَّا اتَّخذ المنبر تحوَّل إليه، فحنَّ الجذع فأتاه فمسح يده عليه[١].

وفي رواية عند ابن ماجه عن أنسٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يخطب إلىٰ جذعٍ، فلمَّا اتَّخذ المنبر ذهب إلىٰ المنبر، فحنَّ الجذع، فأتاه فاحتضنه فسكن، فقال: «**لو لم أحتضنه لحنَّ إلىٰ يوم القيامة**»[٢].

❀❀❀

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه ابن ماجه ، ورواه ايضًا الدارمي عن ابن عباس.

ومن معجزاته ﷺ نبوع الماء من بين يديه الشريفتين

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين يديه ركوة [أي: إناء من جلد]، فتوضأ، فجهش [أي: أسرع] الناس نحوه، فقال: **ما لكم؟** قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك. فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا، وتوضأنا»، قلت: كم كنتم؟ قال: «لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة»(١).

ومن ذلك ما حصل بالزوراء - وهو مكان قرب السوق في المدينة -؛ عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: «أُتي النبي ﷺ بإناءٍ وهو بالزوراء، فوضع يده في الإناء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ القوم»، قال قتادة: قلت لأنس: كم كنتم؟ قال: «ثلاثمائة، أو زهاء ثلاثمائة»(٢).

ونكتفي بما مرَّ من معجزات اختصارًا؛ إذ يحتاج ذكرها إلىٰ مصنَّفٍ مستقلٍّ.

❀❀❀

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

فصل في التبشير به ﷺ في التوراة والإنجيل

لقد جاءت البشارات واضحة في الكتاب المقدس بالنبي ﷺ في عهديه القديم والجديد:

وأما بشارات العهد القديم بالنبي محمد ﷺ

جاء في «سفر أشعياء»

«**وحي من جهة بلاد العرب**: في الوعر في بلاد العرب تبيتين، يا قوافل الدَّدانيِّين. ١٤هاتوا ماءً لملاقاة العطشان، يا سكَّان أرض تيماء. وافوا الهارب بخبزه. ١٥فإنَّهم من أمام السُّيوف قد هربوا. من أمام السَّيف المسلول، ومن أمام القوس المشدودة، ومن أمام شدَّة الحرب. ١٦فإنَّه هكذا قال لي السَّيِّد: «**في مدَّة سنةٍ كسنة الأجير يفنىٰ كلُّ مجد قيدار، ١٧وبقيَّة عدد قسيٍّ أبطال بني قيدار تقلُّ؛ لأنَّ الرَّبَّ إله إسرائيل قد تكلَّم**»»[1].

وفي الأعداد السابقة من «سفر أشعياء» إشارات واضحة إلىٰ الوحي: ينزل علىٰ نبي من العرب، وأنه سيهاجر من أمام السيوف، ثم ينادي علىٰ سكان أرض تيماء - وهي من أعمال المدينة - ليُحضروا الماء وليستقبلوا المهاجرين، ثم بعد سنة تقع المعركة، معركة بدر، ويفنىٰ مجد قيدار، وقيدار من أولاد إسماعيل،

(١) الكتاب المقدس، «سفر أشعياء»، إصحاح (٢١)، الأعداد من(١٣) إلىٰ (١٧).

وأبناؤه أهل مكة، وقد قلت قسي وهم من أبناء قيدار بعد غزوة بدر.

وجاء أيضًا في سفر أشعياء ما يلي:

أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له: «اقرأ هذا». فيقول: «لا أعرف الكتابة»(١).

وهو مطابق تمامًا لما ورد في أول بعثة النبي محمد ﷺ، بل هو نص ما جاء في رواية عائشة زوج رسول الله ﷺ: «حتَّىٰ فجئه الحقُّ وهو في غار حراءٍ، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: «**ما أنا بقارئٍ**، - قال - **فأخذني فغطَّني حتَّىٰ بلغ منِّي الجهد، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ**. قال: **قلت: ما أنا بقارئٍ**، - قال - **فأخذني فغطَّني الثَّانية حتَّىٰ بلغ منِّي الجهد، ثمَّ أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثَّالثة حتَّىٰ بلغ منِّي الجهد، ثمَّ أرسلني، فقال:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق: ١-٥]». فرجع بها رسول الله ﷺ»(٢).

وأما سفر التثنية فقد جاء فيه ما يلي:

«أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلِّمهم بكلِّ ما أوصيه به»(٣).

وهي بشارة بالنبي محمد ﷺ، تدل علىٰ إقامة نبي من وسط إخوتهم؛ يعني

(١) الكتاب المقدس، «سفر أشعياء»، إصحاح (٢٩)، العدد (١٢).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) الكتاب المقدس، «سفر التثنية»، الإصحاح (١٧)، العدد (١٨).

من وسط إخوة إسماعيل كما خرج موسىٰ من وسط إخوة إسرائيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وبالتدقيق في نصِّ البشارة نجد ما يلي[(١)]:

أن البشارة إما هي بشارة بعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو بمحمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وأن المبشَّر به - المنتظَر - ذكر له صفات في البشارة لابد أن تنطبق عليه كي يكون هو المقصود بها، وهي في قوله: «أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك»، فمن مثل موسىٰ من النبيين؟ المسيح أم محمد - عليهما الصلاة والسلام -؟

هذه مقارنة يسيرة بين المسيح ومحمد عليهما الصلاة والسلام؛ أيهما أشبه بموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟

من حيث الولادة الطبيعية: فمحمد ﷺ ولد كما ولد موسىٰ ولادة طبيعية، أما عيسىٰ فولد من أم دون أب.

ومن حيث الشريعة: فإن محمدًا ﷺ قد جاء بشريعة كاملة كما جاء موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بشريعة كاملة، وأما عيسىٰ فإن شريعته تابعة لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

ومن حيث نتيجة الدعوة: فإن محمدًا ﷺ هو نبي آخر الزمان وقد آمنت به العرب والعجم، فما مات إلا والعرب كلها تؤمن به كرسول لها ولغيرها، وكذلك موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آمن به اليهود وما مات إلا واليهود كلهم يؤمنون به كرسولٍ لهم، وأما عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فما آمن به قومه بل كفروا به، وإلىٰ الآن اليهود لم يؤمنوا به.

---

(١) استفدت ذلك من مناظرة للشيخ أحمد ديدات رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومن حيث الوفاة: فإن محمدًا ﷺ مات ميتة طبيعية، وكذلك موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأما المسيح ففي معتقد النصارىٰ أنه قُتل مصلوبًا، وأما في حقيقة الأمر فهو لم يمت إلىٰ الآن، وإنما رفعه الله إليه، وسينزل في آخر الزمان فيكون تابعًا لشريعة محمد ﷺ.

فهو في أول حياته كان تابعًا لشريعة موسىٰ، وفي آخرها سيكون تابعًا لشريعة محمد - صلوات الله عليهم أجمعين -.

إذن؛ البشارة في هذا العدد هي خاصة بالنبي محمد ﷺ، وليست بعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع العلم أنه وفقًا لعقيدة المسلمين وكذلك عقيدة اليهود والنصارىٰ لم ينزل نبي بعد موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُشابه موسىٰ في هذه الأمور العظيمة إلا محمد - عليهما الصلاة والسلام -، وأما عن عقيدة النصارىٰ في المسيح فإنها أيضًا لا تسمح لهم أن يُشبهوا المسيح بموسىٰ - عليهما السلام -؛ لأنهم يعتقدون أنه إله! فكيف يؤمنون مع ذلك أنه مثل موسىٰ؟!

وفي العهد القديم بشارات كثيرة بالنبي محمد ﷺ وبدين الإسلام العظيم، غير أننا اكتفينا بما مر اختصارًا.

وأما بشارات العهد الجديد بالنبي محمد ﷺ؛ فمنها ما يلي:

جاء في سفر رؤيا يوحنا:

«ثمَّ رأيت السَّماء مفتوحةً، وإذا فرس أبيض والجالس عليه يُدعىٰ أمينًا وصادقًا، وبالعدل يحكم ويحارب»(١).

---

(١) الكتاب المقدس، «سفر التثنية»، إصحاح (١٩)، العدد (١١).

وفي النص إشارة واضحة إلىٰ رسول الله محمد ﷺ؛ إذ لُقب بالأمين وبالصادق قبل البعثة وبعدها، وفيه إشارة إلىٰ رحلة الإسراء والمعراج، وفيه دليل واضح علىٰ أن هذه البشارة تخص محمدًا ﷺ؛ إذ لم يوصف بأنه «بالعدل يحكم ويحارب» أحد من أنبياء العهد الجديد، فضلًا عن أن يكون قد وُصف قبلُ بأنه أمين وصادق في قومه.

وفي إنجيل يوحنا:

«إن كنتم تحبُّونني فاحفظوا وصاياي، (١٦) وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزِّيًا آخر ليمكث معكم إلىٰ الأبد»(١).

وهذا الكلام المنسوب إلىٰ المسيح عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ في إنجيل يوحنا، يكلم أتباعه ويخبرهم أن الله جَلَّ وَعَلَا سيعطيهم معزيًا.

وفي اللغات الأجنبية: «فيعطيكم باركليتوس؛ ليمكث معكم إلىٰ الأبد»، والمعنىٰ الحرفي لكلمة (باركليتوس) اليونانية هو (أحمد)، وهو من أسماء الرسول ﷺ(٢).

وعلىٰ كل حال: فإنه لم يأتِ بعد المسيح مثله أو أعظم منه إلا نبينا محمد ﷺ، هذا في اعتقاد المسلمين، وأما في اعتقاد النصارىٰ فإن المسيح لن يأتي مثله بعده؛ لأنهم لو قالوا: إنما المقصود بالمعزي هو الروح القدس وهو إله مثله؛ قلنا لهم: لقد كان موجودًا في زمانه، بل كان موجودًا معه من أول يوم حينما

---

(١) الكتاب المقدس «إنجيل يوحنا»، إصحاح (١٤)، العدد (١٥، ١٦).

(٢) انظر: «نبي أرض الجنوب»، تأليف جمال الدين الشرقاوي.

عمده يوحنا المعمدان، وكان ذلك في أول دعوته - في حد زعمهم -، ودليل ذلك عندهم ما جاء في إنجيل متىٰ:

«فلمَّا اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السَّموات قد انفتحت له، فرأىٰ روح الله نازلًا مثل حمامةٍ وآتيًا عليه، ١٧ وصوت من السَّموات قائلًا: هذا هو ابني الحبيب الَّذي به سررت»(١).

وإذن لا يُقبَل أن يقال: إن المعزي هو الروح القدس؛ لأنه كان موجودًا من أول يوم بدأ فيه المسيح دعوته، كما مر في إنجيل متىٰ.

فمن هو المعزي الآخر؟! بل من هو المعزي الأول؟!

إنها بشارة بالنبي محمد ﷺ، ولكن القوم لا يملكون إلا المكابرة والردود الفلسفية.

ونكتفي بهذه البشارات اختصارًا، وإلا فهي تحتاج إلىٰ مُصَنَّف خاص لذكرها بتوسُّع وإحصاء.

❀❀❀

---

(١) الكتاب المقدس، «إنجيل متىٰ»، الإصحاح الثالث، عدد (١٦، ١٧).



الباب الرابع

فضله ﷺ على من سواه من الأنبياء والرسل

فضل النبي ﷺ على من سواه من الأنبياء والرسل

النبيُّ ﷺ هو خاتم المرسلين، وسيد ولد آدم أجمعين، بل هو إمام الأنبياء وأفضلهم - صلوات الله عليهم أجمعين -، وقد ميَّزه الله وفضله وخصَّه بخصائص، وهذا طرف يسير منها مختصرًا:

قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يعطهنَّ أحد قبلي: كان كلُّ نبيٍّ يبعث إلىٰ قومه خاصَّةً، وبعثت إلىٰ كلِّ أحمر وأسود، وأحلَّت لي الغنائم ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي، وجُعلت لي الأرض طيِّبةً طهورًا ومسجدًا، فأيُّما رجلٍ أدركته الصَّلاة صلَّىٰ حيث كان، ونصرت بالرُّعب بين يدي مسيرة شهرٍ، وأُعطيت الشَّفاعة»[1].

وإذن فقد خصَّه الله جَلَّ وَعَلَا **بأنه**: بُعث إلىٰ الناس عامَّة، وأحلت له الغنائم، وجعلت له الأرض مسجدًا وطهورًا، ونُصر ﷺ بالرعب قبل أن يصل إلىٰ عدوه، وهو سلاح فتَّاك أنهىٰ كثيرًا من الغزوات دون قتال ولا نزال، كما مرَّ في ذكر غزواته ﷺ، فيهرب العدو رعبًا من مواجهة النبي ﷺ وجنده - رضوان الله عليهم -، وأعطي الشفاعة العامة؛ وهي أن يشفع للخلق جميعًا لكي يبدأ الله لهم الحساب.

ومن خصائصه ﷺ: ما جاء عن أبي سعيد، قال قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ**

(١) رواه البخاري ومسلم.

- آدم فمن سواه - إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر»[(١)].

ومن خصائصه ﷺ: ما جاء في قول الله جَلَّ وَعَلَا:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١].

قال العلامة السعدي في تفسيره لهذه الآية:

«يخبر تعالىٰ أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكَّد بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزَّل، والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدىٰ والضلال؛ إنه إنْ بعَث الله رسولًا مصدقًا لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه، ويأخذوا ذلك علىٰ أممهم، فالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدِّق بعضهم بعضًا؛ لأن جميع ما عندهم هو من عند الله، وكل ما هو من عند الله يجب التصديق به والإيمان به؛ فهم كالشيء الواحد، فعلىٰ هذا قد عُلِمَ أن محمدًا ﷺ هو خاتمهم، فكل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لو أدركوه لوجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرته، وكان هو إمامهم ومقدَّمهم ومتبوعهم.

فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل علىٰ علو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الألباني.

لما قررهم تعالىٰ ﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ﴾ أي: قبلنا ما أمرتنا به علىٰ الرأس والعين، ﴿قَالَ﴾ الله لهم: ﴿فَٱشۡهَدُواْ﴾ علىٰ أنفسكم وعلىٰ أممكم بذلك، قال: ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ العهد والميثاق المؤكد بالشهادة من الله ومن رسله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨٢﴾.

فعلىٰ هذا كل من ادَّعىٰ أنه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارىٰ ومن تبعهم؛ فقد تولوا عن هذا الميثاق الغليظ، واستحقوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ» اهـ.

ومن خصائصه وفضائله ﷺ أيضًا: أن الله ما أقسم بعُمر أحد من مخلوقاته إلا بعمره ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

قال الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية: «وقوله: ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ يقول تعالىٰ لنبيه محمد ﷺ: وحياتك يا محمد، إن قومك من قريش ﴿لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ يقول: لفي ضلالتهم وجهلهم يتردَّدون.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك:

عن ابن عباس، قال: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسًا أكرم علىٰ الله من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالىٰ ذكره: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]» اهـ.

ومن خصائصه ﷺ: أن كل الأنبياء معجزاتهم انقضت معهم ولم يبقَ منها

شيءٌ، إلا النبي ﷺ؛ إذ بقي لنا كلام الله المعجز دليل قاطع علىٰ نبوته ﷺ، وهو محفوظ إلىٰ أن يُرفع قبل يوم القيامة من الصدور ومن السطور.

ومن خصائصه ﷺ: أنه الرسول الخاتم؛ فلا رسول بعده ولا شريعة تنسخ شريعته، ولا كلمة للرب تنزل بعد كلام الرب الذي نزل عليه، وبموته ﷺ انقطع اتصال الأرض بالسماء، وانقضىٰ الوحي فلا ينزل أبدًا.



الباب الخامس

حقوق النبي ﷺ على أمته

حقوق النبي ﷺ على أمته

إن من علم سيرة النبي ﷺ وما بذله لله جَلَّوَعَلَا؛ دعوةً للناس وصبراً على أذاهم، وبلاغًا لرسالة الله كاملة دون أدنى تقصير، وتعليمًا لأصحابه ليحملوا الرسالة من بعده لتصل إلى أمته كاملةً من بعده، وليحفظ الله بهم الدين كتابًا وسُنَّة.

وهو خير خلق الله جَلَّوَعَلَا من البشر، اصطفاه الله رب العالمين ليكون إمامًا للأنبياء والرسل وخاتمًا لهم، وأمته هي خير الأمم وأكرمها على الله، وكان ذلك كما هو تشريف للأمة؛ إذ رسولها هو خير الرسل، كان تكليفًا لها أن تقوم بواجبها تجاهه ﷺ.

وهذا ذكر طرف من حقوق النبي ﷺ على أمته مختصرًا:

وجوب الإيمان به ﷺ

وهو ما ينصُّ عليه النصف الثاني من الشهادة: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمَّدًا رسول الله ﷺ».

فمعنى شهادة «أنْ لا إله إلا الله»:

أن يشهد الإنسان بلسانه وبقلبه وبانقياد جوارحه أنه لا معبود حقٌّ إلا الله، فيشهد بلسانه ويؤمن بقلبه أنه لا إله إلا الله، ويطبِّق مقتضى ذلك بجوارحه، ومعناها - كما مر -: لا معبود بحقٍّ إلا الله، وأن ما عَبَدَهُ الناس من دون الله من

أصنام أو أموات أو أشجار أو أحجار أو ملائكة أو غير ذلك؛ كله باطل.

كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، هذا المعنىٰ المختصر للشهادة الأولىٰ؛ أن تشهد عن علمٍ ويقين وصدْق أنه لا معبود بحق إلا الله، وأن ما عبده الناس من دون الله كله باطل.

ومعنى شهادة «أن محمدًا رسول الله»:

الإقرار باللسان والانقياد بالجوارح والاعتقاد الجازم بالقلب بأن محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي؛ هو عبد الله ورسوله، أرسله الله إلىٰ جميع الخلق كافَّة من الجنِّ والإنس.

وأن تُقر بأنه لا مَتْبُوعَ بحقٍّ إلا رسول الله ﷺ؛ إذ هو المبلِّغُ عن الله ولا مبلِّغَ لوحي السماء إلىٰ أهل الأرض غيره ﷺ.

فلا نتبع مرشدًا ولا مدرسًا ولا وليًّا صالحًا من دون الرسول ﷺ؛ فكل مرشد أو مدرس أو ولي لا يدلُّكَ علىٰ اتباع قول رسول الله ﷺ فهو داعية سوء.

قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

ومقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله:

طاعته ﷺ فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، وأن لا يُعبَدَ اللهُ إلا بما شرع، لا بالأهواء ولا بالبدع.

فيجب الإيمان بشريعته ﷺ والانقياد لها: قولًا، وعملًا، واعتقادًا.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا

يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠]. وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢]. وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو ردٌّ**»(١).

فيجب القيامُ الكامل بأركان الإسلام التي جاء بها النبيُّ ﷺ من شهادةٍ، وصلاةٍ، وزكاةٍ، وصيامٍ، وحجٍّ.

والإيمان بأنَّه خاتم الأنبياء والمرسلين لا نبيَّ بعده:

قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلَّما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ، وإنَّه لا نبيَّ بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: **فوا ببيعة الأوَّل فالأوَّل، أعطوهم حقَّهم فإنَّ الله سائلهم عمَّا استرعاهم**»(٢).

وقد بعثه الله إلىٰ الناس كافَّةً - كما مَرَّ بيان ذلك في خصائصه ﷺ -، وافترض الله طاعته علىٰ الجن والإنس؛ فمن أطاعه دخل الجنة ومن عصاه دخل النار.

ولا إيمان مقبولٌ إلا بالإيمان به ﷺ؛ فمن لم يؤمن برسول الله ﷺ فهو كافر، فقد أمر الله في كتابه الناسَ - في أكثر من موضع - أن يؤمنوا بالله ورسوله

(١، ٢) رواه البخاري ومسلم.

ﷺ، فجمع الإيمان به مع الإيمان برسوله ﷺ في أكثر من آية، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ورویٰ الإمامُ مسلمٌ في «صحيحه»، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفس محمدٍ بيده، لا يسمع بِي أحدٌ من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار**»[1].

فيجب الإيمان به ﷺ، وكيف يؤمن الإنسان بنبيه ﷺ وهو لا يعرفه؟!

فيجب علىٰ المؤمنين به أن يعرفوه ﷺ.

❊❊❊

(١) رواه مسلم.

وجوب معرفته ﷺ

فمعرفة النبي ﷺ؛ اسمه ونسبه ونشأته ووطنه وهجرته وجهاده وحياته كلها، ووفاته ﷺ، فضلًا عن شريعته وملته ودينه؛ من أوجب الواجبات علىٰ المسلمين.

وتحصل معرفته ﷺ بدراسة حياته، وما كان عليه من العبادة والأخلاق الحسنة، والدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والجهاد في سبيل الله تعالىٰ.

ومعرفته تجعلنا نصل إلىٰ معرفة فضله علينا؛ فكيف بنا لو لم يُبعث فينا رسول الله ﷺ؟!

لذلك كان الصحابة يحبونه ويوقرونه أعظم مما يُحِبُّ ويوقر أتباع الملوك ملوكهم، فكان بين أصحابه أعظم من الملوك بين أتباعهم.

وجوب محبَّته ﷺ

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

قال العلامة السعدي في تفسيره لهذه الآية:

«وهذه الآية الكريمة أعظم دليل علىٰ وجوب محبة الله ورسوله، وعلىٰ تقديمها علىٰ محبة كل شيء، وعلىٰ الوعيد الشديد والمقت الأكيد علىٰ من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله.

وعلامة ذلك: أنه إذا عُرِض عليه أمران؛ أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوًىٰ، والآخر تحبُّه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا لله ورسوله، أو ينقصه؛ فإنه إنْ قدَّم ما تهواه نفسه علىٰ ما يحبه الله؛ دلَّ ذلك علىٰ أنه ظالم، تارك لما يجب عليه».

وعن عبد الله بن هشامٍ، قال: كنَّا مع النَّبيِّ ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطَّاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلَّا من نفسي. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**لا والَّذي نفسي بيده حتَّىٰ أكون أحبَّ إليك من نفسك**». فقال له

عمر: فإنَّه الآن والله، لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي. فقال النَّبيُّ ﷺ: «**الآن يا عمر**»[(١)].

وفي الحديث دلالة واضحة، لا أقول: علىٰ وجوب محبته ﷺ، بل علىٰ وجوب محبته أكثر من كل شيء، حتىٰ يحبه الإنسان أكثر من نفسه.

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**فوالَّذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتَّىٰ أكون أحبَّ إليه من والده وولده**»[(٢)].

وقد وضع الإمام البخاري هذا الحديث في باب وسماه: «باب وجوب محبَّة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والنَّاس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان علىٰ من لم يحبَّه هذه المحبَّة».

وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - يحبونه أكثر من آبائهم وأمهاتهم وأنفسهم، حتىٰ شهد لهم بذلك أبو سفيان - رضوان الله عليه - وكان لم يُسلم بعد، فقال: «ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كَحُبِّ أصحاب محمد محمدًا»[(٣)].

وروىٰ البيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمان» أنه «جاء رجل من الأنصار إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال: لأنت أحب إليَّ من نفسي وولدي وأهلي ومالي، ولولا أنِّي آتيك فأراك لظننت أنِّي سأموت. وبكىٰ الأنصاريُّ قال له النَّبي ﷺ: «**ما يُبكيك؟**»، قال: ذكرت أنَّك ستموت ونموت، فترفع مع النَّبيين، ونحن إن دخلنا الجنَّة كنَّا دونك؛ فأنزل الله علىٰ رسوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير (٤/ ٦٥)، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٣٢٦).

أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠]، فقال له: «**أبشر**»[(١)].

❊❊❊

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٧): «رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابدي، وهو ثقة».

وجوب توقيره وتعظيمه ﷺ

توقير الرسول ﷺ وتعظيمه علامة الإيمان.

لقد كانت علامة تديُّن الرجل وصدق إيمانه؛ توقيرَه لرسول الله ﷺ، وستظلُّ علامة فارقة بين المسلمين والمنافقين.

فمن وقَّرهُ ﷺ فهو المسلم، ومن لم يجد في نفسه توقيرًا لرسول الله ﷺ؛ فعليه أن ينتبه إذ هو في خطر عظيم جسيم.

سُئل الإمام مالك رحمه الله تعالى: متىٰ سمعت من أيوب السختياني؟

فقال: لقد حج حجتين، فكنت أرمقه [أنظر إليه] ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكىٰ حتىٰ أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت، وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه[1]. [أي أنه لم ينقل عنه الأحاديث إلا بعد أن تأكد من إجلاله لرسول الله ﷺ].

وروىٰ مصعب بن عبد الله رحمه الله تعالى **قال**: «كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغيَّر لونه وينحني حتىٰ يصعب ذلك علىٰ جلسائه، فقيل له يومًا في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليَّ ما ترون:

* لقد كنت أرىٰ محمدَ بنَ المنكدر وكان سيِّد القراء، لا نكاد نسأله عن حديث أبدًا إلا يبكي حتىٰ نرحمه – إجلالًا لرسول الله ﷺ –.

(١) رواه ابن عبد البر في «التمهيد».

* ولقد كنت أرىٰ جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسُّم، فإذا ذُكر عنده النبي ﷺ اصفر لونه، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا علىٰ طهارة.

* ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي ﷺ، فيُنظر إلىٰ لونه كأنه نزف منه الدم، وقد جفَّ لسانه في فمه؛ هيبة لرسول الله ﷺ»[(١)].

فكان من المستقر عندهم - رحمة الله عليهم -: توقير النبي ﷺ بعد موته كتوقير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ له في حياته، فلا يرفعون أصواتهم في مسجده إجلالًا وتوقيرًا له عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ وكان من توقيرهم للنبي ﷺ أنهم لا يحدِّثون بحديثه إلا وهم علىٰ أحسن حال وهيئة، ويعلِّمون أتباعهم ذلك.

قال أبو سلمة الخزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: «كان مالك بن أنس إذا أراد أن يخرج ليُحدِّث توضَّأ وضوءه للصلاة، ولبس أحسن ثيابه، ولبس قلنسوة، ومشط لحيته، فقيل له في ذلك؛ فقال: أوقِّر به حديث رسول الله ﷺ»[(٢)].

❁❁❁

---

(١) «الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ» صفحة (٤٠٢).

(٢) أسنده ابن عساكر في «كشف المغطا في فضل الموطا» برقم (١٢).

وجوب الصلاة على النبي ﷺ

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية.

«**والمقصود من هذه الآية**: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلىٰ، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه. ثم أمر تعالىٰ أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه؛ ليجتمع الثناء عليه من أهل العالَمَيْنِ العلوي والسفلي جميعًا» اهـ.

«وقد صعد رسول الله ﷺ المنبر، فلمَّا رقي عتبةً، قال: **آمين**، ثمَّ رقي عتبةً أخرىٰ، فقال: «**آمين**»، ثمَّ رقي عتبةً ثالثةً، فقال: **آمين** ثمَّ قال: **أتاني جبريل، فقال: يا محمَّد، من أدرك رمضان فلم يُغفر له؛ فأبعده الله. قلت: آمين. قال: ومن أدرك والديه أو أحدهما، فدخل النَّار؛ فأبعده الله. قلت: آمين. فقال: ومن ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك؛ فأبعده الله. قل: آمين. فقلت: آمين**»[(١)].

وإذن؛ فيجب علىٰ المسلم إذا ما سمع اسم النبي ﷺ ، أن يصلي عليه، وإلا فهو داخل في دعاء جبريل وتأمين النبي ﷺ؛ «**فأبعده الله**».

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه»، وصححه الألباني.

خاتمة

وفي نهاية هذا الكتاب لا أجد ما أقوله إلا أني حزين علىٰ انتهائي من الكلام عنه ﷺ، ولكن أردت الاختصار فخرج الكتاب كما هو بين يديك، وإن كنت لم أوفِّه شيئًا من حقه ﷺ في ذكر سيرته العطرة كاملة للناس، ولكن لأننا في زمان لا تحسن الناس فيه القراءة ولا المثابرة عليها؛ جعلت الكتاب مختصرًا ما استطعت، ولعلي في الطبعة التالية - إن شاء الله - أجعله علىٰ كتابين ؛ لتصبح السيرة النبوية في كتاب مع شيء من الاختصار، وأما «أدلة صدقه ﷺ وخصائصه وحقوقه علىٰ أمته» فنبسط فيها القول ونجعلها في كتاب آخر؛ تسهيلًا علىٰ المسلمين الذين ألهتهم الحياة ووسائل التواصل وما أشبه عن معرفة نبيهم ﷺ.

ولا أنسىٰ أن أشكر كل من استفدت من كتابٍ له في هذا العمل، سواءً كان من المتقدِّمين أو المتأخِّرين، فليس لي في هذا الكتاب إلا الجمع والترتيب، والله أسأل أن يكتب له القبول، وأن يُقبل به بقلوب المسلمين علىٰ سيرة نبيِّهم ﷺ.

وكتب

مصطفى حسين عوض

عفا الله عنه وعن والديه، وبارك له في ذريته وأهله، آمين

❀❀❀

الفهرست





اقرأ في هذا الكتاب

مختصر لسيرة خير رسل الله إلى البشرية، محمد ﷺ، من مولده إلى مماته صلوات الله عليه، اختصرتها اختصارًا أرجوا ألا يكون مُخِلًا، ومهدت لها بمقدمة عن أهمية معرفته ﷺ وألحقت بها الأدلة العقلية على صدقه ﷺ في دعوته، ثم خصائصه وفضائله ﷺ، وختمت الكتاب بحقوقه ﷺ على أمته.

كتبت الكتاب بأسلوب دعوي مختصر ليصل إلى جميع المسلمين، في زمن يُقصر فيه المسلمون في حق نبيهم ﷺ - إيمانًا به وتصديقًا بسنته، وعملا برسالته ﷺ - .

فكلما أظلم علينا الطريق ازدادت حاجتنا إلى الرجوع إلى سيرته وسنته والسير على خطاه ﷺ، ليعود النور من جديد، وليرتفع الذل والهوان وليُكرمنا الله بالعزة والتمكين ببركة اتباعنا لنبينا محمد ﷺ.

المؤلف


هذا هو محمد ﷺ - مصطفى حسين عوض - مركز تبصير
9 789776 713055
/tbseir.com /tbseir /tbseir
01102260020 01019757010

